الثقافة الجديدة

فكر علمي ... ثقافة تقدمية

429

آذار 2022

مقالات

رهبة أسودي حسين

كاوه محمود

مصدق دلفي علي

عبد العزيز حجو

ابراهيم اسماعيل

ملف : الواقع الزراعي في العراق

صالح محسن بدر

علي العرار

هندي حامد الهيتي

أحمد عبد علي القصير

نصوص قديمة

عامر عبد الله

حوارات

حوار مع الأستاذ رائد فهمي

نصوص مترجمة

دوناتيلا ديلا بورتا

أدب وفن

حسب الله يحيى

نادية هناوي

صبيح الجابر

حميد حسن جعفر

صلاح جبار الحسيني

طلال حسن

ازهر داخل محسن

اسماعيل ابراهيم عبد

ظاهر شوكت

الشاعرة إلا بول لارا

التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 429
آذار: 2022

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
hassab1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- المثقف وانتفاضة الربيع العربي ..... رهبة أسودي حسين
19- الحزب الشيوعي الكوردستاني واليسار الكوردستاني ..... كاوة محمود
27- الثروة السمكية في العراق ..... مصدق دلفي علي
34- تجارب تربوية من السويد ..... عبد العزيز ججو
37- قراءة في كتاب: لمحات تاريخية من تطور الفكر السياسي الشيعي ..... ابراهيم اسماعيل

ملف العدد: الواقع الزراعي في العراق

42- أهمية البحث العلمي في تطوير القطاع الزراعي ..... صالح محسن بدر
52- واسط: عاصمة العراق الزراعية.. بين الواقع والخيال ..... علي العرار
62- الزراعة في محافظة الانبار.. الواقع والطموح ..... هندي حامد الهيتي
76- ملاحظات في واقع الزراعة في محافظة النجف ..... أحمد عبد علي القصير

نصوص قديمة

86- نقض... النقيض ..... عامر عبد الله

نصوص مترجمة

98- الاحتجاج في الحركات الاجتماعية.. لـ دوناتيلا ديلا بورتا ..... ترجمة: نجاح الجبيلي

حوارات

110- الثقافة الجديدة تحاور الاستاذ رائد فهمي

أدب وفـن

138- آذار ... موعد مع الفرح ..... حسب الله يحيى
140- النسويّة العموميّة: نحو فكر محوري ..... نادية هناوي
145- الوعي وتطور التفكير العقلي في (لامية العرب) للشنفرى ..... صبيح الجابر
151- بلقيس خالد : بعيداً عن المحاكمات المتسرعة ..... حميد حسن جعفر
159- عبد الوهاب البياتي شاعر الاغتراب/ ظاهرة إبداعية ..... صلاح جبار الحسيني
166- (المحقق) مسرحية من فصل واحد ..... طلال حسن
174- جنان محمد: بين القيمة الجمالية والفكرية ..... ازهر داخل محسن
178- فن الرواية: تقنية لحياة عناصرها ..... اسماعيل ابراهيم عبد
183- نعوش السلام ..... بيداء حكمت
185- قصة قصيرة (الوالي المحسّن) ..... ظاهر شوكت
191- بينما اكتبُه.. الشاعرة إلا بول لارا ..... ترجمة: عبدالوهاب الدايني

لوحتا غلافي العدد للفنان علي رضا سعيد

الحرب الروسية على أوكرانيا . . محاولة للفهم

دخلت البشرية رسميا، مع بدء اجتياح القوات الروسية لأوكرانيا، مرحلةً او "منعطفاً" تاريخياً جديداً. لكن جدّته لم تتأتَ من الحدث ذاته، فهو ليس حدثاً غير مسبوق. فتفاصيله وملابساته، بكل آلامها ودمويتها معادة. كما ان "مسوغاته" الايديولوجية بكل زخارف كذبها مكرورة الى حد الغثيان. فهو يتشابه الى حد كبير مع وقائع قاسية ودموية اخرى جرت خلال العقود الثلاثة الأخيرة. فاستباحة سيادة الدول، وانتهاك "الشرعة الدولية"، مسألة مألوفة على مسرح الصراع العالمي خلال هذه الأعوام. وبعضها مثّل حروبا بالوكالة لصالح بلدان المراكز الرأسمالية. كما انها في غالبيتها، حدثت في بلدان الأطراف بعيدا عن اراضيها. وفي هذا النشاط تحوز الولايات المتحدة الامريكية قصب السبق، بلا منازع. حيث ان الحروب والانتهاكات غير الأمريكية، كانت دائما تجري على هامش هيمنتها.

ما الفريد المميز في هذه الحرب؟

ان ميزة الحرب الرئيسية، انها أعادت الى الواجهة، الى الذاكرة، ما كان كامنا او مستورا، وما صار منسيا من طبيعة الامبريالية، وجوهرها. هذا الجوهر القائم أساسا على الصراع من اجل تقاسم العالم والتنازع على مناطق الهيمنة والنفوذ، وانتهاز الفرص لتوسيع "المجال الحيوي" وفضاء التأثير، او على الأقل الاستقتال في سبيل المحافظة والتمسك بما تحت يديها. ان هذا الصراع بين المراكز الامبريالية، يقود لا محالة، عاجلا ام اجلا، ومهما طال الزمن الى: الحرب. فالحرب هي نزوع متأصل، بل هي سمة الامبريالية الجوهرية وجزء اساسي من طبيعتها.

وان فترة الهدوء، والكمون النسبي للصراعات الصريحة والمفتوحة، الذي تلا الحرب العالمية الثانية، يمثل مجرد "مرحلة انتقالية"، ساهم في تشكلها واستمرارها تشابك وتداخل الكثير من الظروف والعوامل. لعل من أبرزها: وحشية الحرب العالمية وويلاتها؛ الحرب الباردة وما رافقها من توازن رعب نووي، وما تلاها من هيمنة الولايات المتحدة "شرطي العالم"، الذي يقود نهاية مزعومة للتاريخ؛ تنامي حركات التحرر الوطني والقوى التقدمية وانحسار الاستعمار؛ ابتكار اشكال متنوعة من "الاستعمار الجديد"، واعتماد الحروب بالوكالة. وقد نهض كل هذا على أساس تحولات عميقة في بنية الرأسمالية، أدت في نهاية المطاف الى استفحال وتغول كل اشكال رأس المال الوهمي المعاصرة، والذي يتطلب أساسا استقرارا وهدوءا في الاسواق.

لماذا العودة الى الصراع العلني والمفتوح عسكريا
في هذه اللحظة بالذات؟

بعيدا عن الدخول في الملابسات الملموسة للحرب الحالية، وتفاصيلها التاريخية، ترى ما هي الشروط والعوامل التي فعلت فعلها خلال السنوات الماضية، وساهمت في انهاء مرحلة الهدوء، وعرّت حقيقة الرأسمالية المعاصرة؟ كونها أساسا قائمة على الهيمنة والسيطرة، وان الحرب ستظل واقعة حتمية في سيرورات تطورها؟

يبدو أن اول هذه الشروط هو تضعضع هيمنة ومكانة الولايات المتحدة، باعتبارها القوة العظمى التي تقود العالم. فهي تواجه باستمرار منافسات سياسية واقتصادية متنامية، لم تعد قادرة على منعها او إعاقتها. بل حتى ان جبروتها العسكري وسيطرتها على النظام المالي العالمي، لم يمكناها من كبح نزعات الهيمنة والسيطرة عندهم. وقد ترافق ذلك مع صعود إدارات ضعيفة الى سدة الرئاسة الامريكية.

وعلى الرغم من اختلاف المراكز الرأسمالية، الصاعدة والقديمة على كيفية التخلص من هذه الهيمنة او اضعافها على اقل تقدير، واختلافهم حول البديل، لكنهم يتفقون ضمنياً على أن زمن النظام العالمي الذي تقوده الولايات المتحدة شارف منذ مدة على الانتهاء. وهذ الاستنتاج لم تتوصل له الصين وروسيا فقط، ومن يدور في فلكهم من دول "مارقة" او "غير مارقة". بل ان الاتحاد الأوربي ودوله الأساسية: المانيا وفرنسا قد توصلتا الى ذات الاستنتاج. وقد تجلى هذا على وجه الخصوص، مع بروز مشاكل تجارية وتباينات سياسية واضحة بينهم في السنوات الأخيرة.

ثانيا. الفشل السياسي والعسكري المتكرر للتدخلات الامريكية في العالم، وتهاوي كل ذرائعها المختلقة، اثبتا ان "نظاما عالميا" تقوده الولايات المتحدة الامريكية سيظل يعاني من تشققات وخروقات كثيرة. فلا أحد يستطيع نسيان فشل التجارب الامريكية، في تحقيق أهدافها على كافة الأصعدة، سواء في الصومال ام العراق واخيرا أفغانستان وسوريا غيرها. بل ان فشلها أوضح في كونها لم تعد قادرة حتى على لجم الدول والقيادات التي تخرج عن طوعها.

ثالثا، شهدت بلدان المركز الرأسمالي في العقود الأخيرة تناميا لافتا في الخطاب الشعبوي، استطاع الكثير من رموزه الوصول الى سدة الحكم. وهو وان كان مدموغاً بطبعة تتلاءم مع متطلبات العصر فإنه يبقى في حقيقته خطاباً ايديولوجياً محافظاً في جوهره بل وحتى رجعيا في بعض مضامينه، يلعب ببراعة وتهور على حدود الصراع بين اليمين التقليدي والمتطرف حول قضايا من قبيل: الدين والقومية. ويوظف كل الطاقات في سبيل ابتكار سرديات "تاريخانية" تخدم مشروعه: التخلص من تبعات أزمات بلده المركبة عبر مسخ، او حتى إلغاء الاخر.

وإذا اضفنا الى ما سبق شروطاً وعوامل اخرى لا مجال لتفصيلها هنا، على أرضية الاضطرابات الاقتصادية العميقة التي ضربت المنظومة الرأسمالية خلال العقود الثلاثة الاخيرة، وفي مقدمتها الازمة الاقتصادية العالمية عام 2008 والازمة الاجتماعية الاقتصادية التي رافقت تفشي وباء كورونا، وما رافق هذه الاضطرابات والازمات من انحسار واضح للخطاب النيوليبرالي؛ إذا وضعنا كل هذا في الحسبان نستطيع تتبع مسارات التقاطع بين هذا النزوع التاريخي المتأصل من اجل تقسيم وإعادة تقسيم مناطق النفوذ والهيمنة، بالخلفيات السياسية للأزمة الروسية الأوكرانية، والتي أدت الى اندلاع الحرب.

دمار شامل ام نظام عالمي جديد؟

بعد اندلاع الحرب، جرى الحديث عن منعطف تاريخي وعن مرحلة تاريخية، تكاد ان تكون غير مسبوقة. فالرعب النووي ليس امرا مستبعدا عن الطاولة، ويعد الامكانية الأشد تطرفا. فقد جرى التلويح به، حتى وان كان على سبيل التنبيه او التذكير لا التهديد. والقضية لا تحتاج الا الى متعصب مخبول كي يلقي بالبشرية الى الهاوية. والنتيجة، بدلا من حرب عالمية ثالثة "نووية"، ستترك أوكرانيا لتواجه مصيرها بنفسها.

وجرى الحديث ايضا عن ارهاصات نظام عالمي جديد، تؤذن بشائره بأفول الهيمنة الامريكية. وهذا هو التحدي الرئيسي الذي يواجه المنظومة الرأسمالية العالمية، وهذا بالتأكيد أكبر من الازمة الأوكرانية بكثير. ربما نحن اليوم شهود لانطلاق مرحلة ستنتهي خلالها الزعامة المطلقة للولايات المتحدة. يعاد فيها تنظيم التوازنات الامبريالية مرة أخرى، لصالح بناء عالم متعدد الاقطاب.

التضامن مع الشعوب ومناصرتها قضية مبدأ

إن التضامن مع الشعوب المظلومة ومناصرتها مسألة مبدأ، يجب ان تبقى بعيدة كل البعد، عن جميع الحسابات الضيّقة، سواء أكانت للمعتدين، ام لمنافسيهم. ثم ان مهمة الثوريين ستبقى تغيير العالم. ولا مجال للشك نهائيا انه لا يمكن الخلاص من شرور النظام الرأسمالي الا باقتلاعه من جذوره. وهذا يستلزم الوقوف الدائم بوجه كل اشكال النزعات الامبريالية المتأصلة فيه. كما ويستلزم ايضا تضامناً اممياً لا هوادة فيه مع جميع الشعوب المقهورة. وإنجاز هذه المهمات يقع أولا وأخيرا على عاتق الطبقات الكادحة وقوى اليسار والسلام والتقدم في بلدان المراكز والاطراف.

مقـــــالات

المثقف وانتفاضة الربيع العربي

د. رهبة أسودي حسين
باحثة أكاديمية، مدير عام دار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة – بغداد – سابقاً

بعد أن عصفت رياح (الربيع العربي) في دول عربية عديدة، لم تكن عملية استبدال الانظمة الشمولية الاستبدادية قد سارت بخطوات طبيعية، فالربيع العربي بدأ مع انتحار بائع الفاكهة التونسي، ولنا أن نتصور أن الربيع يبدأ بحالة موت بشعة لإنسان همه الوحيد أن يكسب قوت يومه، في حين أخذ (البعض) يرى في (محمد البوعزيزي) بفعل الإحْراق ذاك، انتقل من مجرد بطل، الى "ايقونة حياة وتحرر"(*)، وأثبت صحّة الافتراض الذي طالما رفضه العقل والمنطق، والقاضي بإمكان انبثاق الحياة من الموت والدمار؛ كما في أسطورة الفينيق أو العنقاء، وفي الأساطير المُشابهة لها في التراثين اليوناني والعربي وعلى الرغم من هذا (التعظيم) لفعل الانتحار فلن يغفر للذين اعتادوا تلوين المآسي بألوان زاهية أن موته بهذه الصورة هو عقاب لنا لما يسود من إستبداد سياسي وإجتماعي وديني في مجتمعاتنا العربية. لقد طرق هذا الربيع ابواب العرب بعنف جعلهم يفيقون من سبات عميق عاشوا خلاله تحت سلطات شمولية مضطربة جعلت من دولهم تتأرجح بين اوضاع خلفتها مشكلات داخلية (اقتصادية، واجتماعية، وثقافية..)، ومشكلات خارجية خلفتها السلطات من جراء حروب كثيرة وأخرى لا حصر لها دفعت أثمانها مجتمعات

هذه الدول. وبما أننا آثرنا بحث موضوع دور المثقف العربي في الربيع (أنموذج إنتفاضة تشرين في العراق) فسيكون بحثنا مخصصا في اطار هذا الدور عن طريق بحث النقاط الآتية:

أولا/ في مفهوم المثقفين وأدوارهم:

إن الفعل (ثقف) بمعنى حذق وفهم وادرك[1]. والمتعلم والدارس المتمرس والمثقف المطلع والمفكر النشيط وانتلجنسيا في الكثير من الكتابات المختلفة[2]. تستخدم مفردة (Intellectual) للدلالة على كل من يستخدم فكره مقابل مفردة (اليدوي) وهذا ما ذهب اليه (روجيه غارودي)[3]. في حين يرفض (انطونيو غرامشي) فكرة حصر اهتمامات المثقف في العمل الفكري فقط إذ يستحيل عزل الإنسان العالم عن الإنسان العامل.. اذ كلاهما يستخدم فكره على نحو أو آخر وعليه يجد (غرامشي) "أن جميع

الافراد في مجتمع ما مثقفون مع الاستدراك، بأن جميع الافراد لا يمارسون وظيفة المثقفين في ذلك المجتمع"[4]. فعموم المثقفين يبقون حاملين حيازة من المعرفة التي يكسبونها بوصفهم أعضاء في مجتمع ما، ولكن أدوار المثقفين تختلف من خلال التميز الفردي الذي يؤهل صاحبه للتمتع بأدوار قيادية في المجتمع. وفي الواقع أن محاولة التمييز بين العمل الذهني واليدوي تبقى قاصرة، فمن المستبعد أن يطلق على المثقف أن مهنته تنحصر في (التفكير)، فربما تطلق هذه التسمية على فلاسفة اليونان مثلاً فحوارات (جمهورية أفلاطون) خير مثال على ذلك، أما في العصر الحديث فتسمية المثقف أخذت تقترن بالممارسة العملية، بنشاطات كثيرة حاول فيها المثقف ترجمة أفكاره، فمنهم من أصاب في ترجمة هذا الفكر وكثير منهم قد خاب في نقل ما يفكر به الى واقع الممارسة العملية. فمفردة المثقف أخذت تخرج من هيمنة لفظة المفكر أي الفكر لتقترب من نشاط عملي (Active) للفرد الذي يطلق عليه المثقف المطلع ((Cultured، فالممارسة أضحت هي السمة الغالبة على من يطلق عليهم بالمثقفين.

لقد ارتبطت مفاهيم المثقف بأدوار المثقفين فبين مثقف (لينين) الثوري الذي يتحالف مع القوى الاجتماعية المهيأة تأريخياً من أجل تحقيق التغيرات الكبرى في مجتمعه. فهو ليس ذلك المنتمي الى الطبقة المضطهدة، ولا ذلك المعدم اقتصادياً مادام الاغتراب (الانسلاخ) الطبقي وارداً بحكم (التثقف) فقد يتبنى فرد من طبقة ما فكر طبقة أخرى، ولو مضادة لانتمائه وهذا ما يمكن تسميته بتبادل الاغتراب[5]. ويميز (غرامشي) مفهوم المثقف بالتفريق بين المثقف (التقليدي) الذي يواصل ويكرر فعل الاشياء نفسها من جيل الى آخر مثل المدرسين والكهنة، والمثقف (العضوي) الذي يحقق ارتباطه العضوي بطبقته عن طريق تنظيم سياسي، وهو الحزب الذي يمثل (المثقف الجماعي[6]). فيما يجد (سارتر) أن مفهوم المثقف التقني الذي ينحصر دوره في عمل تقني معين كعالم الذرة وعالم القانون ولن يكون هؤلاء مثقفين الا إذا أضافوا الى عملهم فعلاً سياسياً أو اجتماعياً يجعلهم جزءاً من الرأي العام الذي يوجه السلطة السياسية[7]. ويجد المفكر الفرنسي (ريمون آرون) أنه ليس من شأن المثقف الدخول في السياسة لأن المثقف رجل الافكار ورجل العلم، فالمثقف يميل الى طرح الافكار بصورة تجريدية وذلك بحلول غير واقعية متجاهلاً الامور الجوهرية ومختلقاً مشكلات زائفة[8]. ويمكن تلخيص دور المثقف في ضوء الآراء أعلاه في دلالتين مزدوجتين هما:

الدلالة الاولى: ترى في المثقف مدافعاً عن حقوق مجتمعه عن طريق سلطة غير معنونة يمارس المثقف عبرها (نفوذه)، مصدر هذه السلطة المعرفة التي يتحلى بها، ووسيلته الدور الذي يمارسه، وهدفه التغيير. فيما تحمل الدلالة الثانية: فكرة ابعاد المثقف عن مشكلات مجتمعه وضرورة محافظته على استقلاله العلمي.

ثانيا/ التنظير العربي لأدوار المثقفين:

يعد علي حرب من المفكرين الذين أنكروا أن يكون للمثقف أي دور عن طريق تساؤلاته التي طرحها في كتبه (أوهام النخبة)[9] حيث يعلن فشل المثقفين في ترجمة شعاراتهم، فضلا عن تحولهم الى مجرد باعة للأوهام،

فلم يتمكنوا من تجديد عالم الفكر. أما دعوة المثقف الى حرية فقدها مجتمعه فقد جاءت عبر ممارسته الاستبداد في تبني طروحات الحرية ويعلن علي حرب (نهاية المثقف) فأنهم ليسوا "قدس الأقداس ولا رسل الهداية"، بل هم أصحاب مصلحة وسلطة، بل "إن السياسي المحترف هو أقل من المثقف ممارسة للعنف، وأقدر منه على تسيير الأمور وتدبير الشؤون العامة"[10]. فيما حمل الدكتور أبو يعرب المرزوقي الفكر العربي الحديث من سيطرة النماذج السقراطية والوجودية والنتشوية والماركسية حول وجوب الكف عن تأويل العالم المجرد من الموقف الحياتي. فما "الفائدة من الالتزام بعمل يقدم عليه من ليست لعمله فاعلية مباشرة أو قيادة غير مجرد الالتزام الموقفي؟[11] ويرى عبد الإله بلقزيز في كتابه "نهاية الداعية"[12] أمراض المثقفين المتمثلة في (مفارقات اللاتوازن) وهي: 1) النرجسية الثقافية. 2) السادية الثقافية. 3) المازوشية الثقافية. 4) المؤامرة. 5) الفوبياء الثقافية. (فالمثقف) شغوف بنفسه مولع بإعجاب الناس به. ولا يختلف فهمي جدعان عن الاراء التي تعلن عن نهاية المثقف من خلال تساؤله: "إذا كان النظر في واقع المثقفين، يكشف في الجملة عن هذه الأحوال والعوارض الذاتية التي لا تبعث على السرور كثيراً، فما جدوى هؤلاء المثقفين في حياتنا؟ وما الذي يمكن أن ننشده لدى أناس تعرض علينا "أفعالهم"، خارج "مستوى الوعي"، هذا الحشد الجسيم من المثالب والنقائص وضروب الضعف؟[13] وينتقد برهان غليون سلوك المثقف النبوي عن طريق سعيه في توفيق وهمي وحالم به، لا حقيقي، بين ثقافة عالمية معيارها ومصدرها هو الغرب، وثقافة شعبية محلية ترتبط بالتراث، في حين أن الهوية الثقافية لا تتحقق مع نظرية تبحث عن التوفيق بين الماضي والحاضر، نظرية يصونها مثقفون بصيانتهم للتراث، فالهوية الثقافية لا تتحقق إلا بالتفاعل الذي يؤهل كل ثقافة لأن تكون مبدعة ومنتجة[14].

إن نزعة التشاؤم التي تناولت دور المثقف عند حرب والمرزوقي وبلقزيز وجدعان وغليون تقابلها نزعات التفاؤل عند إدوارد سعيد في بحثه عن المثقف البطل والمثالي الذي من شأنه أن يقول كلمة الحق، وأن يتصدى لاستبدادية المؤسسات الحديثة، فمن الصعوبة تجاهل دور المثقف الى مهنة محضة، لا يهتم إلا باداء عمل معين، فان الموهبة الحقيقية للمثقف تمكنه من توضيح رسالة، أو موقف أو فلسفة، بالفاظ واضحة لجمهور ما، ونيابة عن هذا الجمهور، كما تجد السلطة والجهات الاخرى الصعوبة في استيعاب المثقف الذي يؤمن بالمبادئ العمومية التي هي من حق البشر ومحاربة الانتهاكات التي تقف ضد هذه المبادئ[15]، ولا تختلف نظرة التفاؤل هذه عن مفهوم دور المثقف عند محمد عابد الجابري فالمثقف هو "ذلك الشخص الذي يتجاوز العوائق التي تحول دون نظام اجتماعي أفضل، نظاما أكثر فاعلية، نظام أكثر إنسانية ، وأكثر عقلانية "[16]. أما علي أومليل فيرى أن المثقف العربي يطالب بسلطة ثقافية مفقودة، حالم بها، تحققت في مجتمعات أخرى ناضل سياسيوها كما مثقفوها نضالا سياسيا وثقافيا تراكميا، استمر لبضعة قرون منذ فجر الحداثة وفترة هجرة أفكار القرون الوسطى. لا يعني هذا أن المثقف العربي لا يمتلك وسائل النضال بل والمواجهة أحيانا للسلطة السياسية الحاكمة، بل كل ما هنالك

وحسب علي أومليل أن نضال المثقف لم يكن نضالا ثقافيا من أجل الديمقراطية، فالذي "يثير الانتباه هو أن قضية الكتاب الالتزاميين العرب في الخمسينات والستينات لم تكن هي الديمقراطية، بل قضايا أخرى أعطوها الأسبقية مثل الوحدة العربية والاشتراكية وهكذا عولوا ضمنيا على الانقلابية"[17]. وهكذا جاء التنظير العربي لادوار المثقفين بين نظرة متشائمة تحاول أن تلغي ادوار المثقفين وأخرى متفائلة تحاول جاهدة البحث عن ادوار مهمة للمثقف.

ثالثا/ المثقف في مواجهة الربيع العربي:

اما (الربيع العربي) الذي غدا مفهوما مألوفاً لدى وسائل الاعلام (في حينها) بمختلف أصنافها حتى عُد مفتاح حديث المناسبات الثقافية والسياسية، فلا حديثَ مسموعا أو مقروءاً يخلو منه فأصبح دلالة على مدى تفاعل الكاتب او المتحدث مع أحداث (هذا الربيع) في حينها. باغتت تداعياته المتسرعة المثقف فلم تسعفه بلاغته (اللغوية) أو تنظيراته (الفكرية) في تحديد موقفٍ واضح منه بل صدرت مواقف عن بعض المثقفين تضاد المواقف التي دافع عنها عقوداً طويلة وكأن هذه الاحداث حطمت شرنقته التي تحصن بها وربما حل الربيع العربي ليثبت صحة الافكار التي تناولت ادوار المثقفين على اختلاف انتماءاتهم العقائدية. وهناك سؤال لماذا أطلقت تسمية الربيع العربي على مجموع الانتفاضات التي شهدتها دولٌ عربية متعددة على الرغم من أن أحداثها وقعت في أشهر الشتاء العربي وبالتحديد شتاء 2010؟ لقد جاء اقتباس المصطلح من أحداث اوربية عدت تواريخ حاسمة في تاريخ دولها ومنها ثورات (ربيع الشعوب الاوربية لعام 1848) التي شملت فرنسا، والمانيا، وايطاليا، والمجر، والدنمارك، وبولندا وغيرها من الدول الأخرى. وكذلك (ربيع براغ - 1968) عند دخول القوات السوفيتية براغ، وكذلك أحداث ربيع (أوربا الشرقية) بعد انهيار (الاتحاد السوفيتي).

لقد تباينت مواقف المثقفين من أحداث الربيع العربي باشكال مختلفة ولنقف أولا: عند كتاب «الى اين يذهب العرب.. رؤية 30 مفكراً فى مستقبل الثورات العربية»[18]، فقد استحضر هؤلاء المفكرون (التجربة العراقية) على الرغم من التجاهل المقصود في شمول العراق بالربيع العربي الذي سبق ربيعهم بعقود طويلة وفي التحديد (آذار/1991) فجعلوا من أحداث وتداعيات الاحتلال الامريكي وسقوط بغداد (9 /4 /2003) الاساس في تخوفهم من التغيرات التي رافقت التجربة العراقية، وكان منطلق الخوف وكما جاء في مقدمة الكتاب هو:

- الغزو الاجنبي فالاحتلال والصراع الداخلي الذي كاد يصل إلى حد الحرب الاهلية.
- ازمة الثقة التى تعانيها الذات العربية متمثلة في التدفق الفوري والحر للمعلومات سواء على شبكة الانترنت ام من خلال الفضائيات التي يتعرف العرب عبرها على الهوة الحضارية الواسعة التى تفصلهم عن الغرب وعن بعض القوى الآسيوية التى فرضت وجودها على الساحة العالمية.

لقد انقسمت آراء المثقفين التي عكست (التيارات الليبرالية واليسارية والإسلامية والعروبية)، بين نجاح الثورات الربيعية بسبب الاخذ بالوسائل الديمقراطية في بعض

دول الربيع التي تتلخص بـ (قيام الانتخابات وتشكيل هيئة لكتابة الدستور والاستفتاء عليه..) وبين الجزم القاطع بفشل هذه الثورات بسبب سيطرة التيارات الاسلامية وإحتمالات إنهيار هذه الدولة جراء التعديات القومية والمذهبية للمكونات المجتمعية والصراع على السلطة. فلم تحمل آراء هؤلاء المفكرين شيئا جديدا عما تناولته وسائل الاعلام أو لنقل آراء الرجل (العادي) في الشارع العربي بل حملت بعض الآراء بحثها عن (قائد) لهذه الثورات وكأنها تبحث عمن يحمل المسؤولية عنها وهنا نعود الى القيادة (الفذة) و(القائد الضرورة)...

في حين يستبعد علي حرب دور المثقف في الربيع العربي في كتابه «ثورات القوة الناعمة في العالم العربي»[19] حيث يجدّد ثقته بقدرة التقنيات المعلوماتية الحديثة، وشبكات التواصل الإلكتروني، على دفع هذه الثورات إلى الأمام، بما تحمل من امكانيات يستثمرها الجيل العربي الشاب بكفاءة منقطعة النظير، تتيح له أن يتجاوز ما قصّرت عنه الأجيال النهضوية السابقة، حينما وقفت من الحداثة ومكتسباتها وآلياتها وقفة المحتار المتردد والمتخوّف. بينما ينخرط هذا الجيل بسهولة، في مسار الحداثة وتقنياتها الرقمية ومعطياتها، وترجمتها عملياً وواقعياً. من تعاقب الانتفاضات وتمدّدها وانتشارها والتعاطف معها، فأن نجاح الثورات العربية التي يقودها اليوم الشباب، بمختلف مناحيهم ومشاربهم ومرجعياتهم، يعد انتصاراً لثقافة العصر على الموروث الأيديولوجي الأصولي النضالي الجهادي، والنموذج النخبوي والبيروقراطي. وبهذا يعلن حرب نهاية المثقف العربي النرجسي الأحادي الرسالي الذي تنبأ به في كتاباته السابقة فالحاكم والمثقف كلاهما متأله وعاشق لذاته نابذ لغيره، الأول ينفرد بالسلطة والثاني يحتكر الحقيقة، وبالتالي فإن ما جرى في تونس ومصر وغيرهما من البلدان العربية، إنما يفكك ثنائية النخبة والجماهير بقدر ما يكسر عقلية الوصاية على القيم والمجتمعات بعقل نرجسي وفكر أحادي. في الوقت ذاته ينتقد المثقفين العرب المزدوجي الولاء الذين ينحازون إلى الانتفاضة الشعبية في بلد، ويرفضونها في بلد آخر، على وفق أهوائهم السياسية، وارتباطاتهم المشبوهة. وبذلك عملت هذه الثورات على خلع عباءة الأيديولوجيات المقدسة بثوراتها ومقاومتها وانقلاباتها وأحزابها. وكسر عقلية النخبة والانتقال إلى المجتمع التداولي حيث كل الناس فاعلون ومشاركون في أعمال البناء والإنماء، كل من موقعه وبأدوات اختصاصه وإبداعاته في مجال عمله. واخيراً التخلي عن منطق العنف للعمل على تغيير الأوضاع وتحسين الأحوال بأساليب ووسائل سلمية مدنية وتواصلية، خاصة أن الميل إلى السلم يقوى يوما بعد يوم على وقع الأزمات وعلى نحو تزداد معه القناعة بحاجة البشرية إلى الانضواء تحت سقف رمزي خلقي يستبقي أو يستنجد بقيم التقى والتواضع والاعتراف والزهد[20].

وكما عودنا دائما من خلال قراءته الدقيقة والرصينة لتاريخ الفكر الاسلامي ينطلق الدكتور الحبيب الجنحاني بموضوع حيوي يحدد من خلاله موقفه من أحداث الربيع العربي متسائلاً (ما هي طبيعة الدولة الجديدة التي ستشيّد على أنقاض مرحلة الاستبدادية العربية؟) ولا سيما بعد (سيطرة) التيارات الاسلامية على صناديق الاقتراع وأفول

التيارات المدنية (الليبرالية) والاشتراكية (الماركسية) على مختلف تسميتها. وتبدو دعوته واضحة برفض قيام دولة دينية تحت أي مسمى وبضرورة قيام دولة مدنية[21].

ويجد سماح ادريس أن الربيع العربي يجعل الناشر أمام مسؤولية كبيرة في كل ما ينشر ويذاع وضرورة الانفتاح على آداب عالميّة ونقلها إلى العربيّة. وثورة في نشر أدب أطفال جديد بعيداً عن الوعظ، والتلقين، واستغباء الأطفال، والتقعّر في اللغة، فضلاً عن ثورة في توزيع المطبوعات المختلفة الوصول إلى أقصى أقاصي الوطن العربيّ الكبير، ولاسيّما في مواجهة زحف النشر المعولم إلى المنطقة ومحاولته استقطاب كتّابنا و"شرائهم". وثورة في التقنيّات فالحق أنّ النشر العالمي يتجه حثيثاً إلى الكتاب الإلكتروني (الإي بوك)، ولا مهْربَ بعد اليوم من أن تسعى دور النشر العربية إلى ولوج هذا الميدان[22].

ولآراء الدكتور مراد وهبة أهمية كبيرة في تقويمه للربيع العربي حيث ينطلق من رأي جريء طالما أثارت مناقشته جدالات واسعة على جميع الاصعدة المعرفية ألا وهو أن العرب لا يمتلكون فلاسفة وإنما هناك أساتذة للفلسفة وعليه جاءت الثورات العربية مفتقرة للقيادة الفكرية فيصعب نجاح أي ثورة من دون فلاسفة، فالثورات الفرنسية والانجليزية والامريكية كان المحرك الرئيسي لها هم الفلاسفة لأن الثورة على مستوى رجل الشارع تكون في اطار الانفعال والعاطفة في حين أن الثورة على مستوى العقل والنقد المؤديين الى التغيير الجذري تكون مهمة الفلاسفة، كما أن النسق الثقافي الأصولي المسيطر والمهيمن لن يسمح بأي فكرة إبداعية، لأن الإبداع من البدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. والأمل معقود على المثقفين في فتح ثغرة في هذا النسق الثقافي الأصولي، على أن يكثف كل المثقفين جهودهم لنقد فكر ابن تيمية، والعمل على إحياء فكر ابن رشد والتنوير[23].

اما د.علاء الاسواني مؤلف رواية (عمارة يعقوبيان) التي تنبئ شخصياتها المقهورة عن الابطال الواقعيين للثورة فلم يكن علاء الاسواني بعيدا عن ساحة التحرير وهو من المثقفين الذين امتزجت رؤيتهم النظرية مع ممارستهم العملية بل أن مواقفه من أحداث الربيع العربي جاءت متصاعدة عبر مقالاته التي تزامنت مع أحداث الثورة المصرية لتصل الى رفض الاعلان الدستوري الذي اصدره الرئيس المنتخب محمد مرسي، رافضا اي صيغة من صيغ الاستبداد وليعلن أن للاستبداد صورة واحدة لا تتغير وأن اختلفت تسمياتها [24].

وربما يسأل أحد لماذا تم اختيار هذه الأسماء مع أن الساحة الثقافية شهدت مؤلفات كثيرة تجاوزت العشرات التي تناولت موضوعاتها أحداث الربيع العربي؟

رابعاً/ المثقف العراقي وانتفاضة تشرين:

إن الأركان الرئيسية لانتفاضة (1 تشرين الأول 2019) هي:

(1) الشباب بوصفهم مادة الانتفاضة: أن الفترة التي تنتهي فيها مرحلة الشباب غير محددة وقد يحددها بعضهم حوالي نهاية سن الثلاثين التي تقع بين (16 سنة) وحتى بداية الأربعين تعد مرحلة شباب. إن تعريف مرحلة الشباب هي مرحلة مواجهة أعمال رئيسية وهي التربية والنضج والانتظار للقيام بدور الكبار في الحياة. إن مواجهة تحديات

الانتقال المزدوج تضع الشباب أمام تحديات، فلا غرابة من أن ترتفع لديهم مستويات التوتر والقلق وعدم اليقين. إن التعليم والصحة والعمل وتكوين الأسرة وممارسة الأنشطة الحياتية المختلفة، وهي مكونات أساسية في المرحلة الانتقالية من عمر الشباب. وان إدارة هذا الانتقال إلى المرحلة اللاحقة مسألة شخصية لكل فرد لكنها في الوقت ذاته تتأثر بالأسرة وبالمجتمع والدولة، وفي بلدان الأزمة المزمنة (العراق) يصبح الشباب فئة معرضة للخطر وتتعمق الصلة بين الخطر والإقصاء الاجتماعي، فحالة الإقصاء تنتج معوقات لبناء المواطنة، وبناء القدرات للاندماج ومن ثم تعميق انجاز التنمية البشرية[25]. ويمكن إيجاز المشكلات التي تواجهها فئات الشباب العراقي وهي البطالة، والعنف (الطائفي) وفقدان الأمن الذي رافق التغيير السياسي منذ نيسان2003، والهجرة الى خارج العراق، وتفشي الفساد في جميع مرافق مؤسسات الدولة، حيث تقف حجراً في نيل أبسط مقومات حقوق المواطنة فهذه المطالب لا تخرج عن قيم إنسانية عامة وهي (الحرية، والكرامة، والعدالة الاجتماعية، وحكم القانون). ففي انتفاضة تشرين /2019 كانت مطالب المنتفضين واضحة وقد تمثلت في إنهاء نظام المحاصصة وتعديل الدستور والمطالبة بالقوانين المهمة، وتصحيح أسس النظام الديمقراطي مثل قانون الانتخاب وقانون الأحزاب وقانون المفوضية المستقلة للانتخابات. وليس هناك اختلاف في هذه المطالب في جميع ساحات الاعتصام. ويذكر عزمي بشارة: أن الشبان الذين يمثلون نواة الحركة الاحتجاجية في العراق، ضد الطائفية والفساد، قد أدركوا أن تعامل القائمين على النظام الطائفي مع البلاد كغنيمة، يتقاسمونها باسم طوائفهم، التي لا تحصل في النهاية على شيء، لتنتج زعماء طوائف يورثون زعاماتهم جيلاً بعد جيل، وتنشأ حولهم مجاميع زبائنية تتقاسم كل شيء في الدولة، ليحل الولاء الطائفي محل الكفاءة، وتصل الأضرار حتى إلى قطاع الوظائف، ليغيب الإنتاج والتطوير[26].

(2) دور شبكات التواصل الاجتماعي: تشمل (الفيس بوك وتويتر واليوتيوب..). أصبحت من ضرورات الحياة، إذ تؤدي دوراً بالغ الأهمية والخطورة في تشكيل الرأي العام، وفي تعبئة الجماعات، وحشدها حول أفكار وآراء واتجاهات معينة، زادت التطورات التكنولوجية الهائلة وقدرة وسائل الإتصال الرقمية في تحقيق المزيد من التأثير في الجماهير، وتوجيهها نحو آراء وأفكار معينة، في خلق إمكانية كبيرة للتحرك الشعبي على أساس معرفة واسعة ودقيقة بالأحداث السياسية، ومن التأثير في تصور المواطن للسياسة. وتتخذ هذه الشبكات موقفاً فريداً في هذه العملية إذ تمارس تأثيرات قوية في صانعي القرار، وفي تشكيل الرأي العام، فوسائل الاتصال تمثل حلقة وصل بين الرأي العام وصانعي القرار. وقد تميزت وسائل شبكات التواصل الإجتماعي الرقمية بقوة التأثير لأنها جمعت كل مزايا وسائل الإتصال التقليدية (المقروءة والمرئية) في الرسالة التي تقدمها. إن هناك اتجاهين مختلفين في دراسة تأثير وسائل الاتصال: الاتجاه الأول يربط بين التغيرات التي تحدث في الرأي العام على المستوى الجمعي والتغيرات التي تحدث في محتوى وسائل الإعلام التقليدية باعتمادها مصادر للأخبار والمعلومات[27]. لقد أتاحت

هذه الوسائل مجالاً أوسع للحرية أكثر من الإعلام التقليدي المكفول بالنظم والقوانين، وأصبح العالم يتحدث عن دور هذه الشبكات، فبعد أن كانت وسائل إجتماعية للتواصل بين الناس فقط، ادرك الشباب أهميتها فقلبوها وحولوها وسيلة للتواصل السياسي فأصبحت أداة سياسية للتغيير. كما تتميز هذه الوسائل بسهولة الاستخدام، وانخفاض الكلفة، فلا يتطلب الأمر من مستخدم تلك الشبكات غير معلومات حاسوبية طفيفة، لكي يقوم بنقل ونشر وعرض ما يريد، وإرساله الى نقاط مختلفة. كما أن سرعة تأثير شبكات التواصل تفوق وتتجاوز تأثير وسائل الإعلام التقليدية، ولا سيما التدفق الحر للمعلومات الحديثة ليس بالنص وحسب، بل بالصوت والصورة، وأصبحت لدى الغالبية الساحقة منها، إن لم تكن جميعها المادة الأساسية والأكثر صدقية بخصوص أحداث الحرك السياسي. لقد نجحت شبكات التواصل في التعبئة السياسية في تحويل الغضب في العالم الافتراضي لهذه الشبكات الى غضب واقعي، عن طريق الدعوات التي تبادلها الشباب لتلبية نداء التظاهر والتجمع بجمع آلاف الشباب وبمئات الصفحات و(الكروبات) تحت مظلة واحدة ومطالب عادلة. وتوجيه الرأي العام لجعلهم أكثر إيجابية، والعمل على تحريك الطاقات، والقدرات الشعبية وبروز قادة من الشباب لهم القدرة على التأثير على الرأي العام. كما ادت شبكات التواصل الإجتماعي دوراً في التنظيم والتنسيق وتنفيذ المظاهرات وذلك بالتنسيق بين القيادات الميدانية والفئات في الحملات الاحتجاجية. كما أصبحت الشبكات واجهة إعلامية بديلة عن الإعلام السائد، يتابع من خلالها الشباب كل ما يحدث من تطورات على ساحة الأحداث كما عملت على تعرية إعلام السلطة أو الأحزاب بنشر سلبياتهما، معززاً بالوثائق الصحيحة. كما تمكنت هذه الشبكات من الحصول على الدعم المحلي والدولي (غير الحكومي) لحركة الاحتجاجات السلمية[28].

(3) دور المثقف العراقي في انتفاضة تشرين: لم يكن دور المثقف في انتفاضة

تشرين واضحاً، على الرغم من نصب خيم في ساحة التحرير، تحمل مسميات منظمات مجتمعية ثقافية، مثلت المثقفين. لقد مثلت إنتفاضة تشرين في العراق منعطفاً كبيراً جداً في حياة المجتمع العراقي، ولاسيما المثقفين فقد هيّأت الظروف التاريخية وسيلة كان من الممكن أن تحمل الحياة الثقافية الى نقلة في جميع صنوفها المعرفية والابداعية. لقد تميزت انتفاضة تشرين التي تجمعها مع ثورات وانتفاضات أخرى في العالم مشتركات عديدة. عند محاولتنا الجمع بين خصائص هذه الإنتفاضة ومميزات الحركات الثورية في كتاب (المؤمن الصادق... أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية)[29] لـ (إيرك هوفر) نلخص خصائصها في النقاط الآتية:

1. الرغبة في التغيير: إن الانتفاضة هي أداة واضحة من أدوات التغيير، فأن جميع من انضموا الى الانتفاضة يتطلعون الى تغيير الوضع القائم، وكما مرّ معنا حيث يشمل التغيير (إنهاء نظام المحاصصة وتعديل الدستور والمطالبة بالقوانين المهمة، وتصحيح أسس النظام الديمقراطي مثل قانون الانتخاب وقانون الأحزاب وقانون المفوضية المستقلة للانتخابات). إن تحقيق هذه المطاليب يقود حتماً الى تحسين الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي بجميع مفاصله الرئيسية والثانوية التي لها مساس مباشر بحياة أفراد المجتمع العراقي ولا سيما فئات الشباب.

2. الرغبة في بدائل: كانت حالة التماهي متوفرة لدى المتظاهرين مع قدسية القضية. لكن كانت البدائل التي تطرح مبعثرة وبها حاجة الى تنظيم واضح، ما جعلها عرضة الى الاختراق بدعوات باطلة، أضعفت من خلالها صيرورة الانتفاضة، فقد كانت الإنتفاضة مخترقة من قبل المحبطين الذين يجدون في الانتفاضة بدائل لأنفسهم أو لبعض مكوناتهم.

3. التبادلية بين الحركات الجماهيرية: إن ما يميز انضمام الأفراد الى الحركات الجماهيرية الثورية أنهم يصبحون جاهزين للالتحاق بأي حركة فاعلة إذا لم تحقق أهدافها، وبوسع أي حركة منها أن تحول نفسها، بسهولة الى حركة أخرى. وقد تتحول الحركات الإجتماعية الى حركات دينية متطرفة، وهنا تجدر الإشارة الى أن السبيل الوحيد أحياناً في ايقاف حركة جماهيرية ناجحة تقترب الى تحقيق أهدافها، هو إيجاد حركة بديلة عنها. لذا فأن عدم تحقيق أهداف إنتفاضة تشرين في العراق يؤدي الى ما يأتي: -

- الإنتماء الى حركات متطرفة تحت مسميات كثيرة.
- الهجرة خارج البلد بعد حالة اليأس من تحقيق الأهداف.

4. دور المهمشين في الحركات الثورية: إن الجزء من أي أمة هو وسطها، الذي يتكون من المواطنين العاديين، الذين يقومون بأعمالهم في المدن والأرياف، كثيراً ما تتحكم فيه أقليتان، الصفوة (النخبة) و(المهمشون). إن المهمشين لا يكنون أي احترام للأوضاع القائمة. فإنهم على استعداد، دوماً لتحطيم كل شيء ولنشر الفوضى والقلاقل، وصهر أنفسهم في مجهود جماعي خارق، فهم في مقدمة الأتباع، سواء في ثورة أو هجرة جماعية. إن المهمشين هم المادة الخام التي يصنع منها مستقبل الأمة، أي أن الحجر المطروح في الشارع يصبح حجر الزاوية في بناء عالم جديد. فهم خميرة التغيير.

وهنا لنا وقفة مع المهمشين الذين انصهروا مع انتفاضة تشرين، فالمكونات الاجتماعية الاساسية للانتفاضة كانت من الشباب وكما مرّ معنا، فلم يشمل المكون فئة اجتماعية واحدة من حيث (التحصيل الدراسي أو المهنة أو العمر أو الانحدار الطبقي..) فكانوا خليطا إجتماعيا منصهرا تحت مسمى واحد هو (منتفضون) إن المهمشين الذين ينتمون الى إنحدار طبقي وإجتماعي (فقير) وجدوا لهم فرصة في الاستماع إليهم، وتكليفهم بمهام تطوعية لخدمة المجتمع الجديد الذي ولد في ساحات التظاهر، لقد تحقق الكيان الاجتماعي لهذه الفئة من أصحاب (توك توك) وهم شبان ومراهقون من الطبقات الكادحة، الذين يكسبون قوت يومهم في أزقة المدن العراقية الى عمال (المسطر) الذين ينتظرون قوت يومهم من فجر كل يوم الى ما بعد الظهيرة، الى أصحاب (البسطات) وفئات أخرى فغاية الشراء هي مساعدتهم فقط. هؤلاء المهمشون اندمجوا مع أصحاب الشهادات العليا التي أنفضت مظاهراتهم من أجل التعيين (بماء حار) يلقى عليهم من خراطيم سيارات (قوات الأمن). فنحن أمام خيارين في إيجاد حل لهذه الفئات وهي:

- يوظف هذا المكون الإجتماعي في اقتصاد البلد وذلك بتشغيلهم في معامل وقطاعات اقتصادية لا تحتاج إلا الى مهارات يدوية.
- واذا لم يتحقق ما جاء في النقطة أعلاه فالكيان الاجتماعي مهدد بالانهيار التام.

وإذا أردنا أن نبحث عن دور المثقف في النقاط أعلاه لا نعثر على دور عملي يمكن ان يحتسب لصالح المثقفين، فقد حملت وسائل الاعلام مبررات غياب هذا الدور بالنقاط الاتية:

1. يعود صمت المثقفين للأجواء الغائمة التي تلقي بظلالها على الأيام المتأرجحة في العراق، والتي جعلت الناس في حيرة من أمرهم، ما دعا المثقفين للنظر الى المظاهرات من نافذة ليست واسعة بالمنظور المتعارف عليه في مثل أحداث هكذا، وزرعت داخلهم هواجس خوف مما ستؤول إليه الحال. إن سرعة المظاهرات الأخيرة بين نشوبها وتهدئتها كانت عاملا كبيرا لعزوف المثقفين عن الإدلاء بدلوهم فيها، لعدم نضج الفكرة حيالها، فضلا عن غياب المشهد أمامهم لأسباب عدة، منها جانب الثقة، وهي العامل المهم لدى المثقف؛ فهي المسؤولة عن تبلور الموقف عنده لإثارة المشاعر ليكون شعلة ناطقة بكل حدث مهم؛ لكن المؤسف أن هذه الثقة أصبحت مهزوزة في مخيلة المثقفين لتجعلهم مترددين، تتجاذبهم المخاوف والأوهام من الغد المجهول.
2. تفشي المحسوبية بتوزيع المناصب لعب دورا خطيرا أجبر المثقفين على التنحي جانبا حين تقلدت المناصب الثقافية والإعلامية شخصيات تابعة للأحزاب الحكومية، ليصبح حكم المنصب والانتماء صناعات لشخصيات تتحدث باسم السلطة، لتجعل جميع التصرفات صوابا لجهة واحدة، من دون أدنى اعتبار لصواب الأطراف الأخرى.
3. المثقف العراقي (بنموذجه السائد) تقليدي في كل شيء: لغته، أفكاره، نتاجه وحضوره حتى وإن بدا بعضه مدججاً بالحداثة أو ما بعدها، بينما انتفاضة تشرين غير تقليدية في كل شيء، وهذا ما جعلها تتقاطع مع مسار المثقف العراقي وتلفظه بسرعة وببلاغة عالية.

الهوامش:

* هذا ما ذهب اليه بالقول الروائي الجزائري واسيني الأعرج.

1- احمد الموصلي ولؤي الصافي: جذور أزمة المثقف في الوطن العربي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002، ص85.

2- A.K.Gella: The Intelligentsia and the Intellectual Theory، Method، and case study، New York، 1976، p.p 9-18.

3- روجيه غارودي: البديل، ترجمة جورج طرابشي، دار الاداب، بيروت، 1972، ص 147.

4- انطونيو غرامشي: قضايا المادية التاريخية، ترجمة فواز طرابلسي، دار الطليعة،1971، ص131.

5- ف. أ. لينين: في الثقافة والثورة الثقافية، دار التقدم، موسكو، 1968، ص37.

6- انطونيو غرامشي: من كراسات السجن، ترجمة عادل غنيم، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1994، ص87.

7- جان بول سارتر: دفاع عن المثقفين، دار الآداب، بيروت، 1973، ص 24 - 25.

8- ريمون آرون: أفيون المثقفين، ترجمة عاد ل زيتوني، المكتبة الاهلية، بيروت، ص 217.

9- أنظر: علي حرب: أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1996.، ص 36 ما بعدها.

10- المصدر السابق نفسه ص، 40، 41.

11- د. أبو يعرب المرزوقي: النظر والعمل والمأزق الحضاري الإسلامي الراهن، دار الفكر، دمشق ط1، 2003، ص228.

12- عبد الإله بلقزيز: نهاية الداعية، الممكن الممتنع في أدوار المثقفين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2000، ص 37 - 60.

13- أنظر: د. فهمي جدعان: الطريق الى المستقبل، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1996.

14- برهان غليون، مجتمع النخبة، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1986، ص71 وما بعدها.

15- ادوارد سعيد: صور المثقف، ترجمة غسان غصن، دار النهار للنشر، بيروت، ط3، 1997، ص 28.

16- محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2000،ص25.

17- علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1996، ص 229 و256.

18- أنظر: كتاب (الى اين يذهب العرب.. رؤية 30 مفكراً في مستقبل الثورات العربية)، العدد الخاص عن سلسلة «معارف» التابعة لمؤسسة الفكر العربى و المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،2011.

19- أنظر: علي حرب، ثورات القوة الناعمة في العالم العربي، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2011.

20- أنظر: جريدة الأهرام، (الكاتب المصري محمد حسنين هيكل في لقاء مع الاهرام: في غياب مصر. خرائط جديدة.. من رسمها .. ومن يرسمها) 11/ سبتمبر/ 2011.

21- الحبيب الجنحاني: على هامش الثورات العربية، (حراك الدولة المدنية) موقع الكاتب.

22- سماح إدريس: النشر في زمن الثورة ، (http://www.adabmag.com/).

23- أنظر: جريدة الاهالي، (المفكر الدكتور مراد وهبة لـ"الأهالي": الإخوان قادوا الثورة المضادة وحولوا الربيع إلي خريف) ،11اغسطس/ 2012.

24- أنظر: مدونة الدكتور علاء مرسي، مقالاته في جريدة المصري اليوم للسنوات 2011، 2012.

25- د. فهيمة كريم: تمكين الشباب.. الفرص والتحديات، بحث، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الاجتماع.

26- عزمي بشارة: ثورة العراق وطريق التحول من الطائفية إلى الديمقراطية، التراعراق،12 نوفمبر 2019.

27- أسامة غازي المدني: دور شبكات التواصل في تشكيل الرأي العام لدى طلبة الجامعات السعودية (جامعة أم القرى نموذجا)، بحث، جامعة أم القرى، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الأعلام.

28- د. أحمد عبد الجبار عبد الله وفراس كوركيس عزيز: دور شبكات التواصل في ثورات الربيع العربي، مجلة العلوم السياسية، جامعة بغداد، كلية العلوم السياسية، العدد 44.

29- إيرك هوفر: المؤمن الصادق. أفكار حول طبيعة الحركات الجماهرية، ترجمة: د. غازي بن عبد الرحمن القصيبي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)، أبو ظبي، ط1، 2010.

القضية الكوردستانية.. الحزب الشيوعي الكوردستاني واليسار الكوردستاني أزمة اليسار في المنطقة و العالم*

كاوه محمود
سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوردستاني

خلفيات تاريخية

شهدت الفترة ما بعد الحرب العالمية الاولى موجة من التحركات السياسية بين رجال السياسة والمثقفين في كوردستان عبر تشكيل منظمات وجمعيات سياسة مدنية بلغت عشر جمعيات من عام 1914 الى عام 1946، منها جمعية كوردستان عام 1922 والتي اصدرت صحيفة باسم نداء كوردستان وجمعية الدفاع الوطني عام 1925 وجمعية العلوم الكوردية عام 1925 وجمعية المثقفين. وكانت مطالب هذه الجمعيات تخص حقوق شعب كوردستان في كوردستان الجنوبية - أي اقليم كوردستان الحالي. وكان نضال هذه الجمعيات يتمحور حول المطالبة بحقوق الشعب الكوردستاني وتشكيل دولة أسوة بالدول القومية التي تشكلت في المنطقة بعد انهيار الامبراطورية العثمانية. وكانت هناك عدة معاهدات دولية بهذا الشأن منها معاهدة سيفر عام 1919 التي اشارت الى تشكيل دولة كوردستانية وجرى التراجع عنها بمعاهدة لوزان عام 1921 رغم ان المعاهدة تعترف بتشكيل حكومة كوردية

في حالة انضمام ولاية الموصل والتي كانت تشمل كوردستان الجنوبية الى دولة العراق. وقد تشكلت دولة العراق عام 1920 وجرى الحاق كوردستان الجنوبية بها عام 1924 بعد معاهدة بروكسل حول رسم الحدود بين تركيا والعراق، دون ارادة شعب كوردستان وفق شروط لم تتقيد بها الحكومة البريطانية والدولة العراقية.

تزامن نضال هذه المنظمات مع الكفاح المسلح للحركة الكوردية وخاصة في اعوام 1919 و1920 و1941 و1943 اضافة الى النضال الجماهيري ضد الاحتلال البريطاني والانتداب البريطاني وقرارات عصبة الامم.

شاركت الشخصيات اليسارية والتقدمية في بناء تلك المنظمات ومن تلك المنظمات التي اتسمت بطابع وطني مع تأثير اليسار عليها منظمة داركر - أي الحطاب - عام 1938 وقد شاركت شخصيات يسارية منهم الرفيق مكرم طالباني وهو حي يرزق، وكان عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي لغاية الثمانينات، اضافة الى الشاعر الشيوعي دلدار الذي نظم قصيدة (ئه ي رقيب) التي تعتبر النشيد الوطني الكوردستاني في الوقت الحاضر.

وقد تحولت هذه المنظمة الى حزب هيوا الذي توسعت تنظيماته عام 1943، وكان للحزب موقف مناوئ للثورة المسلحة عام 1941.

ضم الحزب جناحين سياسيين. كان الجناح اليميني يؤكد على التعاون مع الانكليز لكونهم الجهة المؤثرة على الوضع السياسي في العراق، في حين كان الجناح اليساري يؤكد على التعاون مع الاتحاد السوفيتي. وقد انشق الحزب نهاية 1944 وبداية 1945 الى حزبين رزكاري - اي التحرير - نسبة الى جريدتهم المركزية وجرى تطور الحزب عام 1946 الى الحزب الديمقراطي الكوردستاني، وشورش - اي الثورة - الجريدة المركزية للحزب الذي جرت تسميته بالحزب الشيوعي الكوردستاني عام 1945. وقد دخل الحزب الشيوعي الكوردستاني في مفاوضات مع الحزب الشيوعي العراقي وجرى انضمامهم الى الحزب الشيوعي العراقي في اطار تنظيم فرع للحزب يضم محليات كركوك و السليمانية و اربيل باسم الفرع الكوردي. وقد انضمت الكوادر الكوردستانية الى الفرع.

اما من الناحية الفكرية فقد انتشر الفكر الاشتراكي في كوردستان بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية على يد الشعراء والمثقفين الكورد - رجال ونساء - ونرى في قصيدة لشاعرة كوردية من مدينة كويسنجق التابعة الى اربيل واسمها زينب خان اشارة الى ايديولوجية ماركس وانجلز في قصيدة لها حول تحرير المرأة عام 1924 اضافة الى كتاب تقدميين كانوا ينشرون الفكر الاشتراكي منهم عبدالواحد نوري. وتواصل دور المثقفين الشيوعيين من شعراء وكتاب في سنوات الخمسينات والستينات من القرن الماضي بعد تشكيل الفرع الكوردي للحزب وتطويره الى فرع كوردستان.

ومن الحركات الاجتماعية التي لها طابع اشتراكي حركة الحق التي تأسست من خلال تحويل احدى الطرق الصوفية الى حركة اشتراكية طوباوية عام 1920 حيث تمكنت الحركة من تشكيل تعاونيات زراعية وتنظيم ادارات ذاتية تعاونية وممارسة المساواتية في التوزيع والتوجه نحو العمل المشترك والمساواة بين الرجل والمرأة.

اما ما يتعلق بالناحية التنظيمية، ففي المؤتمر الاول للحزب الشيوعي العراقي عام (1945) جرى الاعلان عن الفرع الكوردي. وحسب النظام الداخلي للحزب الشيوعي العراقي كان للفرع الكوردي الحق في وضع البرنامج والنظام الداخلي الخاصين به. وسمي الفرع بعد فترة وجيزة بفرع كوردستان.

في أيّار (1966) عقد فرع كوردستان كونفرانسه الأول. وتحول الفرع في الكونفرانس الثالث للحزب الشيوعي العراقي، كانون الاول 1967 الى (منظمة اقليم كوردستان للحزب الشيوعي العراقي)، التي عقدت مؤتمرها الأول في حزيران (1969)،

وأقرت فيه برنامجا وطنيا وديمقراطيا خاصا بكوردستان.

وبعد التحول التاريخي الذي حدث اثر انتفاضة آذار (1991) عقدت منظمة اقليم كوردستان مؤتمرها الثاني في (30/6/1993)، واعتبر ذلك مؤتمر اعلان الحزب الشيوعي الكوردستاني - العراق. وقد أيد المؤتمر الخامس للحزب الشيوعي العراقي هذا التوجه، وساهم في توفير مستلزماته.

هل يقتصر اليسار الكوردستاني على الشيوعيين؟

غير ان اليسار الكوردستاني لم يقتصر على الشيوعيين الكوردستانيين، فقد كانت هناك شخصيات وعناصر يسارية ومتأثرة بالفكر الماركسي في بدايات تأسيس الحزب الديمقراطي الكوردستاني في نهاية الاربعينيات، كما تشكلت منظمات ماركسية واشتراكية في كوردستان وخاصة بعد عام 1975 حيث تشكلت عصبة الماركسيين اللينينين أي (كومه له) وكذلك الحزب الاشتراكي الكوردستاني وحزب الشعب، وبعد ذلك حزب كادحي كوردستان. وقد حدثت تطورات تنظيمية في تركيبة هذه المنظمات والاحزاب حيث حلت العصبة نفسها، وانضمت الى الاتحاد الوطني الكوردستاني، كما حدثت تغييرات في الوجهات الفكرية للكثير من تلك التنظيمات، في حين يواصل حزب كادحي كوردستان وجهته الفكرية كيسار ديمقرطي كوردستاني.

العلاقة التنظيمية بين الحزب الشيوعي الكوردستاني والحزب الشيوعي العراقي

تطورت العلاقة التنظيمية بين الحزبين من وجود كوتا داخل قيادة الحزب الشيوعي العراقي لعدد من قيادة الحزب الشيوعي الكوردستاني، واعتبار سكرتير الحزب الشيوعي الكوردستاني عضوا في المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي بشكل مباشر، الى علاقة تنسيقية بين الحزبين منذ المؤتمر السادس للحزب الشيوعي الكوردستاني والمؤتمر العاشر للحزب الشيوعي العراقي حيث يجتمع المكتبان السياسيان للحزبين كل ستة اشهر اضافة الى تبادل للمحاضر والرسائل الحزبية والتنسيق العملي في المواقف بين المنظمات والمختصات الحزبية والترحيل الحزبي. ويتشارك الحزبان في ذكرى التاسيس الذي يصادف 31 آذار 1934 اضافة الى يوم الشهيد الشيوعي 14 شباط من كل عام، ذكرى اعدام الرفيق الخالد فهد.

ماهو الحزب الشيوعي الكوردستاني؟

الحزب الشيوعي الكوردستاني اتحاد طوعي للمناضلين الذين يسترشدون بالماركسية والتراث التقدمي للشعب الكوردستاني وللانسانية، يكرسون جلّ طاقاتهم وامكانياتهم للشعب والوطن وحق تقرير المصير ولقضية الطبقة العاملة والكادحين ولمصلحة المجتمع الكردستاني، ويناضلون من أجل التقدم والعدالة الاجتماعية والاشتراكية.

يستند الحزب في صياغة برنامجه ورسم سياساته على دراسة الواقع الكوردستاني بكل تجلياته ويسترشد بالماركسية وبالاستفادة من تجارب اليساريين والديمقراطيين ونضال الجماهير وتراث النضال الانساني من اجل الحرية والتقدم الاجتماعي.

يناضل الحزب الشيوعي الكوردستاني من اجل حق تقرير مصير الشعب الكوردستاني ومساواة جميع المكونات القومية والدينية

والمذهبية والطوائف الكوردستانية في الحقوق على أساس المواطنة الكوردستانية.

يناضل الحزب في مجال ادارة السلطة من اجل تحقيق مفهوم "الحكم الرشيد"، بمعنى توزيع وادارة ثروات البلد من منظور معالجة المشاكل الاجتماعية وتفعيل مشاركة المواطنين والاستجابة لمطالبهم وسيادة القانون وتحقيق العدالة وانجاز الاعمال على اساس الكفاءة والمسؤولية امام الشعب ووجود رؤية ستراتيجية في التخطيط. وهذا التوجه بحاجة الى بناء نظام سياسي يستند الى مبدأ الديمقراطية والتعددية الحزبية وتداول السلطة واشراك المواطنين في صنع القرار السياسي وشؤون حياتهم، واحترام قيم المواطنة والحريات العامة ومبادئ حقوق الانسان والخصوصيات الثقافية لجميع المكونات الاجتماعية.

في مشروعه لتحقيق التغيير الاجتماعي يربط الحزب نضاله الوطني الديمقراطي بنضاله الطبقي، ويسعى من اجل انجاز التنمية البشرية المستدامة، بمعنى توسيع وتوفير الفرص الملائمة لجميع المواطنين والتأكيد على التنمية المساواتية بين المرأة والرجل في هذه العملية، والاهتمام الاكثر بالفقراء والفئات المهمشة، وتوفير فرص حياة افضل للاجيال القادمة والحفاظ على النظام البيئي. والمقصود من هذه التنمية ليس فقط الجانب الاقتصادي، بل الى جانب ذلك تنمية الطاقات البشرية في مجالات التأهيل العلمي والاكاديمي وتوفير الامن والاستقرار من اجل بناء مجتمع مدني فعال، وتأمين التقدم الاجتماعي والتأمين الصحي وشبكة الرعاية الاجتماعية ومصالح العمال والفلاحين والمثقفين والشرائح ذات الدخل المحدود والفئات المهمشة، وتهيئة الارضية المناسبة لمشاركة المرأة في مراكز القرار، والاهتمام بالشباب في عملية التغيير.

إن الحزب الشيوعي الكوردستاني جزء من الحركة التحررية الوطنية لشعب كوردستان يؤمن بحق تقرير مصير الشعب الكوردستاني في كافة اجزاء الوطن، بما في ذلك حقه في اقامة الدولة الوطنية الموحدة، ويبني علاقاته مع قوى الحركة التحررية الكوردستانية على اسس التعاون والاخذ بنظر الاعتبار الخصوصيات والنضال من اجل تحقيق الديمقراطية وحقوق الانسان والتقدم الاجتماعي، ويعمل في سبيل تقوية اواصر النضال مع الاحزاب اليسارية والديمقراطية والتقدمية في منطقة الشرق الاوسط عموما ومع الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية وقوى اليسار فيها، على اساس النضال المشترك من اجل الديمقراطية والحرية والسلام و التنمية.

كيف يرى الحزب الشيوعي الكوردستاني أزمة اليسار بشكل عام؟

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ودول المنظومة الاشتراكية ظهرت الازمة بشكل واضح في الحركة الشيوعية واحزاب اليسار عموما وانقسمت ردود الفعل الى التمسك بالسلفية واعتبار ما جرى مؤامرة امبريالية فقط، في حين توجه البعض الى خيارات ليبرالية ونيوليبرالية، وعمل البعض مع احزاب الخضر/ البيئة كما في التجربة الأوروبية. اما بالنسبة لنا فقد انتهجنا نهجا اخر وهو التمسك بالمنهج الماركسي والاعتماد على الواقع وتفسيره من اجل التغيير والابتعاد عن الجمود العقائدي

(الدوكما)، وأكدنا على المراجعة الانتقادية لتجربة بناء الاشتراكية والتجربة النضالية لحزبنا مع متابعة التطورات الجديدة في العالم الرأسمالي وفي منطقتنا، وتحديد مهامنا من خلال ربط النضال الوطني والتحرري لشعبنا الكوردستاني بالنضال الطبقي والنضال من اجل الحريات العامة وحقوق المواطنين والمساواة الجندرية.

ملامح الوضع الحالي

يمكن تشخيص النقاط الانية حول ملامح الوضع الحالي:

ـ تصاعد هجمة النيوليبرالية مع ازدياد أزمات الرأسمالية وزيادة الفقر والبطالة ومخاطر البيئة واستمرار بؤر التوتر في العالم وتراجع ما تحقق من عدالة اجتماعية.

ـ تواجد رأسماليات تابعة ومتخلفة في بلداننا في السلطة تمارس الفساد وتخدم مصالح البرجوازية البيروقراطية والطفيلية الحاكمة التي تربط مصالحها بمصالح المراكز الرأسمالية.

ـ التعثر الواضح في عمليات التنمية وفي تحقيق الاستقرار السياسي في بلداننا وتفاقم الطائفية والتبعية والارتهان بقوى دولية وإقليمية تتصارع من خلال مصالحها وتخلق حالة من الفوضى المستمر في بلداننا، مما شكل الارضية المناسبة لانتشار الارهاب.

ـ تأثر الحركة الجماهيرية في بلداننا بالشعبوية، وتستمر المساعي لتوجيه مسار النقمة الشعبية للفئات المهمشة اي "البريكاريا" الى صراعات وتوجهات لا تضع النقاط على الحروف في ما يخص طبيعة التناقضات، مما يخلق مجالا واسعا لسيادة العفوية وتأطير المطالب.

المطلوب برنامج يساري واضح!

ـ في العراق وفي عدة بلدان في المنطقة نرى أن الازمة الحالية هي ازمة الدولة وازمة المجتمع، ويأتي الحديث عن ازمة اليسار الكوردستاني بسبب عدم تمكن اليسار من المواجهة التي تتطلب طرح بديل وبرنامج يساري واضح يتضمن ما يأتي:

1- وجود برنامج يساري مشترك في كوردستان للشيوعيين والقوى اليسارية الاخرى الداعمة للتغيير الاجتماعي وتكون خطوطه الاساسية الربط بين النضال الوطني التحرري الكوردستاني وحق شعبنا في تقرير مصيره بالنضال الطبقي عبر التاكيد على النضال المشترك مع القوى المدنية العراقية وبلورة المواضيع المتعلقة بالتغيير الديمقراطي في بلدنا ودور المجتمع المدني والنضال من أجل تغيير السياسة الاقتصادية ووجهة الخصخصة المفرطة وفق شروط البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، ومكافحة الفساد ووجهة الاقتصاد الريعي، وتحقيق ارادة سياسية ترفض التبعية وتحافظ على الثروات الطبيعية للشعب، وتعمل من اجل التنمية المستدامة والحكم الرشيد وتضمن حق العمل والتعليم والصحة بشكل متكافئ.

2- مراجعة الآليات المتعلقة بالتغيير الاجتماعي في مجتمعنا عبر العودة الى ارادة الشعب وتفعيل الوعي الطبقي وتحديد القوى المحركة للتغيير الاجتماعي وهي قوى شغيلة اليد والفكر مع الاخذ بنظر الاعتبار التغييرات التي جرت على تركيبة الطبقة العاملة والشغيلة عموما بسبب التقدم العلمي التكنولوجي وزيادة حجم الياقات البيض في مجالات العمل.

3- مواجهة الحملات الدعائية الرامية الى تشويه دور اليسار والشيوعيين تاريخيا،

فمعظم الانجازات التي كانت في مصلحة العدالة الاجتماعية وما حققته الطبقة العاملة والكادحون والحديث عن مجتمع الرفاه وما جرى من انتصار لحركات التحرر العالمية كان بفضل نضالات قوى اليسار التي استطاعت الربط بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية في المجالات الاجتماعية والاقتصادية.

4- لم تكن نضالات اليسار مجتمعيا وفي اطار الثقافات غير مثمرة. فالكثير من الكتاب والفنانين والسينمائيين والمسرحيين والمبدعين في مجالات الرواية والشعر والصحافة كانوا ضمن اليسار. هذا اضافة الى دور اليسار السابق والحالي في مناهضة الفاشيين القدامى والجدد.

ولا يزال العالم عند مواجهة المشاكل والازمات يولي وجهه نحو اليسار، كما حدث في أزمة الرأسمالية عام 2008 حيث كانت اكثر مبيعات الكتب "راسمال" ماركس.

5- نرى أن اليسار ضرورة انسانية والانتماء الى اليسار بهذا المعنى حتى لو كان على الصعيد الذاتي يعتبر مجالا لاكتشاف الذات للعمل من اجل تحقيق برنامج تاريخي يتسم بالمشروعية الثورية. فالانتماء لليسار شرف نضالي والتزام تاريخي.

6- يحتاج اليسار على الصعيد الوطني وعلى الصعيد العالمي بصورة جماعية الى مراجعة ذاتية من الجوانب النظرية وطرائق العمل دون الاكتفاء فقط بترديد المقولات التي تعبر عن التجديد. ان ما نحتاجه ضمن الابتعاد عن الدوكما هو الاستعداد لقراءة ماركسية خاصة بمجتمعاتنا، لكي تكون الماركسية اداة معرفية لفهم وتفسير المجتمع الكوردستاني وفهم تناقضاته والنضال من اجل التغيير، لكي يكون منهجنا الماركسي الخاص قراءة للواقع لا لوي الواقع ومفرداته، لكي ينسجم مع منهجنا الفكري.

ماذا تتطلب القراءة المتجددة؟

إن القراءة المتجددة تتطلب ما يأتي:

- تحديد طبيعة المرحلة التاريخية في مجتمعنا الكوردستاني باعتباره اساسا لتحديد المواضيع النضالية والمسألة الاساسية في الكفاح.
- تحديد طبيعة التناقضات الحالية وما يجرى في العالم من تغييرات تتعلق بطابع العصر.
- قراءة متجددة لطبيعة الصراعات على الصعيد العالمي وطبيعة التناقضات والصراعات الداخلية والكشف عن التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية.
- مواجهة حملات تشويه دور اليسار والشيوعية.
- الابتعاد عن التبرير عند تقييم التجارب، ودراسة الجانب الذاتي في العمل النضالي وفي مجالات الفكر والممارسة اعتمادا على القاعدة الاساسية في الماركسية التي تؤكد على وحدة الفكر والممارسة.
- العمل من اجل صياغة تعريف حداثوي متجدد لليسار، يتحلى بموجبه اليسار بالنفس الطويل الدائم للنضال عبر التركيز على المطالب الجماهيرية الانية وتراكمها، وانجاز نقلة نوعية من خلال حركات اجتماعية تمارس ضغوطها على السلطات في الشارع وتحقق انجازات مستمرة، وتعمل من اجل تهيئة ناخبين تقدميين يؤمنون ببرنامج اليسار.
- صياغة تعريف واضح لليسار بحيث تكون المطالب والقيم اليسارية واضحة في العمل النضالي. اي يسار واضح الرؤية، آخذا

بنظر الاعتبار التعقيدات الموجودة في الوضع الكوردستاني داخليا وخارجيا، ويتطلب الامر ان يكون خطابه السياسي مع الشعب الكوردستاتي في كل اجزائه، ومع النضالات الديمقراطية لشعوب المنطقة. وان يكون موقف هذا اليسار واضحا من الانظمة القمعية، بعيدا عن تبرير سياسات تلك الانظمة بشكل او آخر. ومن الضروري تشخيص الانظمة الرأسمالية المعاصرة حاليا بشكل طبقي واضح لا ان يفضل دولة على اخرى ضمن الراسماليات المعاصرة. وعلينا ان ندرك باننا نتحدث عن اليسار في القرن الحادي والعشرين.

- توجيه خطاب اليسار الى قوى التغيير، الى الشباب والنساء وشغيلة اليد والفكر.

- العمل على ان يتجاوز اليساريون والماركسيون دائرة التجارب الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، والعمل على اعادة الاعتبار لمفاهيم المساواتية والعدالة الاجتماعية والاشتراكية وامكانية تحقيق حياة افضل للانسان. وتتطلب هذه الوجهة ان يكون اليسار الكوردستاني حاملا لفلسفة التغيير.

- حماية مشروع اليسار وخطابه السياسي من اللبرلة. فالليبرالية تقوض الخطاب اليساري وتساهم في نشر الوعي المزيف وترويض السياسات المتعلقة بخيار اليسار والاشتراكية كخيار تاريخي. فالخطاب اليساري في كوردستان يجب ان يجمع بين مهام التحرر الوطني الكوردستاني مع مواجهة نهج الخصخصة في السياسات الاقتصادية المتبعة التي هي سياسات الليبرالية الجديدة. ودمج هذه المهام في اجندة تتكامل مع الدعوة الى المساواة الجندرية وحماية الحريات العامة. وتجنب الحديث عن ديمقراطية سياسية بمعزل عن المحتوى الاقتصادي والاجتماعي لفهمنا كيسار ماركسي للديمقراطية اي المحتوى الطبقي مع التأكيد على نشر مفاهيم الحداثة والعقلانية.

- ايجاد اساليب جديدة في العمل من خلال ايجاد خيمة للعمل المشترك يشارك الجميع في بنائها وليس نصبها من قبلنا ودعوة الاخرين للانضمام اليها. وتتطور اليات العمل المشترك من خلال النضال الجماهيري الملموس في الشارع، حيث تبدع الجماهير اساليب جديدة ويكون عملنا من خلال البيت الموحد او الخيمة الموحدة لليسار.

- الاستفادة من الشخصيات والعناصر اليسارية غير المنتمية للاحزاب السياسية او المنتمية للاحزاب ودعوتها الى العمل المشترك وفق برنامج يساري محدد.

هل بالامكان صياغة برنامج يساري مشترك على صعيد الاحزاب الشيوعية والقوى اليسارية والتقدمية في العالم؟

نرى في الحزب الشيوعي الكوردستاني امكانية رسم وصياغة برنامج أممي عبر التركيز على المفردات الاساسية الاتية:

- الابتعاد عن عقلية المفتي في الحديث عن أزمة اليسار في المنطقة أو أزمة اليسار العالمي.

فعندما نتحدث عن ازمة اليسار نتحدث عنها بمعناها العام، فنحن لا نتعامل مع هذه القضية من منطلق اعتبار بعض الاحزاب السياسية مركزا لليسار، وبالتالي نعيد اخطاء الماضي ونستنسخ التجارب. فالحديث عن ازمة لليسار حديث عن خصوصية هذه الازمة، التي نشعر بها في مجتمعنا دون تعميم والاستفادة منها من قبل الاخرين كتجربة نضالية، بعيدا عن عقلية الافتاء.

ـ التركيز على النضال المشترك أمميا في مواجهة الفقر والبطالة والضغط على الحكومات والمنظمات الدولية باتجاه فرض اجندات عالمية وبرامج تحد من الفقر والبطالة باعتبارها مشاكل تتطلب المسؤولية الدولية للحد من تلك الظواهر ومعالجتها، اضافة الى مسؤوليات الحكومات على نطاق كل بلد في مواجهة الفقر والبطالة والفساد.

ـ النضال المشترك للتركيز على المسؤولية الدولية في مواجهة الاوبئة العالمية كـ"كورونا" مثلا عبر التركيز على الحوكمة الصحية ومسؤولية الدول والحكومات في مجال التامين الصحي وتوفير انظمة صحية فعالة قادرة على مواجهة الكوارث الصحية.

ـ العمل من أجل الحوكمة في مجال البيئة ومواجهة المخاطر التي تهدد البيئة البشرية، ويتطلب ذلك مواجهة المراكز الراسمالية العالمية وسياسات الليبرالية الجديدة، فهي إضافة إلى جلبها الفقر والبطالة، تهدد البيئة البشرية في العالم، عبر النضال من اجل تنفيذ الاتفاقيات الدولية المتعلقة بحماية البيئة.

ـ النضال من أجل مجتمع المصير المشترك للبشرية من خلال اعتبار التنمية وتوفير العيش الكريم للانسان وحل قضايا الشعوب وفق ارادتها الحرة، قضايا عالمية تمس السلام العالمي، مما يتطلب النضال من اجل الضغط لمنع الحروب الاستباقية واطفاء بؤر التوتر.

ـ العمل على الصعيد الوطني في ما يخص قوى اليسار في كل بلد، على استكمال المهام الوطنية والربط الديالكتيكي بين المهام الوطنية والمهام الطبقية والنضال من أجل الحريات العامة.

ـ يبني الحزب مفهومه للاشتراكية استنادا الى توسيع الديمقراطية واعتبار الاشتراكية عملية حياتية وتنموية مستقبلية ومتجددة حسب تجدد حاجات البشرية وسبل توفيرها. وهي عملية تدريجية مستمرة تبنى على اساس ابداع الجماهير وخياراتها وتفضيل طاقات المنتجين الاحرار وقوى العمل. وهذا يتطلب الارتقاء بمستوى النضال ضد اللامساواة السياسية والاجتماعية والتوزيع غير العادل للثروات وغيرها من عيوب النظام الرأسمالي الناتجة عن الجشع والاستغلال.

كما ان الحزب الشيوعي الكوردستاني جزء من الحركة الديمقراطية اليسارية والاشتراكية التقدمية في العالم، ويناضل من اجل تأسيس نظام عالمي جديد وعادل مبني على رفض سيادة القطب الواحد ومواجهة مشاريع الليبرالية الجديدة التي تقوض مكتسبات الكادحين، وتقضي على شبكة الرعاية الاجتماعية والضمان الاجتماعي، وتوسع الفقر والتمييز على المستويين الداخلي والدولي.

ـ يؤكد الحزب على مفهومه لعولمة انسانية مبني على حوار وتفاعل الحضارات والابتعداد عن التنمر وفرض العقوبات الاقتصادية، ويعمل من اجل الوقوف بالضد من الجوانب السلبية للعولمة الرأسمالية وتوجيه مكتسبات التطور التكنولوجي، وفي مجال الاتصالات في كافة المجالات، من اجل خدمة الانسانية.

*** نص مداخلة الاستاذ كاوة محمود سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوردستاني، والتي قدمها في الندوة التي أقامها التيار الديمقراطي الفلسطيني المستقل.**

الثروة السمكية في العراق، واقعها وسبل تطوير السياسات والتشريعات الخاصة بحمايتها وتنميتها

د. مصدق دلفي علي

تتناول هذه الدراسة استعراض واقع الثروة السمكية في العراق، والعوامل المؤثرة في تطويرها، وإيجاد السبل الكفيلة لتجاوز هذه المعوقات بغية تطوير الإنتاج الى المستوى الذي تستطيع فيه هذه الثروة الوطنية القيام بدور فعال في مواجهة تلبية احتياجات المواطن من هذه المادة الغذائية المهمة.

من الجدير بالذكر ان الثروة السمكية في العراق لم تحظ برعاية الدولة، ولم يحسب لها حساب ضمن السياسة التخطيطية. وان استغلالها حاليا لا يزال دون الحد المطلوب، الامر الذي يتطلب التوسع في هذا القطاع عن طريق اعداد الخطط العلمية وتطبيق أحدث ما توصلت اليه التكنولوجيا في الإنتاج السمكي، مع تحسين البيئة المائية التي تساهم في رفع كفاءة الإنتاج بشكل ملموس لترفع نصيب الفرد العراقي الى مستوى مقبول مقارنة بدول العالم.

الرقعة المائية في العراق

تتضمن الرقعة المائية في العراق حوض ساحل الخليج والمياه الداخلية التي تشمل نهري دجلة والفرات وروافدهما بالإضافة الى المسطحات المائية والاهوار. تبلغ مساحة المياه الاقليمية في الخليج 900 كم مربع، وتتصف بقلة العمق حيث لا يتجاوز عمق الماء فيها عن 15 م. وتتعرض لتيارات المد والجزر التي ترفع او تخفض منسوب الماء بما يقرب 240 سم. يتصل بالمياه الاقليمية كل من خور عبد الله وشط العرب اللذين يتبادلان المياه مع مياه الخليج البحرية في حالتي المد والجزر.

كانت المياه الساحلية حتى نهاية الثمانينات تتصف بالخصوبة العالية وتجذب إليها اسماك الخليج البحرية اثناء فترة التكاثر في مواسم هجرة معروفة ومحددة لكل انواع السمك، كما كانت تمر بها الاسماك المهاجرة من الخليج الى مياه شط العرب وخور الزبير والاهوار حيث يتوفر الغذاء الطبيعي لها. في السنوات اللاحقة لتجفيف الاهوار وما رافقها من قلة إيرادات المياه من دول الجوار وتذبذب هطول الامطار إضافة الى ما يلقى من ملوثات، تعرضت

مياه الخليج لموجات ملحية عالية القت بظلالها على المياه الاقليمية العراقية وشط العرب ما أدى الى تدهور البيئة المائية فيها تدهورا كبيرا. يبلغ مجموع اطوال مجرى نهري دجلة والفرات وروافدهما إضافة الى مجرى شط العرب بما يقارب 3425 كم. والمساحة الكلية لهما تبلغ بما يقارب 68.5 ألف هكتار وبمتوسط اتساع 200 م كانت مياهها تتصف بعذوبتها وسرعة جريانها.

تعاني مياه نهري دجلة والفرات في الوقت الحاضر من ارتفاع الملوحة والملوثات وهي ناتجة عن قلة تدفق المياه الواردة من دول الجوار، إضافة الى الانشطة المتعلقة بالأمور الحياتية للمجمعات السكنية وضعف الدوائر البلدية في معالجة المياه الثقيلة قبل تدفقها الى مجاري الانهار وما يرافقها من تلوث ناتج عن الأنشطة الصناعية والزراعية التي تؤدي الي إعادة تدفق الملوثات الي الانهار أيضا.

بشكل عام تزداد ملوحة الانهار سوءا مع تدفق المياه باتجاه مجرى النهر، فالملوحة على طول نهر الفرات اعلى مما هي على طول نهر دجلة وروافده بسبب الخصائص الجيولوجية، وإدارة الأراضي، وري الأراضي الزراعية. ويعاني شط العرب من اعلى نسب ملوحة بسبب التقاء الأنهار وقنوات الصرف الصحي ذات الملوحة العالية وانخفاض كميات تدفق المياه، وتأثير المد والجزر من الخليج مما يؤثر على مناطق المصب في البصرة. كما ازداد تركيز اجمالي المواد الذائبة بما يقرب من الاربعة اضعاف على امتداد نهر الفرات بين حصيبة والناصرية. وبما يقارب الستة اضعاف على طول نهر دجلة بين سد الموصل والقرنة.

تتفاوت المسطحات المائية في العراق (البحيرات والسدود والاهوار) في مواردها المائية حيث تتحكم فيها عادة السدود المقامة على منابع الانهار في كل من سوريا وتركيا. تبلغ الطاقة الخزنية لبحيرة الثرثار 27 مليار متر مكعب، الحبانية 3مليار متر مكعب والرزازة 26 مليار متر مكعب. تختلف البحيرات عن خزانات السدود بكونها لا تقع في مجاري الانهار لذلك تتصف مياهها بالسكون وعدم التجديد مما يؤدي الى تغير نوعية المياه من حيث طبيعتها الكيميائية والبيولوجية.

يبلغ حجم خزن السدود الكبيرة (دوكان، حمرين، دربنديخان، حديثة، دهوك، العظيم والموصل) بحدود 35.43 مليار مكعب. كما ان هناك سدودا أخرى مقامة كسد دبس على نهر الزاب وسد ديالى على نهر ديالى وسدي الكوت والعمارة على نهر دجلة وسد الرمادي، الفلوجة، الهندية على نهر الفرات وسد العباسية على شط العباسية حيث تتفاوت حجوم استيعاب هذه السدود تبعا لوفرة وشحة المياه. مساحة البحيرات والسدود المشار إليها اعلاه في انخفاض مستمر مع تذبذب كميات المياه الواردة اليها مما أدى الى افتقارها للقاعدة الغذائية وتذبذبها، لما لها من دور في تغذية الأسماك بسبب شحة المياه ومعاناة بحيرة الرزازة من التلوث والجفاف.

تشكل الاهوار مسطحا مائيا طبيعيا في

جنوب العراق، قدرت المساحة الكلية لها قبل تجفيفها في نهاية الثمانينات ومطلع التسعينات بـ 580 ألف هكتار. بعد عام 2003 تم غمر ما يقرب 50 بالمئة من المساحة المذكورة بالمياه الا انها تعرضت للتذبذب والانخفاض. حاليا لا تشكل المساحة المغطاة بالمياه أكثر من 30 بالمئة مع ضحالة مياهها.

تتفاوت جودة المياه الجوفية في العراق: في شمال شرق البلد توجد طبقات المياه الجوفية الاعلى انتاجا والافضل جودة، والتي يمكن الوصول اليها بسهولة. تمتاز هذه المنطقة بارتفاع مستوى هطول المطار، في حين ان تركيز اجمالي المواد الذائبة في المياه الجوفية منخفض جدا بشكل عام. بينما تزداد ملوحة المياه الجوفية في المناطق الوسطى والمناطق ذات التضاريس المنخفضة.

يعتمد التركيب الكيميائي للمياه الجوفية في الطبقة تحت السطحية الضحلة، على نوعية مياه التغذية وعمق المياه الجوفية. فبشكل عام، تزداد محتويات الكلوريد مع ازدياد العمق، وفي المناطق العميقة جدا تنتشر المياه شديدة الملوحة بتراكيز من الصوديوم والكالسيوم والكلوريد.

الكثافة السمكية في المسطحات المائية

باتت اسماك الكارب تشكل الجزء الأكبر من المحتوى السمكي لمسطحات المياه الداخلية العراقية مع تناقص كبير جدا في كميات الاسماك المحلية: الكَطان؛ الشبوط؛ البني؛ الحمري؛ والشلك والجري، والاسماك البحرية: الهامور؛ الشانك؛ البياح؛ والزبيدي. إضافة الى القشريات والروبيان، ونقص حاد في اعداد البز وبعض الانواع من الاسماك غير الاقتصادية التي تعتبر غذاء شعبيا، كأسماك الخشني واللصاف.

أظهرت المسوحات في بعض المسطحات المائية: الثرثار، الحبانية، والرزازة قبل عقدين - وهي اخر دراسة تم انجازها في العراق - بفقر هذه المسطحات من حيث انتاجية الاسماك، فقد بلغت بحدود 7 - 8 كغم/ هكتار في حين تدنت في الوقت الحاضر بشكل حاد، وقد لا تزيد على 2 - 4 كغم/ هكتار، بسبب الإهمال والصيد الجائر، إضافة الى التأثيرات السلبية التي طرأت على البيئة الحياتية للأسماك.

واقع الإنتاج السمكي في العراق

الطاقة الإجمالية لإنتاج الأسماك في المياه العذبة والبحرية حسب الدراسات الاحصائية تتذبذب من سنة الى أخرى باتجاه الزيادة والنقصان. حيث كانت معدلات الصيد في المياه الداخلية في مطلع التسعينات تفوق 23.4 ألف طن سنويا. اغلبها من الاسماك المحلية الكَطان والشبوط والبني. في حين يلحظ ان الغالبية العظمى من الاسماك المصطادة في مطلع العشرينات وحتى الآن هي اسماك الكارب مع تناقص حصاد في كميات الأسماك المحلية، بسبب انحسار كميات المياه في الأنهار العراقية وارتفاع نسب التلوث إضافة الى استعمال وسائل صيد غير تقليدية من مبيدات والصعق بالكهرباء والشباك غير القانونية.

السنة	الأسماك النهرية/طن	الأسماك البحرية/طن
2000	10122	12389
2001	11079	10118
2002	13981	24073
2005	25733	2527
3006	33567	12774
2007	31275	9560
2019	62022	12858
2020	45005	14143
2021	96661	9793

جدول (1)
كميات الأسماك النهرية والبحرية المصطادة قبل عام 2003 وما بعده

الزيادة الحاصلة في كميات صيد الأسماك النهرية بعد عام 2005 م والتي تشكل اسماك الكارب الغالبية العظمى منها، ناتجة عن إعادة الحياة للأهوار بعد تجفيفها، وكذلك إطلاق اصبعيات الكارب والبني في المسطحات المائية من قبل الهيئة العامة للأسماك الملغاة، ومن ثم من قبل دائرة الثروة الحيوانية، وذلك لرفع المخزون السمكي فيها، حيث تبنت الهيئة العامة للأسماك منذ أواخر عام 2005 وحتى الغاءها أوائل 2013 قضية توسيع الطاقة الإنتاجية لمفقس اسماك الصويرة وانشاء اعداد لا بأس بها من المفاقس في عدد من المحافظات بغية زيادة انتاج الاصبعيات بقصد رفد المسطحات المائية بها وتزويد المزارع السمكية للقطاع الخاص بما تحتاجه من اصبعيات وبأسعار رمزية.

السنة	احواض ترابية/طن	اقفاص عائمة/طن
2000	غير متوفر	-
2001	-	-
2002	-	-
2005	11.325	-
2006	7.795	-
2007	7.107	-
2019	10.819	8.101
2020	9.453	8.000
2021	10.102	8.274

جدول (2)
كميات الأسماك المنتجة في مزارع القطاع الخاص قبل عام 2003 وما بعده

المزارع السمكية

تعتبر تربية الاسماك في المزارع السمكية من الاتجاهات المفيدة في تنمية الثروة السمكية. من مميزات الاستزراع السمكي ان كمية الاسماك التي يمكن الحصول عليها في وحدة المساحة تكون تقريبا عشرات المرات اكبر من تلك التي يمكن صيدها من المصائد الطبيعية. الا ان تكاليف الإنتاج مرتفعة نسبيا نظرا لارتفاع التكاليف الاستثمارية الابتدائية. لكن نوعية الأسماك المنتجة في هذه المزارع تتيح بيعها بأسعار اعلى من الاسماك البحرية، علاوة على استقرار مستوى الإنتاج والعرض.

بلغ عدد المزارع الترابية في العراق 1141 مزرعة حتى عام 2021 م، بمساحة مائية كلية تقدر 23343 دونما، في حين بلغ مجموع الاقفاص العائمة 1081 قفص، تقدر مساحاتها المائية بحوالي 207289 مترا مربعا. والظاهر ان انتاج المزارع الترابية ضئيل بالمقارنة مع تصاميمها الفعلية بسبب شة المياه وارتفاع تكاليف الإنتاج وتعرض اغلب المزارع في السنوات الاخيرة بما في ذلك الأقفاص العائمة الى امراض فيروسية قاتلة لم تكن موجودة سابقا.

مفاقس تكثير الأسماك

تم تنفيذ محطة بحث في مفقس اسماك الصويرة وعدد من المفاقس في بعض المحافظات (مفقس اسماك القرنة، مفقس اسماك الميمونة، مفقس اسماك المشرح، مفقس اسماك حديثة، مفقس اسماك الموصل، ومفقس اسماك صلاح الدين) وبطاقات انتاجية تتراوح من 2 - 5 مليون اصبعية حسب طاقة كل مفقس، بعد حصر المواقع المائية بالتعاون مع مديريات الزراعة في تلك المحافظات منذ عام 2003 م، حيث كان النشاط يعتمد حينذاك على مفقس اسماك الصويرة فقط لرفد القطاع الخاص بإصبعيات اسماك الكارب وتنمية المسطحات المائية.

الصيادون ومراكب الصيد

يبلغ عدد اجازات الصيد 12284 إجازة، باستثناء المحافظات الشمالية حيث لا تتوفر معلومات بشأنها. اما اجازات زوارق الصيد بمحرك فبلغت 4416 وبدون محرك 3873 إجازة، في حين بلغ عدد اجازات السفن في الخليج 320 اجازة. معظم قوارب الصيد في المياه الداخلية خشبية الصنع، بأطوال 7 - 10م غالبيتها تعمل بمحركات قوة تتراوح بحدود 25 - 50 حصانا. بينما تتراوح اطوال مراكب الصيد في الخليج من 25 - 38م، وبقوة تفوق 150 حصانا. وبالنسبة لمعدات الصيد التي تستخدم في المياه الداخلية فهي: الكرفة، السياس، النصب، والسلية. في حين تستخدم شباك الجر والسياس والكراكير في مياه الخليج.

واقع استثمار الثروة السمكية

بسبب غياب هيكلية ادارية مختصة تناط بها مهمة إدارة شؤون الثروة السمكية وتهميش هذا النشاط منذ أواخر الثمانينات الى يومنا هذا، وغياب السياسة التنموية والاستثمارية لهذه الثروة الاقتصادية، فقد اقتصرت عملية الاستثمار بطرق فنية وإمكانات مادية محدودة من قبل القطاع الخاص وبالشكل الاتي:

- استثمارات فردية محدودة جدا تعمل في مجال الصيد التقليدي في المسطحات الداخلية او في المياه البحرية.

• تربية الأسماك من قبل الأفراد عن طريق انشاء احواض ترابية في الأراضي غير الصالحة للزراعة والاقفاص العائمة.

• بحدود 28 شركة أهلية خاصة ومحدودة في محافظات بغداد، واسط، وبابل، كانت تعمل في مجال تربية الاسماك، توقف معظمها عن النشاط حاليا.

• البنى التحتية لقطاع الثروة السمكية المتمثلة بالمخازن المبردة وورش صيانة الشباك ومعدات الصيد وتسويق الاسماك تكاد تكون مفقودة، وان وجدت فهي مشاريع فردية وذات إمكانيات فنية ومالية محدودة.

قصور الإنتاج السمكي

يرجع قصور الإنتاج السمكي في العراق الى ما تعانيه من معوقات فنية وتنظيمية وتسويقية، والتي يمكن ايجازها بما يأتي:

* عدم وجود مؤسسة مختصة تشرف على هذا القطاع وافتقار وزارة الزراعة الى كوادر علمية وفنية، تعمل في مجال تربية وبيولوجية الأسماك والمصائد.

* تذبذب واردات المياه من دول الجوار وانخفاض مناسيبها في الاهوار الي مستويات متدنية.

* عدم مراعاة الجوانب التنموية عند تأجير واستثمار المسطحات المائية.

* نقص حاد في البنى الاساسية او عدم وجودها والمتعلقة بالنقل والخزن والتبريد واستخدام الطرق البدائية في تسويق الاسماك، بدءا من تجميعها وتسويقها ومن ثم بيعها في محال لا تتوفر فيها الشروط الصحية.

* الافتقار الى بيانات واحصائيات متعلقة بالمياه الاقليمية والمسطحات المائية من حيث ظروفها البيئية ومعدلات نمو تجمعات الاسماك فيها وتكاثرها وهجرتها وتقدير المخزون السمكي.

* عدم الالتزام بالقوانين والتشريعات المتعلقة بتنظيم أنشطة الصيد للحفاظ على الثروة السمكية من حيث تحديد نوعية ومواصفات سفن الصيد، نوعية الشباك ومواصفاتها، فترات الصيد على مدار السنة وعدم اللجوء الى استخدام السموم والمبيدات والصعق بالكهرباء في عمليات الصيد.

* شحة المواد الأولية لصناعة العلف مع ارتفاع أسعارها ورداءة نوعيتها إضافة الى نقص المستلزمات المطلوبة مع غياب الرقابة والاشراف على مزارع تربية الأسماك.

* عدم وجود المستلزمات المرتبطة بالصيد البحري بالمستوى المطلوب مثل مرسى، ورش تصليح، مخازن وغيرها.

مقترحات لتحسين الأداء

• الاهتمام بالخبرات العلمية بما يغطي احتياج العراق من الكوادر الفنية حيث تفتقر وزارة الزراعة الى اختصاصات الدراسات المائية والبيولوجية للأسماك من حملة البكالوريوس والشهادات العليا لدراسة السلوكية البيولوجية للأسماك العراقية في ظل التغيرات البيئية الخاصة وبيان مخزونها في كل مسطح بغية العمل على زيادة الاحتياطي منها وكذلك تحديد صفات هذه المسطحات من الناحية الفيزيائية والكيمياوية والبيولوجية لغرض الاستفادة من هذه المعلومات في تحديد الانواع المناسبة للأسماك للتربية في كل مسطح مائي.

• إيجاد صيغة مناسبة للتعامل مع مفاقس اسماك القطاع الخاص لرفد وزارة الزراعة بإصبعيات الاسماك العراقية بصدد اطلاقها

في المسطحات المائية وتحفيز القطاع الخاص على المساهمة في العملية التنموية للأسماك المحلية.

• إعادة تنشيط صندوق دعم المزارعين بحيث يعزز دور القطاع الخاص على مستوى الاستثمار في المجالات الإنتاجية والتسويقية ومنح القروض المناسبة لتطوير وتوسيع الانشطة الفردية او تنظيم جمعيات تعاونية وتشجيع تنمية الصناعات السمكية مثل صناعة بروتين الأسماك كأعلاف للمزارع السمكية ومصانع معدات الصيد وأدواته والوسائل اللازمة للتسويق.

• دراسة إمكانية ادخال أصناف جديدة من اسماك التربية (الكارب) باعتبارها سمكة سريعة النمو وتتحمل الظروف غير الطبيعية وارتفاع ملوحة المياه خاصة في الاهوار والسدود. والاقتداء بالدول المماثلة للعراق مثل سوريا، حيث اعتنت في خططها التنموية في المسطحات المائية الداخلية على اسماك الكارب العادي والكراس والتيلابيا ورفعت مخزون مسطحاتها الى حوالي 150 - 200 كغم /هكتار منذ مطلع الثمانينات، في حين بقي العراق متأخرا في هذا المجال لاعتراض البعض على هذا المبدأ دون إعطاء الحل المناسب رغم علم الجميع بعدم إمكانية الاعتماد على الاسماك المحلية العراقية لوحدها في العملية التنموية للمسطحات المائية لأسباب عديدة أهمها:

أ. ارتفاع نسبة الملوحة والتلوث في المياه الداخلية لا تتحملها الأسماك العراقية.

ب. الأسماك العراقية تنمو ببطء وقد يحتاج وصول سمكة الى وزن 1 كيلو الى 5 سنوات، مما يعرض الكثير منها الى الموت بسبب الافتراس من قبل اعدائها او التلوث او استخدام وسائل صيد ذات قتل جماعي قبل وصولها الى مرحلة التسويق.

تجارب تربوية من السويد

عبد العزيز ججو

عبد العزيز ججو، خريج جامعة بغداد عام 1970 كلية التربية قسم علوم الحياة. عمل في التدريس في العراق والجزائر والسويد لغاية 2020. درس علوم الرياضيات في السويد. ودَرَّس باللغة السويدية مادة الاحياء والرياضيات في الإعدادية والفيزياء والكيمياء والتكنيك، في المدارس المتوسطة السويدية.

تاريخياً

يرتبط تطور اي بلد بدرجة تطور التعليم لديه. والسويد نموذج له خصوصية تاريخية؛ ففي عام 1842 في زمن الملك كارل الثاني عشر اصدر الملك مرسوماً ملكياً جاء فيه، انه على كل وحدة إدارية (ما يشبه البلديات الحالي) ان تفتح مدرسة لتعليم السكان في كل المملكة. واحدة من تلك الوحدات الصغيرة في وسط غرب السويد، ردت على المرسوم الملكي، انه ليس لديها ما يكفي من المال لأنها قد رصدت ما لديها هذا العام لتجديد باب الكنيسة المهترئ. كان رد الديوان الملكي بانه لا يقبل اي اعتراض لأي كان لعدم تنفيذ القرار، وكانت اول خطوة في المجتمع من اجل التعليم العام وقد سميت مدرسة الشعب.

منذ ذلك الحين لم تتوقف المدرسة السويدية عن التطور مع مجريات التطور العالمي لغاية اليوم. والتي شملت المناهج، وطرق التدريس، واستخدام النظريات العالمية الحديثة في كل مرحلة. والتي اعتمدت في النهاية على فلسفة تعليم من التلقين الى الإبداع، ومن المعلومة المطلقة الى الشك والنقد، في كل من المنهج وطرق التعليم الى توفير اخر المستجدات المختبرية والعلمية للطلبة، لربط المعلومة بالتجربة العملية لتسهيل استيعابها وتطويرها.

بدأت المناهج كبقية العالم من البسيط والمقرر بكل التفاصيل الى أن وصلت اخيراً الى خطوط عامة لكل مادة. وهناك شركات تقوم بترجمة محتواها كل بطريقته وطبعها ككتب تعليمية، وهناك على الاقل عشرة منها لكل مادة دراسية، وتشتري المدرسة باتفاق المدرسين في المادة المعينة ما تراه الأكثر مناسباً لطلبتها، ومن ميزانيتها.

فبدلاً من كتاب واحد، فيه 2+2+1=5، يمكن أن يكتب بعدة اشكال اخرى تؤدي نفس الغرض.

لطرق التدريس فلسفتها الخاصة في السويد والتي قد تشبه جيرانها الى حد ما، لكنها تبنى على عدة دعائم اولها اعطاء المدرس حرية الطريقة في التدريس للمادة ضمن المنهج

للمرحلة بقسميها النظري والعملي، وقد تتفق مدرسة على استخدام نظرية تربوية خاصة بها. والثانية هي الانطلاق من مستوى الطالب وليس اعلى منه او اقل بكثير، لكي يستطيع التطور والاستيعاب. والثالثة هي عدم ربط الطالب بالمنهج كحد اقصى بل اعطاؤه فضاءً مفتوحاً للأعلى بلا حدود وتشجيع ذلك، والمجتمع مهيأ لذلك ايضاً. فمثلاً طلبة الثالث المتوسط يطرحون اسئلة ـ في لقاء ـ على اساتذة وطلبة احد المعاهد المهمة بالتكنولوجيا وغيرها خلال زيارة للمعهد، لاكثر من هدف: لتهيئتهم للمستقبل، ومنحهم إحساسا يمكنهم من الوصول الى هنا للدراسة، وزيادة الثقة بأهمية ما يتعلمونه الآن للمستقبل.

يتضمن المنهج المدرسي نقطة حاسمة في التعليم ألا وهي توفير فرصة البدء بالبحث والتجريب وربطها بالمنهج. مثال ذلك في مادة الفيزياء والتكنيك يختار المدرس واجباً او تجربة تشمل عدة مواضيع مع بعضها، لكي ينمي التفكير بان كل الظواهر الطبيعية مترابطة ومتداخلة رغم دراستها منفصلة عن بعضها. مثال: كيف يمكن ان يعمل تصميم لاسقاط بيضة نيئة من ارتفاع ثلاثة الى خمسة امتار دون ان تنكسر؟ هنا يتم العمل وكأنه مستحيل لكن بعد عدة محاولات فاشلة تتمكن الغالبية من النجاح، وتجري مسابقة بين افضل التصاميم، ويقوم كل منهم بتفسير سبب النجاح والفشل سابقا. (هل ينسى الطالب هذه التجربة؟ لا اعتقد لاني التقيت البعض بعد سنين وهم ما زالوا يتذكرونها بابتسامة). والامثلة كثيرة لا تحصى.

العوامل الدافعة للبحث والتطور تبدأ عادة مبكراً بإثارة اسئلة وليس اعطاء اجوبة لاسئلة مسبقة من الكتاب المدرسي. هذا يعطي الطالب الاحساس بانه ليس هو من لا يعرف الجواب بل الاغلبية لانهم لم يتطرقوا له بعد. كما ينطلق الدرس من البيئة القريبة المحيطة لتكون ملموسة وسهلة التعرف عليها وتذكرها عند الحاجة. والدافع الاخر الذي يساعد على التعلم هو العمل ضمن مجموعات معاً من اثنين الى اربعة في اغلب الدروس للتعاون والاستفادة من وجهات نظر بعضهم البعض تطبيقاً لنظرية الباحث فارانس مارتون المجري الاصل، صاحب نظرية تقول بان التعلم يصبح اسهل وأكثر نجاحاً اذا كان يتم بطرق مختلفة لكي تناسب الطالب نفسه، كمن يرمي كرة في سلة، فلكي ينجح افضل، عليه ان يغير زاوية رمي الكرة. من المهم ان يكون التعليم موضوعيا. بمعنى عدم الخلط بين العلوم المختلفة والقضايا غير العلمية. فيتم تدريس الاديان كلها حسب ما هي دون تفريق بينها، لان هذا غير خاضع سوى لأحاسيسك بغض النظر عمّا هي.

العلم واللاعلم

يدور الكثير من اللغط حول مفهوم العلم واللاعلم وبالارتباط بالدين او المعتقد وهناك خلط بينهما احيانا من قبل البعض، لذا بودي توضيح هذا الاختلاف وبقدر من التبسيط دون ان يفقد الجوهر.

العلم هو كل ما يمكن إثباته او تفنيده بالشكل التجريبي او النظري الذهني بالاعتماد على الحقائق المتوفرة في زمن معين لدى الانسان، وهذا متغير باستمرار لانه بسبب التراكم الكمي للمعرفة العلمية تظهر دائماً تعديلات على المعلومة السابقة لتكون اكثر دقة اولاً ثم تصل الى نظرة مختلفة او ظهور نظرية جديدة او ما يسمى اتجاها مختلفا بشكل كبير على تلك الظاهرة السابقة، وهذا يشمل كل العلوم الطبيعية والانسانية وكل ما يسمى علما. فمثلاً عندما جاء نيوتن بقانون الجاذبية المعروف فقد وضع نظرية لكيفية تفسير لماذا تسقط الاشياء على

الارض واستخلص ابعاد ذلك في كل المجالات بما في ذلك الكواكب والاجرام الفلكية، والثانية هي نظرية بياجيه التربوية التي سادت لنصف قرن، وما زالت فاعلة وبرزت نظريات ما تسمى بما بعد بياجيه والتي طورها اتباعه. ومن جهة اخرى ترجمت لاول مرة في السبعينات افكار التربوي الروسي ليف فيكوتسكي المتوفى عام 1934 المختلفة عن بياجيه في المنطلقات والتحليلات والتي تدرس منذ التسعينات في جامعات العالم، اي انها لم تكن في متناول الناس قبل ذلك، وبالتالي لم تكن جزءاً من التراكم المعرفي المطلوب في مجاله. لقد اثبت اينشتاين ان نظرية نيوتن غير صحيحة في ما يخص الفلك لانها تخضع لقوانين اخرى وجاء بنظرية اكثر تفصيلاً في مجالات الجزيئات النووية من جهة، ولكن حتى هو كان غير دقيق في تحديد بعض الجوانب كالحد الاقصى للسرعة بسرعة الضوء، لان علماء اليوم تمكنوا من التوصل الى سرعة تعدل ثلاثة اضعاف سرعة الضوء. ولكن هذا كله لا يعني عدم صحة النظريات العلمية بل يؤكد تطورها المستمر من الادنى للأرقى.

السؤال كيف يتم تطور العلوم بشكل عام؟ والجواب سهل لكونه يتبع عدة خطوات واضحة جدا، وهي:

اولاً: قبول العلم المتوفر اليوم كنقطة بداية وهذا هو جهد آلاف البشر وتراكم خبرة آلاف السنين.

ثانياً: هو محاولة فهمها والنظر اليها على انها عمل بشري وتدقيقها بنظرة نقدية وتشكيكية لما يراه الشخص مختلفاً والتفكير بتفسير او رأي مغاير او ما يسمى فرضية جديدة للظاهرة او جزء منها، وهذا غالباً لا يؤدي الى اية نتيجة، لكنه مهم جداً، لانه اساس التطور وتجربة الافكار الجديدة.

ثالثاً: تجريب الفكرة او الفرضية وهنا يأتي ما نسميه (العلم) سواء كان ذلك تطبيقياً ام منطقيا ذهنيا، وسواء كان جزئياً ام شاملاً. ففي حالة نجاح واثبات ذلك تتحول الفرضية الى نظرية، بهذا القدر او ذاك. وهذا بدوره يترك اثره على بقية المجالات القريبة اذا كانت نظرية عامة كالنسبية او جزئية كالثقوب السوداء او في مجال ضيق جداً لا يتجاوز تفصيل في اختصاص محدد جداً مثل شحنة الالكترون الموجب. والتي تعاد من قبل الآخرين بنفس الظروف والطريقة، للتأكد من الاستنتاج الذي خرج به الباحث.

رابعاً: الحقيقة العلمية، عندما تتم تجربة النظرية من جوانبها المختلفة وتثبت انها تتطابق مع مضمونها لدرجة كبيرة وتصبح مقبولة من قبل المختصين في مجاله، عندها يقال انها اصبحت في حقل الحقيقة لكنها ليست مطلقة، بمعنى انها تخضع للاختبار والنقد العلمي باستمرار من قبل الآخرين لدحضها والمجيء بالبديل او لتطويرها اكثر في احد مفاصلها. وهذا هو الفرق الجوهري بين العلم عن غيره.

اما اللاعلم فهو يمكن ان يكون اي شيء آخر. ما دام لا يخضع لهذه الخطوات وبهذا التسلسل.

الهوامش:

ـ دُرِسَت هذه في المدرسة المتوسطة في السويد في السنة الاخيرة كمدخل في موضوعة تطور الكائنات العضوية حسب نظرية داروين من قبلي لسنين في مادة العلوم الطبيعية. إضافة الى مواضيع اخرى لها علاقة بالموضوع.

جامعة التكنولوجيا في مدينة يتوبوري. Charlmers -

ـ الباحث التربوي فارانس مارتون المجري الاصل.

ـ مرسوم الملك كارل الثاني عشر عن المدارس الشعبية عام 1842.

قراءة في كتاب:
لمحات تاريخية من تطور الفكر السياسي الشيعي

د. إبراهيم إسماعيل

يستند فهم طبيعة الصعود الدراماتيكي لما يطلق عليه بالإسلام السياسي، أو ما يسميه أنصاره بالصحوة الإسلامية، منذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين، على قراءة علمية للأسس الأيديولوجية المشتركة التي تحرك نشاط قوى هذا التيار ومظاهر القوة والضعف التي يتسم بها. وعلى الرغم من تباين البرامج السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأطيافه المذهبية، فأن الأسس الفكرية التي تستند عليها أغلب تلك الأطياف تكاد تكون مشتركة.

ولعل من أبرز الأسباب التي أدت الى صعود هذا التيار ومكّنته من مواجهة القمع السياسي المتواصل الذي تعرضت له قوى المجتمع المختلفة، إحتماؤه بالمؤسسات الدينية وتلفعه بأردية مقدسة، إضافة الى إنحسار الوعي الوطني وتشظيه إلى أشكال متخلفة "عشائرية، طائفية، قومية، ومناطقية"، وغياب قدر مناسب من العدالة الاجتماعية، والتخادم السياسي مع الغرب إبان الحرب الباردة، وإنهيار التجربة الإشتراكية وإنحسار قوة تأثير المشروع القومي في العديد من الدول الوطنية.

ورغم إن ذات الأسباب، أو اغلبها، قد كان وراء نمو الإسلام السياسي الشيعي أيضاً، الا أن إستناده الى فكر مختلف ومتميز نسبياً، وفّر عوامل اضافية لنموه، من أهمها تغير الأسس الفكرية التي تعلل مسار تطور مناهجه، تحت تأثير الصراعات السياسية ـ الفكرية، الداخلية منها والخارجية.

وكان نتيجة ذلك، العديد من الصور المتداخلة والمتقاطعة والأسئلة المهمة والمركبة التي تثقل المتابع لما حدث ويحدث في شرق المتوسط، وخاصة الباحث الذي يسعى لتحقيق قراءات علمية للفكر الشيعي الأثني عشري وما يلعبه من دور مهم في عالم اليوم، حيث تتداخل صور الدولة الثيوقراطية التي تتبنى مفهوماً جامداً للدين بكل عباداته ومعاملاته، وصور ميليشيات مسلحة تحتكر ساحة الوعي وتغطيها بما تدعيه كحقيقة مطلقة، مع صور الشعارات الداعية للعدالة والإستقلال ومواجهة الظلم والإحتلال، تلك التي كانت لزمن طويل حكراً على الثوريين، واليساريون منهم بشكل خاص، ومع صور لشيَبَة، بعمائم ولحى كثيفة، تذكي جمر عزيمتها من قبس بندقية جيفارا.

ويشتد الناس حيرة، حين يبدو إتساقهم مع شعارات العدالة والتحرر تلك، إصطفافاً مع التزمت الديني والإستقطاب المذهبي والموقف الملتبس من الحريات، أو حين تبدو إدانتهم للتزمت والقمع تقاطعاً مع الشعارات الثورية والشبيبة المقاومة. ولفك هذا الإشتباك وتبديد حيرة الناس، كان لابد من من معرفة الأسس الفكرية التي إرتكز عليها هذا التيار، ودرجة التفاعل المتبادل بين هذا الفكر وبين مجموعة العوامل المحيطة به، كالوعي بالغياب الشامل للعدالة الاجتماعية والحرية السياسية، وكمستوى توفر حد مناسب من إرادة التغيير لدى الناس، وكمدى إتساق أحلامهم مع واقع احتكر فيه المستبد، الثروة والقوة وحتى رحمة السماء!

ورغم إن المكتبة العربية باتت تعج بالكثير من الدراسات التي تبحث في النظام السياسي الإسلامي وتاريخ الفرق الإسلامية المختلفة، فإن كتاب الدكتور فاخر جاسم (لمحات تاريخية من تطور الفكر السياسي الشيعي)، والصادر

حديثاً عن دار "فكرة" المصرية، يعّد بحق محاولة ناجحة في هذا الإتجاه، وسعياً للإجابة على الكثير من التساؤلات التي أشهرها الواقع علينا، هذا الواقع الذي وصلت فيه القوى والحركات السياسية التي تعتمد على العقيدة السياسية الشيعية،

إلى السلطة في دولتين من أهم دول العالم العربي والإسلامي (إيران والعراق)، خلال فترة لم تتجاوز ربع قرن. كما يعد مساهمة في تبديد العتمة أو عدم الوضوح عن الفكر السياسي لدى الشيعة الإثني عشرية، والذي يتمتع بحيوية وتجدد مستمرين، كما يعتقد الكاتب، لدرجة تركت تأثيراً كبيراً على تطور الفكر السياسي الإسلامي بصورة عامة، حيث وجد المفكرون الإسلاميون في الأبحاث الشيعية حول الإمامة، وشروطها وما إذا كانت نصاً إلهياً أم تركت خياراً للأمة بعد وفاة الرسول، ما يثير الاهتمام ويدعو لتطوير البحث. كما يتمثل الأثر التاريخي الهام لهذا الفكر أيضاً في رفع راية الكفاح ضد الاستبداد والقهر الذي مارسه الحكام المسلمون وفي الوقت نفسه الدعوة للحرية والمساواة ودولة العدالة.

ويسعى الكتاب الى الرد على الفكرة التي تبنتها معظم الأبحاث الأكاديمية، التي تناولت موضوع الإسلام السياسي الشيعي، وإعتبرته كتلة واحدة، ويكشف عن حجم التباينات بين أطرافه في تبني الإطروحات الفكرية المختلفة، كعلاقة الدين بالدولة وعلاقة الإسلام بالديمقراطية ومفهوم العدالة الاجتماعية والحريات الشخصية وغير ذلك. ويرى أن هذه الدراسات لا تأخذ بنظر الإعتبار أن تاريخ الأفكار، بما فيها الفكر الديني، نتاج للظروف الفكرية والاجتماعية لعصرها، ولا يوجد تاريخ للأفكار خارج هذه الظروف، وهو أمر يرتبط إدراكه بفك الإرتباط بين الفكر الديني والدين نفسه. إن القصور في ميدان دراسة هذا التراث، يستدعي من الناحيتين الكمية والنوعية، مواصلة البحث بطريقة مختلفة، لاسيما مع إتساع دائرة الإهتمام بهذا الفكر جراء تعاظم دوره في الحياة السياسية، إقليمياً ـ بشكل مباشر ـ ودولياً بشكل مكمّل، وهذا ما سعى الكتاب لتحقيق بعضه.

إن فك الإرتباط بين الفكر الديني والدين يعتمد على توضيح الفروق الجوهرية بينهما، فالأول فعل بشري خاضع للظروف

الاجتماعية والمتغيرات الخاصة بمنتجي هذا الفكر. أما الدين فهو حقائق ذات قدسية خاصة. كما تتجلى هذه الفروق بتباين الإجتهادات تجاه فهم نفس الحقائق الدينية وذلك بإختلاف المفكرين أو/ وبإختلاف الظروف التي يفهمون بها تلك الحقائق. وبناء على ذلك يعتبر الإستقواء بالنصوص الدينية واللجوء للتكفير والتحريم ضد الخصوم السياسيين والفكريين، دليلا على ضعف الحجج التي يقدمها رجل الدين أو الحزب السياسي الديني لإقناع الناس بآرائه الفكرية وبرامجه السياسية. وفي الوقت نفسه تدلل على قوة الحجج والأفكار التي يكفرونها بين الناس. كما تلعب علاقة الدين بالدولة دورا مهما هنا، فبما أن الدين يشكل أحد المصادر المهمة للوعي الاجتماعي في البلدان الإسلامية، فإن العمل على حفظ التوازن بين الدولة والدين، بحيث لا يحوي الدينُ الدولةَ فيتأثر مجال الحرية، ولا تحوي الدولة الدين، فيتحول إلى فكر سلطاني يستخدم كسلاح أيديولوجي لتبرير الاستبداد والقهر الذي تمارسه السلطات ضد المواطنين، بدلاً من أن يكون سلاحا بيد الطبقات الفقيرة والكادحة لتحقيق العدل والمساواة (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) "القصص.5".

لقد إهتم الكتاب بالتعريف بمسارات تطور الفكر السياسي لدى الشيعة الإثني عشرية في عصر الغيبة، ومجموعة العوامل التاريخية ـ الاجتماعية والسياسية التي تحكّمت بنشوئه وتبلوره ومسار تأثيره على تطور الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي للبلدان التي نشأ أو تفاعل أو ساد فيها، ومسار تأثير ظروف هذه المجتمعات على المتغيرات

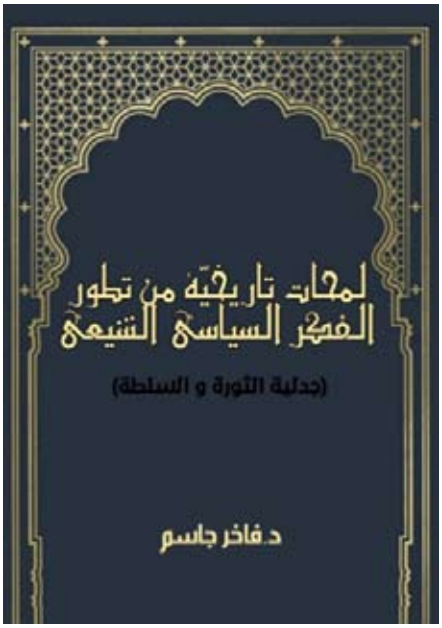

في هذا الفكر. ونجح الباحث في الإجابة على الأسئلة الهامة المرتبطة بذلك ومنها، لماذا لم تندثر حركة الشيعة، كغيرها من الفرق الإسلامية الاخرى التي ظهرت في التاريخ الإسلامي، على الرغم من تعرضها للإضطهاد القاسي والتشويه على أيدي الحكام، وما أسباب قدرة الفكر السياسي الشيعي على بناء سلطة تقوم على العقيدة السياسية للشيعة، وبناء قوى وحركات نشطة تعتمد على المذهب الشيعي كأيديولوجية، وهل أفرزت مسيرة تطور الفكر السياسي الشيعي نظريات أخرى غير نظرية ولاية الفقيه المطبّقة في إيران في الظروف الراهنة، وهل كانت المعارضة السمة الرئيسية للفكر

السياسي لدى الشيعة الإثني عشرية؟

وحول ما أضافه الكتاب لمكتبة العلوم الإنسانية العربية يمكننا القول إن الدراسات السابقة لتاريخ الفرق الإسلامية تميل إلى السرد التاريخي المجرد للأحداث، دون الاستفادة من استخلاص العبر التي تفيد واقعنا المعاصر. وهذا الامر ينطبق على الأبحاث التي كتبت عن الفكر السياسي للشيعة بشكل عام والشيعة الإثني عشرية بشكل خاص، لذلك حاول الكاتب منذ البداية استشفاف العبر الاجتماعية من حركات الشيعة الثورية وهي كثيرة، ومن أهمها الجانب الاجتماعي الذي كان السمة البارزة. بمعنى سعي هذه الحركات إلى تحقيق العدالة والمساواة الاجتماعية، تلك المبادئ التي كانت غائبة عن ممارسة أغلب الحكام المسلمين والتي ينطبق عليها وصف شيخ المعتزلة الحسن البصري الذي قال: هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون أموالهم، ويقولون إنما تجري أعمالنا على قدر الله تعالى .. كذب أعداء الله". ولهذا السبب اعتبر مفكرو السلطات الحاكمة كل من يسعى لتحقيق هذه الأهداف من الزنادقة والملحدين كحركات المختار وزيد بن علي والزنوج والقرامطة والبابكية وغيرها. ومن نافل القول الإشارة الى أن الباحث في مجال التراث الفكري للفرق الإسلامية لا يمكنه التوصل إلى العبر الاجتماعية لحركات الشيعة بدون ربطها بالظروف الواقعية التي نشأت وتطورت فيها، فهي التي توضح لنا لماذا انحاز الفقراء والمضطهدون من كل الأقوام التي خضعت للحكم الإسلامي، الى جانب حركات الشيعة وكونوا القاعدة الاجتماعية لها. فالناس لم ينحازوا لأفكار الإمام علي (ع) وثورة الإمام الحسين (ع) وغيرهم من أئمة اهل البيت لأنهم من سلالة الرسول (ص) فقط، بل لأن أفكارهم وسيرتهم الذاتية كانت تجسد أفكار العدالة والمساواة الاجتماعية. ولهذا السبب أيضاً لا يمكن ان تستخدم أفكار أئمة الشيعة الإثني عشرية كأداة في الكسب السياسي والصراع المذهبي والطائفي والإثراء غير المشروع وكسب المكانة الاجتماعية، لأنها قيم اجتماعية وفكرية أكبر من ان تحتويها فئة او حزب سياسي أو طائفة. فالأفكار الاجتماعية للإمام علي، على سبيل المثال، غالبا ما يمر عليها الباحثون مرور الكرام دون اكتشاف دورها الفكري في التاريخ الإسلامي وجانبها التحريضي ضد الاستبداد السياسي والحرمان الاجتماعي الذي مارسه أغلب الحكام المسلمين ضد فقراء المسلمين وكادحيهم.

لقد كان نجاح الكتاب في تحقيق أهدافه، بديهياً لما يتمتع به الباحث من قدرة متميزة، ليس في إنارة درب المعرفة، بل وأيضاً في تحليل الظواهر والأحداث بمنهجية علمية، وفي نقد بعض المسلمات وإعادة صياغتها لنا، لنتعرف على مصداقيتها من جديد، أو لنتخلص منها كمعيقات بائسة للتقدم، الأمر الذي جعل الكتاب جديراً حقاً بالقراءة لأكثر من مرة، على حد تعبير تولستوي.

ملاحظات عن واقع الزراعة في العراق

أهمية البحث العلمي في تطوير القطاع الزراعي

أ. د. صالح محسن بدر
خبير زراعي ومدير عام الهيئة العامة للبحوث الزراعية سابقا

ينقسم العالم حاليّا إلى مجموعتين رئيستين من حيث مستوى التقدم العلمي والتقني والاقتصادي:

1) الدول الصناعية المتقدمة وتعرف أحياناً بدول الشمال
2) الدول النامية وتعرف بدول الجنوب.

وتمثل الدول العربية والإسلامية جزءاً كبيراً من دول الجنوب، التي لم تستطع مواكبة هذا التقدم لسبب أو لآخر. ولكن هناك تبايناً كبيراً بين الدول العربية والإسلامية في ما بينها من حيث مستوى التنمية والتقدم العلمي والتقني، ويجد عدد من الدول العربية أنفسهم في مفترق طريق فريد من نوعه بعد ألف سنة من الجمود والركود الذي تبع النهضة العربية الإسلامية في القرون الوسطى، وبعد قرن من الهيمنة الأجنبية.

تستند أهمية القضايا المتعلقة بتطور القطاع الزراعي الى كونها الاساس الضروري لتحقيق التنمية الاقتصادية المتوازنة، اذ مما لا جدال فيه ان التقدم الاقتصادي المتوازن لا يستقيم الا باعتماد القطاعات الاقتصادية الاخرى على التقدم والنمو الذي يحرزه القطاع الزراعي، فالثورة الصناعية التي قامت في القرن الثامن عشر في إنكلترا لم يكتب لها النجاح لو لم تسبقها وتمهد لها ثورة زراعية ادت الى رفع انتاجية القطاع الزراعي لمواجهة حاجات قطاع التصنيع والقطاعات الاخرى في التطوير. وهكذا كانت اسس التقدم الذي حصل في دول اوروبا الغربية وفي اليابان والدول المتقدمة الاخرى، حيث كان للزراعة دور ايجابي في التنمية وقوة دافعة في النمو الاقتصادي من حيث تقديمها مساهمات مهمة في التحول الهيكلي لاقتصاديات هذه الدول تتمثل في تجهيزها للفائض الاقتصادي المتمثل بـ:

(1) فائض العمل المحرر من القطاع الريفي للاستخدام كقوة عاملة في الصناعة.
(2) فائض المنتجات الزراعية المستخدمة كمدخلات "مواد أولية " في الصناعة.
(3) فائض السلع الزراعية المصدرة التي تجلب العملة الاجنبية.
(4) توفير السوق لتصريف المنتجات الصناعية.
(5) فائض الغذاء المحول لاطعام سكان المدن وتحقيق الأمن الغذائي للسكان.

لقد ركزت استراتيجية التنمية في معظم البلدان النامية ومن بينها الدول العربية منذ بداية السبعينيات على تحقيق الاكتفاء الذاتي والأمن الغذائي باستخدام سياسات مصممة

للوصول الى اقصى درجات الانتاج المحلي للمحاصيل الزراعية الغذائية الرئيسية وذلك باتباع سياسة زراعية قوامها استخدام التكنولوجيا الحديثة والدعم المالي الكبير الذي تمنحه للمزارع والاسعار العالية المضمونة لمنتجاته والحماية الكمركية. وهكذا تخلصت البلدان التي حققت الاكتفاء الذاتي من احتمال استعمال الغذاء كسلاح في الصراعات السياسية والاقتصادية والعسكرية، حيث ان البلد الذي لا ينتج غذاءه لا يستطيع بالضرورة تأمين ما ينقصه من تلك المواد حتى ولو امتلك المال، ولذا فان توفير الغذاء والمواد الاولية للصناعة من مصادر محلية يعد هدفاً استراتيجياً ووطنياً ومحققاً للأمن القومي. لذلك نرى ان مشكلة الغذاء التي تواجه الوطن العربي تزداد اهمية وتتطور خصوصا في النواحي الاقتصادية والسياسية. فمن النواحي الاقتصادية فقد اشارت التقارير والدراسات للمنظمة العربية للتنمية الزراعية ضمن برامج الامن الغذائي العربي، الى أن الدول العربية بمجموعها تمثل منطقة عجز غذائي تعتمد في تغطية ذلك العجز عن طريق الاستيراد من الخارج وقد تتركز هذه السلع المستوردة في مواد ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها من جهة كالحبوب والزيوت ومنتجات الألبان، في ذات الوقت فان إمكانية خزن مثل هذه السلع لفترة طويلة امر ممكن، وتشير بعض الدراسات الى ان معدلات العجز الغذائي سوف تزداد مستقبلا مما يزيد في اعتماد الدول العربية على الاستيراد لتغطية ذلك العجز الغذائي.

يعتبر العراق من أقدم المناطق التي عرفت الزراعة في العالم القديم ما أدى الى نشوء اول حضارة انسانية، الا وهي حضارة وادي الرافدين، ورغم ذلك فان العراق يعتبر من اكثر الدول تخلفا في الانتاج الزراعي وهذا يرجع الى عدة عوامل يمكن ان ندرجها ضمن العوامل الطبيعية والبشرية، ولسنا هنا بصدد التفصيل فيها، الا ان الذي يهمنا هو كيف نتمكن من زيادة الانتاج الزراعي بنوعيه (النباتي والحيواني) وتحسين نوعيته، لكي يسد حاجات الناس الغذائية والصناعية، ويجعل العراق بلدا مصدرا للمنتجات الغذائية بدلا من استيرادها؟

ان عملية بناء اقتصاد زراعي عراقي متطور كأساس للتنمية الاقتصادية المتوازنة تعترضها العديد من المعوقات والتحديات والازمات التي صاحبت خطط التنمية الاقتصادية منذ اواخر الستينيات وحتى الان. ويمكن حصر هذه الازمات والمعوقات التي احاطت بالتنمية الزراعية فأعجزتها عن بلوغ اهدافها والوصول الى حلول ناجعة وسريعة لتحقيق الأمن الغذائي بما يلي:

أولا/ أزمة اختلال التوازن الاقتصادي:

وبصورة خاصة ازمة الاختلال الموجود بين الانتاج والاستهلاك، فالعراق اصبح يستهلك اكثر مما ينتج في ما يتعلق بالمواد الغذائية، حيث ادى النمو السريع في الطلب على الغذاء خلال فترة السبعينيات وقصور الانتاج الزراعي عن الاستجابة لمتطلبات هذا النمو الى تفاقم مشكلة الانكشاف الغذائي واعتماد البلاد على المصادر الاجنبية في سد العجز من احتياجاته الغذائية الاساسية، ولم يكن ارتفاع معدل نمو السكان هو

السبب الوحيد في ازدياد الطلب على المواد الغذائية، بل ثمة اسباب اخرى كان لها دور فعال في زيادة الطلب على الغذاء وهي التوسع الحضري - تحول السكان من الريف الى المدينة وارتفاع مستويات الدخل والمعيشة.

ثانيا/ التمويل والاستثمار في القطاع الزراعي: هناك قصور في معدلات تكوين رأس المال الزراعي بسبب انخفاض نسبة الاستثمارات الموجهة الى القطاع الزراعي بالقياس الى الاستثمارات الموجهة للقطاعات الاخرى، حيث لم تتجاوز النسبة المنخفضة للقطاع الزراعي 10% من حجم الاستثمارات الكلية في خطط التنمية.

من هذا يتبين ان الخلل القائم في التنمية الزراعية والامن الغذائي لم يواجه بالجهود والتخصيصات الاستثمارية التي تتناسب مع مكانة الزراعة واحتياجات تنميتها الرأسية والافقية ويظهر ان الخلل الاستثماري والقصور في معدلات تكوين رأس المال في الزراعة سيستمر للسنوات القادمة حسبما جاء في ورقة عمل وزارة التخطيط والتعاون الانمائي فقد جاء في محور اعادة بناء البنى الارتكازية في السنوات القادمة (ان الانفاق الحكومي في الخطة الاستثمارية سوف يقتصر على البناء والاصلاح والتوسع في البنى الارتكازية الاساسية في الاقتصاد ويشمل هذا الكهرباء والطاقة والمياه والصرف الصحي والنقل والاتصالات والصحة والتعليم)، ان هذه القطاعات مع القطاع النفطي سوف تستأثر بالجزء الاكبر من موارد الدولة والمنح والاعانات، ومما يترك القليل لتراكم رأس المال في القطاعات الانتاجية الصناعية والزراعية التي سيترك نموها وتطورها والاستثمار فيها للقطاع الخاص. ان هذه السياسة اذا ما طبقت فسوف تتعارض مع طبيعة الزراعة والملابسات الاقتصادية والطبيعية التي تكتنفها وستتعارض مع تجارب الامم المتقدمة التي اولت القطاع الزراعي رعاية خاصة وتدخلت في تطوره تدخلا واسعاً لكونه الاساس الضروري للنمو الاقتصادي في القطاعات الاخرى، ولذلك فقد جاءت مبادرة الحكومة العراقية لتطوير القطاع الزراعي كأسلوب لمعالجة هذا الجانب.

وبناء على ما تقدم فان بناء اقتصاد زراعي متطور لا يمكن تركه للقطاع الخاص لقلة امكاناته الاستثمارية وصعوبة التمويل الزراعي بسبب المخاطر الكثيرة التي يتعرض لها الانتاج الزراعي والناجمة عن الجفاف والامطار والصقيع والفيضانات والحشرات والاوبئة وغير ذلك من العوامل التي ليس للانسان السيطرة عليها، وهذا ما يجعل صاحب رأس المال يتردد في تسليف المزارعين او يطلب فوائد كبيرة مقابل استعمال رأس ماله في الزراعة لذلك فان الاصرار على هذا التوجه وتكليف القطاع الخاص بهذا الشأن معناه الحكم على الخطة الاقتصادية القادمة بالفشل في تحقيق اهدافها في التنمية المتوازنة.

ثالثا/ مشاكل التخطيط والسياسات الزراعية: من اهم المشاكل التخطيطية التي عانت منها الاقطار العربية والعراق بصورة خاصة هي عدم التوافق والترابط بين البرامج القطاعية وغياب التخطيط التشابكي بين القطاعات فكان اعداد البرامج

والمشروعات في كل قطاع يتم بمعزل عما يجري في القطاعات الاخرى. كما ان التوازن بين الانماء الاقتصادي والاجتماعي كان مفقودا الى حد كبير، ولم تكن تنمية القوى البشرية وتحسين ظروف الحياة الاجتماعية مكونا اساسيا في معظم الخطط السابقة، هذا بالإضافة الى ان الخطط الانمائية تعاني جميعها من قلة البيانات وعدم دقتها وفقدانها للشمول. وكما هو معروف فان التخطيط السليم لا يمكن ان يتحقق من دون توافر قاعدة من البيانات والمعلومات الاحصائية الوافية كما ان التخطيط السليم يحتاج الى دراسات متعمقة لفهم واقع الحال واستشراق المستقبل. واخيرا لا بد من الاشارة الى الخطأ الكبير الذي ارتكبته الحكومة في السبعينيات بتقليصها الاهتمام بالتنمية الزراعية والاتجاه نحو التركيز على المشاريع الصناعية ومشاريع البنى الهيكلية والخدمات وكان نصيب المناطق الزراعية والريفية من التطوير قاصرا الى درجة مشهودة.

وفيما يتعلق بالسياسات الزراعية فان شروط السياسات الزراعية تتطلب عادة اجراء تغييرات سعرية وتطبيق اصلاحات مؤسسية واجراء تغييرات في السياسات على مستوى الاقتصاد الكلي. وقد ادت هذه السياسات وخاصة سياسة الاسعار الزراعية الى الحد من نمو القطاع الزراعي بسبب تأثيرها السلبي على كفاءة توزيع الموارد والدخول الزراعية فقد كانت الاسعار الزراعية غير المجزية سببا في تحويل الموارد، بعيدا عن القطاع الزراعي ما عجل بحركة الهجرة من الريف الى المدينة وتحويل الاراضي الزراعية الى استخدامات غير زراعية.

رابعا/ ازمة الادارة وضعف الهياكل المؤسسية والتنظيمية: ان مشكلة الادارة في القطاع الزراعي ما تزال تنتظر الحل فالملاكات ماتزال دون المستوى المطلوب من حيث الادارة والتطوير وغير قادرة على تحقيق اهداف التنمية بصورة فعالة ومن المعروف ان الخبرة في ادارة المشاريع بصورة كفؤة ماتزال محدودة جدا وان ما تعانيه من نقص المهارات الادارية والخبرات اثر تأثيرا عكسيا على منجزات التنمية الزراعية كما ان ضعف الهياكل التنظيمية والمؤسسية لإدارة المشاريع ادى الى عدم الاستفادة القصوى من الموارد المتاحة ولذلك لابد من الاهتمام بهذه المؤسسات من حيث الاصلاح والتطوير الاداري واعادة صياغة السياسات لتمكينها من الوفاء باحتياجات خطط التنمية. ان حتمية الاصلاح الاداري امر ضروري ولازم لأية عملية لإدارة التنمية.

خامسا/ ازمة التكنولوجيا والبحث العلمي: يمكن القول بصورة عامة ان الزراعة العراقية ما تزال تتسم بذيوع الاساليب التقليدية وانها في مجملها متخلفة في تقنياتها مقارنة بالدول المتقدمة التي تستخدم التقنيات الحديثة في زراعتها، كما ان اجهزة البحث العلمي والارشاد الزراعي هي دون المستوى المطلوب من حيث الملاكات والمستوى العلمي ومن شح التخصصات المالية التي تمكنها من تنمية امكانياتها الى مستوى ارفع اضافة الى محدودية الموارد المالية المتاحة ومساحة الاراضي المتأثرة بالملوحة وغيرها من العوامل المحددة للإنتاج

الزراعي. ان مستقبل الزراعة في العراق يعتمد على استمرار تطوير التكنولوجيا والابحاث العلمية التطبيقية ويبدو جليا ان للبحوث الزراعية دورا يمكن ان تلعبه في رفع الانتاج عن طريق زيادة العمل الزراعي واستنباط الاصناف لملائمة وادخال والوسائل والمعطيات العلمية في استخدام الاسمدة واستصلاح الاراضي وزيادة كفاءة استغلال المياه ومكافحة الادغال والآفات الزراعية وغيرها. وان اي استراتيجية لتحسين الاوضاع لا بد ان تعطي اولوية لإزالة المعوقات والقيود التي تحد من جدوى البرامج المعنية باستنباط التكنولوجيا الحديثة وتطبيقها، وبالتالي الوصول الى الانتاجية المثلى للمحاصيل الزراعية وعلاقتها بالبحث العلمي الزراعي. فالإنتاجية بمفهومها العام هي العلاقة بين الانتاج وعوامل الانتاج ويعبر عن هذه العلاقة بمعيار نسبي يقيم اما المقارنة بفترة زمنية معينة او بالمقارنة مع وحدة مشابهة خلال نفس الفترة ويعبر عن الانتاجية الكلية بالمعادلة التالية:

$$\text{الانتاجية الكلية} = \frac{\text{الإنتاج}}{\text{عوامل الانتاج}} \quad \text{او} \quad \frac{\text{المعطيات}}{\text{المدخلات}}$$

ونظرا لتعدد العناصر المكونة للمخرجات والمدخلات على صعيد المؤسسات والمشروعات فان احتسابها بطريقة رياضية واحصائية غالبا ما يكون متعذرا في المشروعات الخدمية والبحثية والادارية، لذلك فقد جاءت فكرة احتساب الانتاجية الجزئية لعناصر الانتاج كلا على انفراد من اجل التغلب على الصعوبات، وبذا تفرعت عن الانتاجية الكلية للمشروعات انتاجيات متعددة كإنتاجية العاملين وانتاجية راس المال وانتاجية المواد وانتاجية الطاقة..... الخ وهذه تسمى بالإنتاجية الجزئية وتحتسب بالمعادلة الاتية:

$$\text{الانتاجية الجزئية} = \frac{\text{الإنتاج}}{\text{عامل انتاج واحد الانتاج}}$$

ويمكن قياس الانتاجية في الزراعة بثلاث طرق وهي:

1. انتاج المحصول بوحدة المساحة المزروعة.
2. انتاجية العمل وهي النسبة بين المخرجات/ المدخلات لوحدة العمل.
3. الانتاجية الكلية وهي الاكثر شيوعا والتي يمكن بواسطتها اعطاء فكرة عن مدى الاستفادة من البحوث في العملية الانتاجية وهي النسبة بين المخرجات المزرعية على المدخلات المزرعية. وهذه الانتاجية تقيس التغيرات التي تحصل على الكفاءة نتيجة البحث العلمي وليس التغير في الدخل او السعر المزرعي.

اما بالنسبة لأنواع البحوث من حيث تأثيرها على الانتاج الزراعي فيمكن تقسيمها الى:

1. البحوث التكنولوجية وتعرف بانها تلك الابحاث التي تكون التكنولوجيا هدفها الرئيس وتشمل تربية النبات، البستنة، الانتاج الحيواني، التقانة الاحيائية والتربة.
2. البحوث العلمية وهدفها الاساسي هو الاجابة على بعض التساؤلات العلمية المتعلقة بالإنتاج وتمثل ابحاث الامراض وعلم التربة والنبات والحيوان.

3. البحوث الفيضية (Spillover): وهي البحوث التي تجرى في مكان ما وتوثر على الانتاجية في مكان اخر وتأثير هذه البحوث يزداد بالنسبة للبحوث العلمية ويقل في البحوث التكنولوجية.

مساهمة البحوث العلمية في زيادة الانتاج الزراعي

لقد قيست مساهمة البحوث في زيادة الانتاجية في العديد من العالم بطريقتين إحداهما تعبر عنها بالـ (Index number) والتي تحسب بصورة مباشرة من كلفة البحوث المصروفة على موضوع ما وليكن الذرة الهجينة والفوائد المتوخاة من زيادة الانتاجية لذلك المحصول نتيجة البحوث. اما التعبير الثاني فقيس بالـ (Regression analysis) ويمكن حسابه بطريقة مغايرة، بحيث يعكس تقييم مقدار العوائد من زيادة الاستثمار بدلا من معدل العوائد من جميع الاستثمارات. وأخيرا فان هذه الطريقة يمكن ان تشخص جزءا من العوائد وتنسبها الى مصادر مختلفة كالبحث العلمي او الخدمات الارشادية وفي حالة استعمال هذا التعبير فيمكن للمرء ان يختبر اهمية العوائد المخمنة بطريقة احصائية حيث ان المتغير التابع هو مجموع الانتاجية والفوائد التي تعرف بانها قيمة التغير في الانتاجية. أما المتغير المستقل فيشمل متغيرات البحوث التي تعكس كلفة البحوث والفجوة بين الاستثمار والفوائد.

يشكل البحث العلمي التطبيقي الجزء الاساسي والهام للبحث العلمي عامة. حيث ان الابداع والابتكار هما السبيلان الوحيدان لاقتناص الفرص لتطوير الانتاج الزراعي. فالبحث العلمي هو الاساس في عملية تنمية القطاع الزراعي حيث يعتبر المحرك الاساسي للتنمية الاجتماعية والاقتصادية، ويساهم بشكل مؤكد في تطوير الانتاج الوطني وتنميته كما ونوعا، ويقلل ويحد من الهدر في الموارد وبذلك يخلق فرصا كبيرة لدخول الاسواق الاقتصادية والتمكن منها ويمكن القول بان مساهمة البحوث الزراعية في تطوير القطاع الزراعي وزيادة الانتاجية ترتبط بشكل كبير بقوة المؤسسات البحثية بكافة جوانبها ومن العناصر المهمة في ذلك مقدار ما يخصص من الاموال للإنفاق على هذا النشاط، اضافة الى العوامل الاخرى، فعلى سبيل المثال يمثل الجدول في ادناه الانفاق على البحث العلمي في عدد من الدول المتقدمة والدول النامية.

الدولة	الانفاق على البحث العلمي	عالم ومهندس لكل 1000شخص
46 دولة مسلمة	%0.3	8.5
الهند	%2.5	-
اسبانيا	%2.4	-
الدول المتقدمة	%3.0	139
الدول العربية	%0.5-0.002	-
المتوسط العالمي	%2.4	40.7

المصدر: د. محمد حسن شعبان/ ٢٠٠٨

حيث يظهر من الجدول أن أوطأ إنفاق هو في الدول العربية حيث يمثل 0.002– 0.5 % من الدخل القومي مقارنة مع الدول المتقدمة والتي تبلغ 2.5 – 3% من الدخل القومي، ما يخلق خللا كبيرا في نشاط هذه المؤسسات، ويجعلها غير قادرة على القيام بمهامها بالشكل المطلوب.

كما أوضح تقرير اليونيسكو لعام 2017 أن الدول الأكثر تقدما تنفق أكثر من 90 % من الإنفاق العالمي على البحث العلمي. وأن الدول العشرة الأولى التي استحوذت على نسبة 80 % من حجم الإنفاق العالمي بقيمة 1,7 تريليون دولار. وأن أربع دول تجاوز إنفاقها مائة مليار دولار في العام. وكان إجمالي الإنفاق على البحث العلمي، والنسبة المئوية من الدخل القومي لأكثر من عشر دول هو الآتي:

الدولة	الأنفاق(مليار $)/النسبة المئوية من الدخل القومي	الدولة	الأنفاق(مليار $)/النسبة المئوية من الدخل القومي
أمريكا	476.46/ 2.79%	فرنسا	60.78 /2.97%
الصين	370.59/ -	الهند	48.06 /
اليابان	170.15/ 3.29%	المملكة المتحدة	44.16 /
ألمانيا	109.80/ 2.93%	البرازيل	42.12 /
كوريا الجنوبية	73.19 / 4.23%	روسيا	39.83 /

أما ما تنفقه الدول العربية على البحث العلمي نسبة الى الدخل القومي، فإنه يدعو الى الاستغراب، ويدل على عدم إدراج البحث العلمي ضمن الأوليات العلمية. وكانت نسب الإنفاق متدنية، وكما موضح في الجدول أدناه:

الدولة	الأنفاق%	السنة	الدولة	الأنفاق%	السنة
الأمارات	1.28	2018	فلسطين	0.49	2013
السعودية	0.82	2013	السودان	0.30	2005
مصر	0.72	2018	عمان	0.22	2018
المغرب	0.71	2010	البحرين	0.10	2014
الأردن	0.71	2016	الكويت	0.06	2018
تونس	0.60	2018	العراق	0.04	2018
الجزائر	0.54	2017	سوريا	0.02	2015
قطر	0.51	2018	موريتانيا	0.01	2018

هل نكتفي فقط بنقل التقنية دون البحث العلمي؟

الجواب بسيط وهو لا، لان الاكتفاء بنقل التقنية فقط يؤدي الى الاستمرار في الاعتماد على الغير، ويتطلب هذا صرف المزيد من الاموال على استقدام هذه التقنية، ما يحرم القطاعات العلمية من العمل الدؤوب لحل المشاكل باستعمال طريقة البحث العلمي، وبالتالي عدم التقدم بالشكل المطلوب لان كثيرا من التقنيات لا تتطابق مع ما نحتاجه، لأنها مصممة لبيئة اجتماعية ذات خصائص معينة وهي مكلفة للغاية، ولا يمكن ان تحقق

العائدية الاستثمارية المأمولة، حيث لم يحقق نقل التقانة والمعرفة والنهضة العلمية والتكنولوجية المطلوبة في الوطن العربي. لقد استثمرت الدول العربية أكثر من 2200 مليار دولار بين عامي 1980 – 1997 في بناء المصانع والبنية التحتية، غير ان معدل الناتج المحلي الاجمالي للفرد قد انخفض بالفعل خلال تلك الفترة. ان هذا المبلغ المستثمر لم يؤد الى انتقال حقيقي للتقانة، لان ما جرى نقله هو وسائل الانتاج لا التقانة ذاتها.

تجربة البلدان العربية في نقل التقانة والمعرفة وتوطينها

تتسم البلدان العربية بمشتركات عديدة تعيق البحث العلمي ومنها:

1 - غياب وجود نظم فعالة للابتكار ولإنتاج المعرفة في البلدان العربية.

2 - غياب السياسات التي تضمن تأهيل القيم والاطر المؤسساتية الداعمة لمجتمع المعرفة.

3 - عمق هذه المشكلة والاعتقاد الخاطئ بإمكان بناء مجتمع المعرفة من خلال استيراد نتائج العلم من دون الاستثمار في انتاج المعرفة.

4 - الركون الى تكوين الكوادر العلمية على التعاون مع الجامعات ومراكز البحث في البلدان المتقدمة معرفيا، من دون ايجاد التقاليد العلمية المؤدية الى اكتساب المعرفة عربيا.

5 - غياب الحرية الاكاديمية اللازمة للبحث العلمي.

6 - قلة عدد مراكز البحث العلمي خارج الجامعات، وذلك على عكس ما هو عليه الوضع في الدول المتقدمة.

7 - عدم وجود مؤسسات خاصة تقوم بالتنسيق ما بين مراكز البحوث والجامعات والقطاع الخاص.

نظرة عامة عن البحث العلمي الزراعي في العراق:

اولت الحكومات المتعاقبة في العراق الاهتمام في البحث العلمي الزراعي برغم اختلاف درجاته. فمنذ تأسيس الحكومة العراقية المستقلة في عشرينيات القرن الماضي وتأسيس مديرية الزراعة، كان هناك قسم للبحوث والارشاد يعنى بإدخال الاصناف والتقنيات وكافة الامور الخاصة بتطوير الزراعة. وبعد تأسيس وزارة الزراعة في الخمسينيات تم تشكيل مديريات خاصة بالمحاصيل، تضم اقساما خاصة بالبحوث، ثم تم جمع هذه الاقسام في هيئة واحدة أطلق عليها اسم الهيئة العامة للبحوث الزراعية التطبيقية عام 1979 ثم تغير الاسم عدة مرات ليستقر باسمه الحالي (دائرة البحوث الزراعية).

كما تأسس في العام 1968 مجلس البحث العلمي والذي كان يضم عددا من مراكز البحوث الزراعية، واستمر للعام 1980 حيث صدر به قانون خاص وبامتيازات خاصة، تم بموجبه جمع هذه المراكز بمركز واحد تحت اسم (مركز البحوث الزراعية والموارد المائية) اضافة الى المراكز الاخرى التي اهتمت بالجوانب البحثية الزراعية الاخرى، والغي هذا المجلس عام 1989 ووزعت كوادره على دوائر الدولة المختلفة.

وكان لدائرة البحوث الزراعية في منظمة الطاقة الذرية العراقية دور كبير في اجراء البحوث الزراعية، ولغاية عام 2003 حيث تم نقل نشاط هذه الدائرة حاليا الى وزارة العلوم والتكنولوجيا.

وهنا يجب ان نعرج على الدور الكبير الذي قامت به كليات الزراعة والعلوم والكليات ذات العلاقة في وزارة التعليم العالي في إجراء البحوث الزراعية سواء كانت على المستوى الأكاديمي للدراسات العليا ام التطبيقي بالتعاون مع المؤسسات البحثية الاخرى.

كما ساهمت الوزارات الاخرى مثل وزارة الري (وزارة الموارد المائية حاليا) في القيام بإجراء البحوث والدراسات الخاصة بالمياه والتربة، ووزارة الصناعة والتصنيع العسكري (الملغى) والتجارة التي ساهمت من خلال مؤسساتها ببعض البحوث الخاصة بكل منها.

وفي بداية تسعينيات القرن الماضي تأسس مركز إباء للأبحاث الزراعية والذي اهتم بالبحوث الزراعية النباتية والحيوانية حيث كان يتمتع باستقلال ذاتي ماليا واداريا، وقد دمج هذا المركز في عام 2004 مع وزارة الزراعة.

وفي الوقت الحاضر فان دائرة البحوث الزراعية في وزارة الزراعة تقوم بالمهام الرئيسية للبحث العلمي الزراعي من خلال ثمانية اقسام علمية ومحطات متوزعة في مختلف مناطق العراق. وقد اولت وزارة الزراعة اهمية كبيرة في اعادة اعمار الدائرة وتجهيز مختبراتها بأحدث الاجهزة العلمية المتطورة. وكما ان للدائرة علاقات متطورة ومشاريع مع عدد من المنظمات الدولية والاقليمية والعربية لتطوير القطاع الزراعي وبالتعاون مع الجهات البحثية الزراعية العراقية، اضافة الى المؤسسات البحثية التي استمرت في عملها كما تم ذكره في اعلاه.

التحديات التي تواجه الزراعة في العراق حاليا:

1 - تحقيق الامن الغذائي وسلامة الغذاء.

2 - ادارة الموارد للاستخدام المستدام وخاصة التربة والمياه.

3 - التغير المناخي.

4 - استخدام المصادر الوراثية.

5 - مكافحة الآفات الزراعية المستوطنة والوافدة.

6 - التطوير الريفي.

وحتى نصل إلى التصور الأمثل لتطوير القطاع البحثي الزراعي، نطرح بعض التصورات التي نعتقد انها ترتقي بمستوى البحث العلمي الزراعي:

1. تحديد أولويات البحث واحتياجاته وتنشيط التنسيق المشترك بين المؤسسات ذات الصلة.

2. التعرض لنقاط القوة المتوفرة مثل المؤسسات والقدرات البشرية، حيث أصبح من المسلم به ان العنصر البشري هو المكون الاساسي في اية عمل تنموي، باعتباره المحرك والمصدر الاساسي للتنمية الاقتصادية، هذا بالإضافة الى تنوع المصادر الطبيعية.

3. تفعيل دور المؤسسات الإرشادية والبحوث التطبيقية والمراكز البحثية الزراعية في مجال نقل التكنولوجيا وتطويرها وتطويعها ورفع مستوى التنسيق بينها وبين المؤسسات الوطنية ذات الصلة.

4. يجب النظر إلى البحث العلمي الزراعي كعملية تكاملية ومستمرة من خلال توجيه الأبحاث الأكاديمية والتطبيقية في الجامعات ومراكز البحث التابعة لوزارة الزراعة والوزارات الاخرى وبحسب الاولويات.

5. تشجيع ودعم البحث العلمي عامة والتطبيقي منه خاصة مما يساعد على الابتكار والمقدرة على اثبات الذات. ويكون ذلك

بمحاولة اشراك القطاع الخاص وجذبه للميدان من خلال حل مشاكله من جهة، واضافة موارد مالية جديدة لقطاع البحث العلمي.

6. ضرورة زيادة مخصصات البحث العلمي الزراعي في ميزانية الدولة ودعم الباحثين ماديا ومعنويا مما يؤهلهم للقيام بمهامهم بشكل سليم. وتوفير الظروف الموضوعية للمبدعين والعلماء من خلال اقامة مراكز بحث زراعية لها استقلال اداري ومالي.

7. الحد من هجرة الباحثين داخليا وخارجيا والعمل على اعادة العلماء العراقيين المغتربين.

8. التركيز على إجراء الأبحاث التطبيقية الخاصة بتطوير أساليب الإنتاج وتحسين الأصناف والسلالات واستيعاب الطرق التكنولوجية الحديثة وتوظيفها في خدمة التطور الزراعي والمحافظة على استدامة المصادر الطبيعية.

9. تشجيع القطاع الخاص على الدخول في مجال البحث والتطوير الزراعي من خلال استثمار براءات الاختراع ونتائج البحوث ضمن سياقات يتفق عليها بهدف تطوير الانتاج الزراعي.

10. إنشاء مجلس وطني للبحوث الزراعية يضم كافة المؤسسات والمراكز البحثية التي تقوم بالبحوث الزراعية ومن مختلف الوزارات، ويرتبط بجهة تنفيذية عليا يحكمه قانون خاص متطور اداريا وماليا، يعنى بوضع أولويات للبحث العلمي الزراعي ورفع كفاءة العمل البحثي من خلال المتابعة والتقييم المستمر وإيجاد المصادر التمويلية سواء الاستثمارية المحلية أو الداعمة والمانحة الإقليمية والدولية.

11. اعتماد آلية عمل لضمان نشر نتائج الأبحاث المعتمدة وذات الجدوى للمستفيدين والعمل على وصولها لهم من خلال الإعلام الزراعي والإرشاد. وهنا يجب التركيز على الدور الملقى على عاتق دوائر الإرشاد والبحوث الزراعية بشكل خاص لقربها من صانعي القرار والمستفيدين المباشرين وهم المزارعون والمؤسسات الزراعية الإنتاجية ذات الصلة.

12. تبني فكرة المشاريع او البرامج الوطنية الخاصة بكل محصول استراتيجي، تشترك فيه كافة المؤسسات العلمية والبحثية والارشادية وتخصص له ميزانية خاصة وسقف زمني وهدف محددان.

المصادر:

1- رضوان خليفة عبد الحليم.1984. تأثير البحوث العلمية على تطوير الانتاجية في القطاع الزراعي. دراسة مقدمة من نقابة المهندسين الزراعيين في جمهورية العراق الى المؤتمر الفني الدوري السادس لاتحاد المهندسين الزراعيين العرب.

2- عبد الصاحب العلوان. 2006. مقترحات بشان الاصلاح الاقتصادي وتطوير القطاع الزراعي. دراسة خاصة مقتبسة عبر الانترنيت.

3- محمد حسن شعبان. 2008. البحث العلمي التطبيقي من خلال شراكة راس المال والعقل البشري. المؤتمر الثاني لتخطيط وتطوير التعليم والبحث العلمي في الدول العربية. جامعة الملك فهد.

4- محمود يوسف سعادة. 1987. نقل التكنولوجيا بين الدول العربية. المؤتمر العربي للبحث العلمي والتنمية. وزارة شؤون البحث العلمي. القاهرة.

5- معهد اليونسكو الإحصائي - الإنفاق على البحث والتطوير. 2020. موقع البنك الدولي على الشبكة العنكبوتية.

واسط: عاصمة العراق الزراعية بين الواقع والخيال

المهندس علي العرار
ماجستير هندسة الموارد المائية
الهيأة العامة لمشاريع الري والبزل - وزارة الموارد المائية

مشكلة الدراسة:

يعد القطاع الزراعي من الركائز المهمة للاقتصاد الوطني، والذي يستهلك الجزء الاكبر من الموارد المائية في العراق، فالموارد المائية من جانب والمحددات الزراعية من جانب آخر، يشكلان عائقاً كبيراً يقفان امام تطوير المساحات المزروعة.

فتتلخص مشكلة الدراسة الرئيسة حول فقدان وضياع كميات كبيرة من الاراضي الزراعية الصالحة للزراعة في محافظة واسط، بالرغم من وجود مصادر وموارد مائية فريدة من نوعها، والتي تغطي مساحات واسعة من المحافظة.

فرضية الدراسة

لماذا خُصت واسط دون غيرها من المحافظات العراقية بسلة العراق الغذائية؟ أو عاصمة العراق الزراعية؟

اهداف الدراسة:

تواجه الزراعة والموارد المائية مجموعة من التحديات اهمها تنامي الطلب عليهما وبخطى متسارعة نتيجة الزيادات السكانية السنوية، والهدر الناتج عن سوء ادارة واستخدام المياه وعدم وجود خطط طويلة الامد، لذا فقد أصبحت هذه الموارد من العناصر الاساسية للتنمية الزراعية والتنمية الشاملة، فالدراسة تهدف الى التعرف على امكانات محافظة واسط لزراعة جميع أنواع المحاصيل الشتوية والصيفية وبمستويات أفضل من المحافظات العراقية نتيجة وجود متطلبات متقدمة لإمكانية اقامة المشاريع الزراعية الكبيرة.

المقدمة

يعدّ الموقع الجغرافي من أهم المدلولات الطبيعية في صناعة المقومات البشرية كالمجال الزراعي والصناعي والتجاري، ولا سيما موقع العراق المهم

بالنسبة الى العالم يتوسط مكاناً مهماً مما جعله رقعة خصبة في كل مجالات الحياة، ومحافظة واسط إحدى المحافظات التي تتفرد بموقعها الجغرافي المهم نسبة الى المحافظات الاخرى، بحكم موقعها التجاري الحدودي مع ايران، وتحاذيها العاصمة بغداد من الشمال، فضلا عن كونها منطقة زراعية فريدة لذا كانت نقطة الانطلاق لجميع الدراسات الزراعية في المنطقة، لما لها من صفات تميزها عن المناطق الأخرى فيمثل الموقع الزراعي لمحافظة واسط عنصراً من العناصر الطبيعية المهمة التي تساهم في صياغة خصائص المحافظة، فمن خلاله يمكن استغلال ما أتاحته البيئة من موارد طبيعية لخدمة أبناء العراق عموماً وواسط خصوصاً، والحملة التي وضعتها اللجنة الزراعية في مجلس المحافظة السابق وديوان المحافظة ووزارتي التجارة والزراعة على اعتبار واسط العاصمة الزراعية للعراق، واُطلق عليها "سلة خبز العراق" مما يفترض أن يضفي عليها الدور الإيجابي الذي يؤثر على حياة السكان، ومن الاسباب التي تتفرد بها محافظة واسط في هذا الجانب:

1 - أن عمود نهر دجلة يدخل من شمالها عند قضاء الصويرة ماراً بجميع الوحدات الادارية الواقعة شمال المحافظة، وينتهي عند شرقها في ناحية شيخ سعد، حيث يعتبر أطول مسافة لعمود النهر يمر داخل محافظة واسط والبالغة تقريباً (345 كم) لاحظ خريطة(1).

2 - يتفرع من مقدم سدة الكوت شط الغراف جنوباً، ماراً بناحية الموفقية وقضاء الحي وناحية البشائر وبطول (86 كم) ضمن التشكيلات الادارية الجنوبية للمحافظة، وكذلك يتفرع نهر الدجيلة والبالغ طوله (46 كم) من مقدم السدة الكوت متجهاً الى ناحية الدجيلة والذي يخدم مشروع الدجيلة والبالغ (250) ألف دونم.

3. تحوي المساحات الاكبر في العراق بعد محافظة بابل من حيث الاراضي المستصلحة والبالغة مساحتها (891) ألف دونم مثل مشروع الدجيلة ومشروع دلمج ومشروع كوت - بتيرة ومشروع المزرعة وهناك مشاريع مستقبلية لأكثر من مليون دونم مثل مشروع أواسط دجلة والبالغة مساحته 500 ألف دونم، وشرق وغرب الغراف بمساحة تقدر 440 ألف دونم.

4 - كلال بدرة والذي يبلغ طوله 30 كم ونهر الجباب والذي يبلغ طوله 45 كم، حيث ينبعان من الاراضي الايرانية أثناء الموسم الشتوي وبالأخص في موسم الفيضانات والسيول فالأول يخترق قضاء بدرة، والثاني يصب في ناحية شيخ سعد والذي بدوره يتفرع الى ثمانية فروع.

5 - يبلغ عدد الابار الجوفية (182) بئراً منها (105) للقطاع الحكومي و(77) للقطاع الخاص، وجميع الابار داخلة للخدمة[1].

6 - إمكانية أن يزرع الفلاحون جميع المحاصيل الشتوية والصيفية مثل القطن والذرة والرمان والبرتقال والطماطم، فضلاً عن المحاصيل الرئيسة مثل الحنطة والشعير والرز.

حدود الدراسة

تبلغ مساحة واسط (17153) كم2 [2]، أي ما يقارب (6،861،200) دونم، وهي تشكل بذلك نسبة (4)% من المساحة الكلية للعراق، ويبلغ مجموع المساحة الصالحة للزراعة في المحافظة (1،936،225) دونما، منها: (472،706) دوانم أراضٍ مستصلحة، و(317،916) دونما شبه مستصلحة و(1،145،603) دوانم غير مستصلحة. أما المساحة غير الصالحة للزراعة فهي بحدود مليون دونم من المساحة الكلية للمحافظة، معظمها خرجت عن الخدمة بسبب تحولها الى عشوائيات ومدن وقرى ضمن الحدود الإدارية للبلديات؛ حيث أن محافظة واسط من المناطق الزراعية المهمة للتجمعات السكانية كونها تتميز بزراعة عدة محاصيل صيفية وشتوية، فضلاً عن أنها تمثل حلقة الوصل بين العاصمة والمحافظات الجنوبية. ولمعرفة مدى التحديات التي تواجه زراعة المحاصيل الحقلية في ضوء الأحداث التي مر بها العراق بعد عام (2003) ومدى تأثيرها في التوسع بزراعتها في هذه المحافظة كنموذج أو عينة، يمكن تعميمها في ما بعد على الواقع الحالي في العراق قاطبةً مع مراعاة الاختلافات وخصوصية كل محافظة[3].

هوية واسط الزراعية

يعد النشاط الزراعي من الانشطة الرائدة في السوق العالمي والتي يمارسها أغلب سكان دول العالم والعراق جزء

من المنظومة العالمية الزراعية، كون هذا النشاط يمثل نسبة 20% من الناتج المحلي (قبل 2003)، وبعد التدهور الحاصل في العراق نتيجة الاعتماد الكلي على النفط وسوء الإدارة العليا للبلاد اصبحت هذه القيمة لا تغطي السوق المحلي، واعتمد عدد من التجار المحللين على البضائع المستورة من الدول المجاورة وغيرها في تغطية حاجة السوق، حيث أن محافظة واسط تصدرت بالإنتاجية الزراعية المراتب الأولى نسبة الى المحافظات العراقية، وعلى مدى سنوات متراكمة بعد سقوط النظام البائد، حيث بلغت انتاجية محافظة واسط من محصول الحنطة في السنوات 2019 و2020 و2021 هي 515 ألفا، 811 ألفا و800 ألف على التوالي.

يُعد عام 2019 من السنوات المميزة زراعياً، حيث بلغ فيه الناتج المحلي الزراعي الكلي لمحصول الحنطة في عموم العراق للموسم الشتوي 2019 حوالي (4.3) مليون طن، وبارتفاع قدرت نسبته (5%) عن إنتاج السنة الماضية، حيثُ كانت محافظة واسط من المراكز الأولى من حيث الإنتاج، وقدر إنتاجها (515) ألف طن بنسبة (11.9%) من مجموع الإنتاج.

وسجلت الاحصاءات للموسم الشتوي للعام 2020 ارتفاعا قدرت نسبته بـ(6.4%) عن إنتاج سنة 2019، فكان إنتاج الحنطة (6.2) مليون طن، فاحتلت محافظة نينوى المركز الأول من حيث الإنتاج والذي قدر (1.47) مليون طن وبنسبة (22.7%) من مجموع الإنتاج، تليها محافظة واسط والتي قدر إنتاجها (811) ألف طن وبنسبة 13% من مجموع الانتاج الكلي، وحققت محافظة واسط المركز الاول في عام 2021 حيث بلغ الانتاج (800) الف طن تليها الديوانية بإنتاج بلغ (510) الاف طن من أصل (4.2) مليون طن في عموم العراق، ويبلغ مجموع الاكتفاء الذاتي من الحنطة بحدود (5) مليون طن سنوياً، وتعد زراعة الحنطة الأكثر أهمية في العالم مع ازدياد الطلب عليها عالمياً ما ارتفعت اسعارها منذ 2013.

وقدرت إنتاجية 2019 و2020 في محافظة واسط لكل ما يلي وعلى التوالي: 1. محصول الشعير (5،36) ألف طن و(5،31) ألف طن 2. وقدرت إنتاجية محصول الذرة الصفراء (23) ألفا و(48) ألف طن. 3. وقدرت إنتاجية محصول البطاطا الربيعية والخريفية (18) ألف طن و(34) ألفا.

وقدرت إنتاجية العراق الكلية للفاكهة الصيفية (832) ألف طن للموسم الصيفي للعام 2019 وسُجلت الإحصائية في عام 2020 (858) ألف طن، واحتلت واسط مراتب متقدمة في انتاجية زراعة الفاكهة الصيفية والشتوية، فضلاً عن محصول القطن والرز وبنسب متفاوتة على مدار السنوات الماضية[4].

وبلغ معدل الانتاج في الدونم الواحد في عموم العراق بحدود 447 كغم للدونم الواحد وهي نسبة تعتبر متدنية جدا، اذا ما عرف ان معدل الانتاج العالمي للدونم الواحد يبلغ 1200 كغم للدونم الواحد، ويعود هذا التراجع في انتاجية

الاراضي المزروعة الى سوء البذور المستخدمة في الزراعة وعدم استخدام طرق الري بأساليب حديثة وبجداول معينة واستخدام المبيدات الصحيحة والتي من شأنها زيادة الانتاجية، لكن بلغ متوسط الغلة في محافظة واسط لسنة 2020 حوالي (730) كغم للدونم الواحد وبلغت الانتاجية في محافظة الموصل (106) كغم للدونم الواحد فقط، ولو تم الاستثمار بشكل صحيح في زراعة الحنطة وبلغ معدل الانتاج (800) كغم للدونم في عموم العراق لأمكن تحقيق ضعف الانتاج الحالي، وكلما زادت الغلة للدونم الواحد يتضاعف الانتاج المحلي، كذلك لو تم استغلال الاراضي الشاسعة الموجودة في مختلف انحاء العراق وخصوصا في محافظة الانبار التي لم تتجاوز مساحة الارض المزروعة حاجز (300) الف دونم واستخدام الاساليب الحديثة للري واستصلاح الاراضي لتجاوز الانتاج حاجز 15 مليون طن سنوياً[5].

وهذا يشير الى أن البيئة الزراعية في واسط قادرة على انتاج كافة المحاصيل الشتوية والصيفية وبكميات كبيرة، فضلا عن امكانية انتاج الفاكهة (وبالأخص الرمان) لكن الخطط السنوية لوزارتي الزراعة والموارد المائية لم يُراعيا المساحات الخصبة والشاسعة والمستصلحة في محافظة واسط، بالإضافة للقرارات الفردية والمجحفة بحق الزراعة، وعدم مراعاة هذا النموذج الفريد وتقاسم الضرر. وإن هذه المعاناة خصت محافظة واسط بالدرجة الأساس كونها من المناطق المتميزة زراعياً بحكم بموقعها الزراعي وما تحتويه من مصادر مائية متعددة.

مشروع الدجيلة انموذجاً

فضلاً عن إنتاجية الزراعة في محافظة واسط كان لهذه البيئة الحيوية دور استراتيجي كبير قُدر من قبل الأنظمة السابقة، حيث يُعد مشروع الدجيلة من أهم المشاريع التنموية الاستراتيجية في محافظة العراق، والذي يقع في ناحية واسط، التي تبعد 29 كم عن مركز الكوت. بدأ العمل به في سبعينيات القرن الماضي، وكان المخطط له عبارة عن (4) محطات أبقار بواقع كل محطة (5000) بقرة، ومعمل ألبان، واسالة ماء، ومعمل تعليب للحوم، و(100) ألف دونم استصلاح متكامل، وجزء آخر استصلاح جزئي من اصل ربع مليون دونم صالح للزراعة، لكن بعد اندلاع حرب 1980 نُفذ فقط الاستصلاح ومحطتا أبقار. كان عدد الطاقم من الاداريين والفنيين والمحلبين الاجانب الذين عملوا في المحطتين حوالي (4000) موظف. وكانت إنتاجية الحليب (40) ألف لتر/ يومياً يصدر الى معمل ألبان ابو غريب لعدم إنشاء المعمل المزمع انشاؤه في الموقع ذاته. وبعد حصار 1991 جرى العمل بسياسة النفط مقابل الغذاء، وقد منحت الاردن نسبة شراكة 12% من محطتي الابقار. وفي عام 1996 بدأ العد التنازلي بالإنتاجية، فقلصت الاراضي الى ٣٦ الف دونم

للزراعة، ومنحت لأحد المستثمرين المحليين، فكان نصيب الدولة 36% للدونم الواحد، بسبب انقطاع الماء والكهرباء وانتشار مرض السل، مما اهملت الاراضي المستصلحة وتكسرت منظومات الري الحديثة. وبعد السقوط (2003) اعلنت الشركة افلاسها نهائياً، ولم تستطع الدولة اعلانها للاستثمار مرة ثانية لعدة أسباب منها 1-- وجود تجاوزات كبيرة من قبل الاهالي ما ادت عملية اخلائهم الى قتل أحد موظفي الشركة من قبل المتجاوزين 2-- ابتزاز المستثمر الاردني من قبل بعض أعضاء مجلس المحافظة 3-- بقى الأمر معلقاً حتى انهت وزارة الصناعة عقدها مع الزراعة بسبب الجانب الاردني وعدم وجود صيغ تعاقدية رصينة، تضمن حقوق جميع اطراف المشروع واستغلال الارض من قبل الأهالي، حيث انهم يرفضون الاخلاء ويمتنعون عن تسديد ما بذمتهم.

ويعد هذا النموذج تمثيلاً مصغراً عن طبيعة امكانية العمل في تربة واراضي واسط الصالحة للاستصلاح والاستثمار الزراعي والصناعي والتجاري في آن واحد، فضلاً عن أن هناك أراضي تنتج أكثر من (1200) كغم لمحصول الحنطة في شمال واسط كونها اراضي عالية الخصوبة ومتعددة المصادر الاروائية، بينما اراضي شمال الناصرية مثلاً لا يتجاوز متوسط الغلة فيما (500) كغم للدونم الواحد. ويعد هذا المؤشر مهماً حول أهمية محافظة واسط الزراعية وطبيعتها الارضية.

المعوقات والاستنتاجات

الوضع الحالي في العراق وبالأخص محافظة واسط – كون ثلث مساحتها الكلية صالحة للزراعة - يتطلب من المراجع العليا لإدارة المياه والزراعة في العراق الانتباه لخطورتها والاسراع في دراسة الوضع بنحو علمي دقيق وتحديد الاسباب التي أدت الى ذلك، فالزكام الذي انتشرت عدواه في عموم العراق، كان جزءاً بسيطاً منه خارج الارادة والآخر نتيجة الآفة التي اصابت البلد من فساد وإهمال وتدهور وفوضى. فهناك أسباب عديدة ومنها:

- الاقتصاد العراقي الريعي والذي جعل النفط مصدراً وحيداً للثروة واهمال القطاعات الاخرى.

- افتقار المفاوض العراقي الى أبسط أدواته التفاوضية بخصوص الاتفاقيات المائية وتامين حصتي نهري الفرات ودجلة وروافدهما مع الجانبين التركي والايراني.

- شح المياه والتصحر وتملح الاراضي الزراعية وارتفاع المياه الجوفية لعدم استصلاح الاراضي وافتقارها الى منظومات الري والبزل الحديثة، اضافة الى عدم تطوير الممكنة الزراعية والآلات الحديثة واعتماد الفلاح على الري السيحي ذي الكفاءة المتدنية والتي لا تتجاوز 40 - 50%. بينما هناك طرق حديثة مثل الري بالتنقيط والري بالمرشات وهي طرق ناجحة وتعطي كفاءة عالية تصل الى 90%. وتعد الاخيرة من الطرق الجيدة لترشيد المياه على نحو الاستخدام الامثل لاحظ صورة (2).

صورة (٢) كفاءة طرق الري

- عدم توفير الأسمدة الكيماوية الحديثة من قبل الدولة للفلاح، ما أدى الى عودة ظاهرة احتكار البذور المدعومة من قبل الدولة والمستلزمات الزراعية.

- التمييز الذي تمارسه وزارتا الزارعة والموارد المائية بين فلاح وآخر، حيث رصد في محافظة واسط نهاية العام السابق حوالي (484) مضخة متجاوزة على عمودي دجلة والغراف وبقدرة 15 ألف/ حصان من أصل قدرة 155 ألف/ حصان(6) أغلبهم متنفذون في الاحزاب والمليشيات.

- تذبذب أسعار المحاصيل الزراعية ومنها محصول الحنطة سبب عدم سيطرة الدولة على اسعار التجار في الاسواق المحلية.

- انقطاع التيار الكهربائي باستمرار وصعوبة تشغيل المضخات كذلك صعوبة نقل زيت الغاز بسبب سوء منظومة الطرق ووعورتها في المناطق الريفية. والتصق بهذه الحالة عدم تمكين الفلاحين أثناء موسم الحصاد من توريد محاصيلهم بسهولة ما أدى الى فتح الافاق امام ضعاف النفوس والذين يدعون انهم (تجار محليون)، فهؤلاء يقومون بشراء محصول الحنطة بسعر (400) ألف دينار، بينما يتم تسويقه بسعر الدولة الرسمي، والذي يتجاوز 560 ألفا، ويقف خلف هؤلاء جهات حزبية معروفة.

- ضعف ثقة الفلاح بالدولة، وذلك بسبب تقليص الخطة المائية وتقليل المساحات السنوية المزروعة، وهذا ما اعلنت عنه وزارة الموارد المائية والزراعة للموسم الشتوي 2021 - 2022 الى تحجيم الزراعة بعموم العراق حوالي 50%، فضلاً عن امتناع ما يقارب 30% من المزارعين عن زراعة أراضيهم في هذا الموسم، بسبب ندرة المياه التي حذرت

منها الدولة وعدم صرف مستحقات الفلاحين في جميع محافظات العراق، برغم تضمينها في النفقات بالموازنة المالية للعام 2021.

- فتح الباب أما سمسرة بيع القطع الزراعية وتوزيعها على شكل عشوائيات وخواصر متناثرة، نتيجة لأزمة السكن التي عصفت بالبلاد بعد 2003 مع غياب الرقابة الحكومية وعدم اتخاذ أية اجراءات رادعة لمنع ذلك، كون القوانين القديمة لا تتماشى مع الواقع الحالي، ما شاع الظن لدى الفلاحين أن الارض مملوكة "هبة" وليس مستأجرة، بالأخص قوانين الملكية وما يخص عقد 25 وعقد 117 وعقد 35.

- عدم الاهتمام بالفلاحين والمزارعين عن طريق تقديم الورش التوعوية والممارسات الحديثة التي واكبت التطور الزراعي الكبير الذي شهده عالمنا العربي والعالمي، وتخلف الجمعيات الفلاحية عن دورها الحيوي وعدم شيوع ثقافة الاستعانة بالفنيين والمهندسين الزراعيين في تقديم الاستشارة الفنية والمعونة التخصصية في المجال الزراعي.

المعالجات والتوصيات

تبدأ مقومات العلاج من حل المشكلات حلاً جذرياً وليس حلولا ترقيعية كما يلاحظ ومنها:

- بناء الثقة مع الفلاح والتزام الحكومة بوعودها، سيما في إطلاق مستحقات الفلاحين والتشديد على اجراءات حماية المنتج المحلي الزراعي وفق الروزنامة الزراعية، مع تفعيل صندوق الاقراض الزراعي الميسّر، واحداث تعديلات في المصرف الزراعي التعاوني.

- حل مشكلة المياه وندرتها بطريقتين الأولى: حل جميع المشكلات المتعلقة بمصادر المياه مع دول الجوار عن طريق الاتفاقيات أو المواثيق الدولية والأمم المتحدة مع ايران وتركيا وسوريا. والثانية: ترشيد هدر المياه وتقليل الاعتماد على مصادر الري السطحية واستخدام طرق الري الحديثة بمنظومات الري بالرش أو التنقيط وبأسعار مدعومة من قبل وزارة الزراعة.

- الاستفادة من المياه الجوفية ومياه المصب العام والمبازل الاخرى ومعالجة ملوحتها، كون مياه المبازل بلغت ملوحتها أقل بكثير من المياه الجوفية في السهل الرسوبي، وهذا يعني أن واقع المبازل منعزل عن الاراضي المستصلحة.

- بناء السدود المهمة مثل سد بخمة وبادوش ومكحول لزيادة الحزين المائي والسنوي في العراق.

- وضع خطط استراتيجية شاملة بالاتفاق مع شركات استشارية عالمية رصينة لدراسة الواقع الزراعي في العراق، مع المعالجات والحلول والخطط لـ 25 سنة قادمة على اقل تقدير، وانشاء مركز لتطبيق الخطة من قبل وزارة التخطيط والزراعة والموارد المائية والمحافظات ومدى تطابقها مع الخطة الاستراتيجية المعدّة سابقاً في وزارة الموارد المائية وأمدها لغاية 2035.

- تكليف الشركة الاستشارية أو مركز الدراسات والتصاميم التابع لوزارة الموارد المائية بإعداد مسح ميداني شامل

لجميع الأراضي الزراعية لتحديد المناطق الصالحة وغير الصالحة للزراعة واعداد تصاميم نموذجية وحديثة لاستصلاح الاراضي.

- استثمار الاراضي الزراعية غير المستغلة من قبل اهاليها وباقي الاراضي "البور" ومنحها بعقود الى شركات متعمدة لاستصلاحها وزراعتها وفق خطة تنموية شاملة لما يغطي الكفاية للسوق المحلي والتصدير مثل (مزرعة فدك للنخيل) والمنفذ من قبل العتبة الحسينية في القطاع الزراعي، وتعد من المشاريع الاستراتيجية المهمة في العراق، والتي تقع على بعد (20) كم من مركز المدينة في كربلاء المقدسة (الجهة الغربية)، وتم افتتاحها في عام 2016، وبمساحة (2000) دونم فقط، حيث تستوعب المزرعة (70) الف نخلة، وتمت زراعة أكثر من (30) ألف نخلة لغاية الآن، وتحتوي على (70) صنفا من أجود اجناس التمور العربية، ووصلت إعداد الفسائل إلى أكثر من (10) للأم الواحدة، حيث تم حفر (10) آبار ارتوازية بعمق (300 - 400) متر، وخزن المياه في احواض كبيرة تحتوي المزرعة على (5) بحيرات بسعة (20،000) متر مكعب للبحيرة الواحدة، وتعتمد المزرعة على منظومة كاملة للري بالتنقيط ذي الكفاءة ٩٥٪ مقارنة بالري التقليدي ذي الكفاءة 45٪ ، ومعمل لتعليب التمور ومخازن مبردة قيد الانجاز وتم اطلاق علامتها التجارية الجديدة في 2021، حيث أن الخطة الفعلية الموضوعة للمزرعة بواقع (70) ألف نخلة، وعدد الطاقم الإداري والمهندسين والعمال (90) موظفاً وعند اتمام المشروع قد يصل عدد العاملين المتوقع أكثر من (500) موظف، حيث أنها ستساهم بقفزة كبيرة في الاقتصاد الزراعي في انتاج أجود التمور.

- تطوير المكننة الزراعية الحديثة واجبار الفلاح على استخدامها لضمان جودة المحاصيل وزيادة كمياتها.

- دعم الخريجين الجدد؛ خريجو كليات الزراعة والطب البيطري والمعاهد والمدارس الزراعية المهنية لإعطائهم قروضا زراعية بدون فوائد وساحات جاهزة، لزراعة فسائل (نخلة المجهول) التي نجحت نجاحاً باهراً في محافظة كربلاء، كونها تقاوم الظروف المناخية في العراق، كذلك زراعة الثوم والخضراوات المهجنة مثل الباميا البتراء.

- دعم الفلاحين بقروض ميسرة وتقديم الاستشارات المجانية ورفدهم بزيت الغاز وتعبيد الطرق الزراعية وانشاء صوامع أو مخازن لكل مقاطعة زراعية مع احياء دور الجمعيات الفلاحية واعطائهم صلاحيات أوسع بتقديم الورش والندوات الضرورية مع اقصاء المتخلفين عن ارشاداتها.

- فتح معامل تعليب الطماطم وكبس التمور، فتوجد عدة معامل حكومية مغلقة ومعطلة بالكامل مثل معمل المعجون المحلي في محافظة واسط/ قضاء النعمانية والذي كان يعمل فيه أكثر من 250 عاملا وعاملة.

- وضع خطة خمسية مشتركة بين وزارتي الزراعة والموارد المائية أمدها خمس سنوات لحصر الاحتياج الفعلي من

المحاصيل الزراعية وتوجيه الفلاحين للزراعة حسب خطط مدروسة لكل محافظة تخص (المساحات المزروعة + الحصة المائية + نوع المحصول) لعودة ثقة الفلاح بالدولة وكذلك للسيطرة على عشوائية المحاصيل واتلافها، حيث تم اتلاف الاف الاطنان من الطماطم في موسم 2019 لكفاية السوق، وعدم وجود معامل تعليب.

- الاهتمام بالمحاصيل المهمة مثل الحنطة والرز للوصول الى الاكتفاء الذاتي والذي يبلغ حوالي (5) مليون طن.

- الاستفادة من جيوش الموظفين الحاصلين على الشهادات العليا في وزارة التخطيط والموارد المائية والزراعة وانشاء مراكز ابحاث ومجلات نشر متطورة وتثمين جهودهم للحصول على إحصاءات سنوية ودراسات متكاملة حول الزراعة والمياه وما يتعلق بهما بصورة شاملة وتفصيلية ونشرها على المواقع الرسمية لتسهيل عمل الباحثين الاخرين.

المصادر:

(1) مديرية الموارد المائية في محافظة واسط ـ قسم الابار، بيانات غير منشورة لعام 2018.

(2) جمهورية العراق، وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي، الجهاز المركزي للإحصاء وتكنولوجيا المعلومات، مجلس محافظة واسط، استراتيجية تنمية محافظة واسط (2007 - 2012)، 2007، ص14.

(3) العتابي، كوثر ناصر عباس، التباين المكاني لاستعمالات الأرض بزراعة المحاصيل الحقلية في محافظة واسط، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 2012.

(4) جمهورية العراق، وزارة التخطيط – جهاز المركزي للإحصاء – مديرية الاحصاء الزراعي، بيانات منشورة في آب 2020.

(5) منار العبيدي، مدير مؤسسة عراق المستقبل للدراسات، بيانات منشورة في 31 كانون الثاني 2022.

مديرية الموارد المائية في محافظة واسط، قسم المضخات، بيانات غير منشورة لعام 2021.

- عبد الكريم ابراهيم، مشاكل الزراعة في العراق، هجرة الفلاحين الثانية الى المدينة، 6 اكتوبر 2012، موقع كتابات.
- ماجد جمعة عبد الحسن الساعدي، أسباب فشل السياسات الزراعية في العراق 15 يونيو 2015، جريدة الزمان.
- هدى حيدر حسين العبيدي، امكانية حصاد المياه في محافظة واسط، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 2014.

الزراعة في محافظة الانبار.. الواقع والطموح

هندي حامد الهيتي
رئيس مهندسين زراعيين اقدم

الموقع ومصادر المياه:

تقع الانبار غرب العراق، وهي أكبر محافظاته من حيث المساحة، حيث تشكل ما يقارب ثلث مساحة العراق. تحدها من الشمال محافظتا صلاح الدين ونينوى، ومن الشرق والجنوب الشرقي بغداد وكربلاء والنجف. بينما تحدها المملكة العربية السعودية من الجنوب. ومن الغرب دولة الاردن ومن الشمال الغربي سوريا. تضم حدودها (الهضبة الغربية) والتي يصل ارتفاعها في اقصى غرب الانبار الى ما يقارب 900م فوق سطح البحر(1).

تمتاز الانبار بتنوع تضاريسها، وهي في الغالب صحاري جرداء او اراضي صخرية وتلال. كما تشق أراضيها الكثير من الوديان التي تصب في مجرى نهر الفرات. وأقيمت العديد من السدود على مجرى نهر الفرات وتفرعاته وكذلك على الوديان الكبيرة، وذلك لخزن وتنظيم حركة الماء بين نهر الفرات والخزانات والفروع. مثل سد حديثة الذي يقع في قضاء حديثة، والذي تصل الطاقة الخزنية لبحيرته الى 8 مليار متر مكعب. وبحيرة الحبانية التي تخزن المياه الفائضة من نهر الفرات عبر ناظم الورار، بسعة خزنية تقدر بحوالي 3 مليار متر مكعب. ويتم تصريف المياه منها الى نهر الفرات مرة اخرى عند الحاجة عبر ناظم سن الذبان القريب من مدينة الحبانية. وهناك أيضا بحيرة الثرثار التي تقع الى شمال محافظة الانبار وهي منخفض مشترك بينها وبين محافظة صلاح الدين، والتي تعتبر أكبر منخفض مائي في العراق حيث تبلغ سعتها الخزنية حوالي 85 مليار متر مكعب. وهي أساسا تخزن مياه نهر دجلة الفائضة عند مدينة سامراء، وقد تم تطوير البحيرة لترتبط مع نهر الفرات وبالامكان تغذية نهري

دجلة والفرات من هذه البحيرة عند الحاجة. وهناك سدود اخرى منتشرة في المحافظة، تستخدم لخزن وتنظيم حركة مياه الانهار والبحيرات والوديان مثل سدة الرمادي، والورار، وسدة الفلوجة، وسدة الثرثار، وهذه السدود تتحكم بتوجيه مياه الفرات الى البحيرات وفروع نهر الفرات، اضافة الى سدود صغيرة تخزن المياه في وادي حوران قرب مدينة الرطبة.

ان نهر الفرات وفرعه الورار وذراع دجلة ونهر الصقلاوية تشكل المصدر الرئيسي لمياه سقي المزروعات في المحافظة. وهي تشكل منظومة لا بأس بها لو استغلت بشكل علمي لأعطت انتاجا زراعيا كبيرا.

لكون الاراضي الزراعية في الكثير من مناطق حوض الفرات مرتفعة عن مستوى النهر (الواقعة بين هيت وعنة)، فقد ابتكر الانسان الانباري القديم آلة الناعور لغرض سقي المحاصيل التي تقوم برفع الماء من النهر الى الاراضي الزراعية المجاورة.

واضافة الى ما ذكر اعلاه تنتشر على ارض المحافظة واحات عديدة أنشئت قرب ينابيع مياه جوفية او ابار قديمة تشتهر بانتاج التمر ومحصولي الحنطة والشعير ومحاصيل العلف وبعض الخضراوات والمحاصيل الاخرى التي يحتاجها سكان تلك الواحات، واهم هذه الواحات واحة كبيسة التي توجد فيها عيون للمياه الجوفية تستخدم لسقي بساتين النخيل وواحة المعمورة قرب هيت وهناك واحات اخرى في عمق الصحراء مثل الرطبة والنخيب والهبارية التي اقيمت قرب ابار جوفية إضافة الى الكثير من الابار المنتشرة في المحافظة، تستخدم للزراعة ولسقي الماشية التي تتواجد في صحراء الانبار الواسعة، وكثير من هذه الابار تم حفرها من قبل الدولة، يسحب الماء منها بواسطة مضخات ديزل نصبت لهذا الغرض.

تختزن محافظة الانبار كمية كبيرة جدا من المياه الجوفية، بالإضافة الى خزين ثابت ''هائل'' الحجم من المياه الجوفية في المكامن الجيولوجية، يحتاج الى دراسات متخصصة لمعرفة مدى صلاحيتها للاستخدام الزراعي. ان استغلال المياه الجوفية في صحراء الانبار ما زال محدودا وعند الشروع باستثماره يجب ان يكون بطريقة علمية مدروسة تحافظ على هذا الخزين من العبث والهدر باشراف دوائر الموارد المائية ودوائر الزراعة في المحافظة، لان التبذير بهذه المياه تبذير بثروة وطنية مهمة جدا(2).

أراضي المحافظة:

ان اغلب اراضي محافظة الانبار كما ذكرنا أعلاه، عبارة عن صحراء جرداء بسبب وقوعها ضمن المنطقة الجافة، وبفعل عمليات التعرية الريحية والمائية التي تحدث في هذه المناطق.

ورغم ذلك نجد مساحات في تلك الصحراء تضم تربا صالحة للزراعة في اماكن ضيقة تسمى الفيضات. وهي عبارة عن اراضي منخفضة تتجمع فيها الاطيان على اعماق قد تصل الى نصف متر وأكثر قليلا، نتيجة لانجراف التربة بواسطة الرياح ومياه الامطار من المناطق القريبة المرتفعة نسبيا لتترسب في هذه المنخفضات. وعلى الرغم من ان التربة الصحراوية تتميز بقلة المادة العضوية او انعدامها نتيجة تحللها بواسطة الحرارة التي تصل في بعض الفصول الى أكثر من 50 درجة مئوية صيفا، لكن قد تتوفر في الفيضات نسب محدودة من المادة العضوية المتكونة من تحلل الاعشاب التي تنبت فيها بكثافة.

على العموم لا تجد الأراضي الصحراوية مصادر المياه الكافية، وهي ان توافرت لا تكفي للاستخدام الزراعي الثابت والكثيف. والمساحات التي تستخدم فيها الزراعة الديمية بالاعتماد على مواسم الامطار، هي الاخرى غير مضمونة بسبب الموقع الجغرافي للمحافظة، ومناخها الذي يمكن وصفه بانه مناخ صحراوي جاف حيث تتراوح كمية الامطار السنوية بين99.5 ملم في النخيب و147 في حديثة، مع ملاحظة ان القيمة المطرية قليلة الى حد كبير(3).

عموما، تتواجد الاراضي الصالحة للزراعة في المحافظة في شريط ضيق، يمتد بمحاذاة ضفتي نهر الفرات يبدأ من مدينة القائم وحتى مدينة هيت والتي عندها يبدأ السهل الرسوبي ممتدا الى الشرق وجنوب المحافظة ثم الى بقية المحافظات العراقية. حيث تتوسع مساحات الاراضي الصالحة للزراعة لتمتد الى عشرات الكيلومترات بعيدا عن النهر. تتميز تربة المحافظة في هاتين المنطقتين (الاراضي القريبة من النهر وفي السهل الممتد من هيت الى جنوب المحافظة) بخصوبتها نتيجة لطمرها بمياه النهر اثناء الفيضان في الاعوام التي يفيض فيه نهر الفرات رغم انحسار هذه الظاهرة بعد انشاء السدود المائية.

وقد اشارت اخر احصائيات مديرية زراعة الانبار لعام 2021 الى وجود 5.763.549 دونم صالحة للزراعة في عموم المحافظة. بينما هناك 6.423.105 دونم غير صالحة للزراعة. علما ان نفس الإحصائية اشارت الى ان مساحة المحافظة الكلية 55.878.800 دونم. وللمزيد حول المساحات الصالحة وغير الصالحة للأراضي الزراعية في المحافظة لعام 2021 موزعة حسب الشعب الزراعية الاثنتين والعشرين. لاحظ الجدول رقم (1) في ادناه(4).

ت	الشعبة الزراعية	المساحة الصالحة للزراعة/ دونم	المساحة غير الصالحة للزراعة/ دونم
(1)	الفرات	16922	3000
(2)	الخيرات	60000	10000
(3)	عامرية الصمود	271845	554771
(4)	عنة	350155	761225
(5)	الرمادي	350000	55000
(6)	القائم	250452	30632
(7)	الكرمة	116000	36000
(8)	راوه	150000	500000
(9)	هيت	285300	1276691
(10)	حديثة	12560	39341
(11)	الصقلاوية	117000	23000
(12)	الرطبة	117000	50000
(13)	الرماتة	350000	150000
(14)	الفلوجة	254000	558000
(15)	البغدادي	69000	1181000
(16)	النخيب	2500000	600000
(17)	الشامية	120000	30000
(18)	المحمدي	4815	14445
(19)	جزيرة الرمادي	150000	170000
(20)	جزيرة الكرمة	125000	160000
(21)	الحقلانية	60000	200000
(22)	الخالدية	33500	20000
المجمـــــــــــوع		5763549	6423105

الجدول رقم (1)

وحسب مؤشرات الخطط الزراعية للمواسم الشتوية يظهر ان هناك توسعا في استغلال الاراضي منذ عام 2000 ولغاية عام 2020 كما يوضح الجدول رقم (2)(5).

السنة	2000	2005	2010	2015	2020
مؤشرات خطة الموسم الشتوي (بالدونم)	187609	341940	422476	لا توجد احصائيات	699033

الجدول رقم (2)

الزراعة:

الحنطة والشعير

تعد الحنطة والشعير من أقدم المحاصيل التي زرعها الانسان في محافظة الانبار. فهذان المحصولان مع بعض المحاصيل الاخرى التي يحتاجها في غذائه او كمواد علفية لحيواناته التي تعلم تدجينها وتربيتها. وبالإضافة الى استخدامه الزراعة المروية لزراعة الحنطة والشعير في الاراضي التي تقع قرب مصادر المياه، فإنه استخدم أيضا الزراعة الديمية. ولكن بسبب الموقع الجغرافي للمنطقة وشحة الامطار، فان انتاج الحنطة والشعير بالزراعة الديمية كان متذبذباً.

ومع زيادة عدد السكان والحاجة الى الغذاء، توسعت الاراضي المزروعة بالحنطة والشعير في المحافظة، وازدادت انتاجية الدونم. رغم ان هذه الزيادة غير مستقرة ومتذبذبة بين سنة واخرى لظروف واسباب عديدة أهمها: العامل السياسي وتأثير فترات الحروب والحصار والاحتلال الامريكي بعد 2003 ومن ثم صفحات عدم الاستقرار الامني التي شهدتها المحافظة، اخرها سقوط اغلب المدن بأيدي ما يسمى داعش، وهجرة اغلب السكان، تاركين بساتينهم واراضيهم. والعامل الاخر هو المناخ وتذبذب كمية الامطار المتساقطة، وانخفاض مستوى مياه نهر الفرات، وسوء ادارة الارض وعوامل اخرى سنذكرها لاحقا.

كما ان المساحات المزروعة بمحصول الحنطة قبل 2003 كانت قليلة نتيجة حروب الخليج وتجنيد اغلب الرجال في هذه المعارك، ثم ظروف الحصار الاقتصادي الذي فرض على الشعب العراقي، بعد غزو النظام السابق لدولة الكويت. ويبين الجدول رقم (3) المساحات المزروعة بمحصول الحنطة للفترة من 1990 وحتى 2020(6).

السنـــــــة	1990	1995	2000	2005	2010	2015	2020
المساحة المزروعة بالحنطة (دونم)	176019	134626	134180	222000	273493	لا توجد بيانات	431382
غلة الدونـــــــم (كغم/الدونم)	315	350	334	350	482	لا توجد بيانات	661

الجدول رقم (3)

اما بالنسبة للخطة المرسومة من قبل مديرية الزراعة لزراعة محصولي الحنطة والشعير في المحافظة لعام 2021 - 2022 فيوضحها الجدول رقم (4)(7).

ت	الشعبة الزراعية	الحنطة	الشعير
(1)	الخيرات	32132	1000
(2)	جزيرة الكرمة	50500	0
(3)	الكرمة	52544	1000
(4)	الفلوجة	3869	0
(5)	الصقلاوية	1854	500
(6)	العامرية	65000	4000
(7)	الخالدية	7000	0
(8)	الرمادي	100260	3000
(9)	الجزيرة	150000	3500
(10)	الشامية	37998	0
(11)	الفرات	2000	500
(12)	هيت	1000	500
(13)	المحمدي	1000	500
(14)	البغدادي	2000	500
(15)	حديثة	3006	0
(16)	الحقلانية	4000	0
(17)	عنة	12000	0
(18)	راوة	3545	0
(19)	القائم	40000	0
(20)	الرمانة	4000	500
(21)	الرطبة	1950	0
(22)	النخيب	6000	0
المجمـــــــــوع		580658	15500

الجدول رقم (4)

علما ان تقارير الجهاز المركزي للإحصاء تشير الى زراعة 281.034 دونم فقط لعام 2021 في عموم محافظة الانبار، وبإنتاجية (متوسط الغلة) للمساحة المحصودة 769.6 طن/ دونم. حيث ان المساحة المحصودة كانت 263.455 دونم فقط(8). وقد انعكس على كمية انتاج الحنطة التي وصلت في عام 2021 حسب ذات الاحصائية الى 202.754 طنا. وهي تشكل ما نسبته 4.8% من انتاج العراق بالنسبة لمحصول الحنطة. مع ملاحظة ان بعض مزارعي محافظة الانبار الذين

تمت مقابلتهم من قبل الكاتب، أكدوا انهم توصلوا الى انتاج 1600 طن من الحنطة للدونم الواحد عام 2021.

على الرغم من هذا المستوى في انتاج محصول الحنطة، والغلة العالية للدونم نسبة للأعوام الماضية: إلا ان اي انتاجية الدونم الواحد ما زالت منخفضة عن مثيلاتها في بعض المحافظات مثل محافظة بابل والتي وصلت الى 891.9، وكربلاء 991. علما ان اعلى غلة للدونم الواحد في محافظة الانبار لم تتجاوز 660.9 طن/ الدونم في عام 2020 حسب الجهاز المركزي للإحصاء، اي بفارق يصل الى حوالي 33%. مع ملاحظة ان هذه الإحصائية، لم تشمل جميع أراضي المحافظة(9).

وهي غلة منخفضة مقارنة بمثيلاتها في دول الجوار، حيث وصلت غلة الدونم عام 2007 في السعودية الى 1405كغم/ دونم، والى 1600 كغم/ دونم في مصر. اما في هولندا فتشير المعلومات الى انتاج 2000كغم / للدونم الواحد، كما موضح بالجدول رقم (5)(10).

أما بالنسبة لمحصول الشعير فإن تقارير الجهاز المركزي للإحصاء لعام 2021 تشير الى زراعة 17.049 دونم فقط لعام 2021 في عموم محافظة الانبار، وبإنتاجية (متوسط الغلة) للمساحة المحصودة 516.8 طن/ دونم؛ حيث ان المساحة المحصودة كانت 263.455 دونما فقط. وقد انعكس هذا أيضا على كمية انتاج الشعير التي وصلت في عام 2021 حسب ذات الاحصائية الى 6.988 طنا. وهي تشكل ما نسبته 2.6 % من انتاج العراق بالنسبة لمحصول الحنطة.

ان الاحصائيات السابقة تؤشر على الرغم من قلة عددهم ومحدودية المساحات المزروعة، امكانية زيادة غلة الدونم الواحد، إذا ما اتخذت بعض الاجراءات من قبل الدوائر الحكومية والمزارعين والفلاحين الاخرين. ومن بينها:

- استخدام بذور مطورة وراثيا لها القدرة على انتاج غلة عالية أكثر من الأصناف الحالية المستخدمة من قبل اغلب الفلاحين. وهذا يفرض على وزارة

الدولة	الإنتاجية (متوسط غلة الدونم)	الإنتاج (ألف طن)
العراق	351	2024
السعودية	1405	5620
سورية	606	4041
مصر	1618	7375
السودان	645	803

الجدول رقم (5)

الزراعة ان تجد الاسلوب الامثل في توفير الاصناف ذات الانتاجية العالية وإلزام المزارعين باستخدام تلك الاصناف عن طريق التوعية والدعم المالي وتوفير هذه البذور باسعار مقاربة للأصناف المحلية المستخدمة حاليا.

• استخدام المكننة الزراعية في عمليات الحراثة والبذار والحصاد.

• استخدام طرق ري حديثة والابتعاد عن الري السيحي الذي له الاثر السلبي على التربة وعلى نمو المحاصيل.

• حفر الابار في المناطق التي تنتشر فيها الزراعة الديمية لغرض تعويض نقص مياه الامطار في مواسم الجفاف.

• اتباع دورات زراعية تمكن التربة من الحفاظ على خصوبتها وانتاجيتها.

• توفير الاسمدة المناسبة واستخدامها حسب حاجة المحصول والتربة. وهذا يتطلب من وزارة الزراعة ومديرية زراعة الانبار والشعب التابعة لها توفير وايصال الاسمدة الى الحقول وبالاوقات المناسبة وبطرق سهلة وباسعار مدعومة ومتابعة استخدامها من قبل مهندسين مختصين بالارشاد والتربة والمحاصيل الزراعية.

• اتباع مواقيت زراعية علمية في البذار والري واعطاء السماد لما لها من اهمية كبيرة في زيادة انتاج النبات.

• مكافحة الامراض والادغال وتوفير الادوية والاليات والمختصين لهذه الاعمال من قبل الدوائر الزراعية.

• إلزام وزارة التجارة بشراء محصولي الحنطة والشعير من الفلاحين بأسعار مجزية ومعلنة مسبقا قبل موسم الزراعة وتوفير فرص الاقتراض من المصارف الزراعية للراغبين في شراء البذور المحسنة والاسمدة والمكننة الزراعية ومنظومات الري الحديثة.

النخيل

بالإضافة الى محصولي الحنطة والشعير اشتهرت المحافظة بانتشار زراعة نخيل التمر منذ القدم. حيث تنتج المحافظة اصنافا عديدة من التمر اهمها الزهدي والخستاوي والاشرصي. وقد تميزت المحافظة بانتاج اصناف من التمور غير متوفرة في بقية المحافظات اهمها صنف "الخيارة"، الذي عرف اول مرة في قضاء هيت ثم انتشر الى مدن اخرى من المحافظة. وهو صنف يتميز بكبر حجم التمرة وطعمها المميز وقابليتها على الخزن.

ونتيجة لتجريف البساتين الخاصة، التي تقع بالقرب من المدن، فقد تعرضت بساتين النخيل الى خراب ودمار كبيرين. وذلك بسبب النمو السكاني، وتمدد المدن باتجاه البساتين، وظهور ما يعرف بالطابو الزراعي الذي يعني توزيع الاراضي الزراعية الى قطع صغيرة لبناء المساكن. رغم ان اغلب مدن المحافظة لها حدود مع الصحراء ويمكن لدوائر البلدية التوسع باتجاه الصحراء والحفاظ على تلك البساتين من الدمار والزوال.

في ادناه الجدول رقم (6)، يوضح اصناف التمر المنتشرة في محافظة الانبار واعدادها واصنافها لعام 2020(11):

الصنف	عدد النخيل	متوسط الإنتاجية (كغم/نخلة)		الإنتاج (طن)
		المنتجة فعلا	في مرحلة الانتاج	
زهدي	977.886	58.2	56.7	27.772
خستاوي	136.626	60.7	60.7	6.996
سايـــر	606	50.0	50.0	23
خضراوي	17.949	63.7	63.7	486
أنواع أخرى	22.969	66.4	66.4	1.147
مجموع الاناث	1.156.036	59.0	57.8	36.424
مجموع الذكور	18.042			
المجموع النخيل	1.174.078			

جدول رقم (6)

علما ان مجموع النخيل في المحافظة لعام 2006 كان 655.639 نخلة، وإنتاج 38.849 ومتوسط إنتاجية بلغ 65.0 كغم/ نخلة(12). اما عام 2014 فكان 691.810 نخلة، ومجموع انتاج التمور للعام ذاته كان 44.961 طنا بمعدل انتاج 84 كغم/ نخلة.

ان قراءة سريعة وعامة لهذه الارقام قد تدلل على ان عام 2006 برغم عدد نخيله الاقل ومتوسط انتاجيته الأدنى، الا انه قدم انتاجا اعلى من عام 2020. وكذلك الحال بالنسبة لعام 2014 ذو متوسط الإنتاج العالي، هو أكثر غلة مما هو في عام 2020. وقد يكون السبب ان الكثير من النخيل حديث الإنتاج، وبهذا تكون انتاجية النخلة قليلة ونتوقع العودة الى غلة تقارب 80 كغم/ للنخلة في السنوات القادمة بعد ان يكتمل نضوج الاشجار.

ان زيادة اعداد النخيل الى الضعف خلال عشر سنوات يعطي دليلا على امكانية زيادة العدد الى أكثر من عشرة ملايين نخلة خلال العشرة سنوات القادمة، اذا ما تمت زراعة مساحات من المناطق الصحراوية القريبة من المدن، وعلى جانبي طرق المواصلات التي تربط مدن المحافظة ويمكن الاستفادة من تجربة محافظة كربلاء في هذا المجال، او من حزام النخيل المحيط بمدينة هيت من جهة الصحراء، لا سيما ان النخلة لا تحتاج الى تربة خصبة ولا الى ري مستمر.

وكذلك، إن استغلال المناطق الصحراوية القريبة من المدن والواحات بزراعة النخيل سوف يحد من انتشار وتوسع ظاهرة التصحر التي بدأت بالتوسع نتيجة التغير المناخي الذي يشهده العراق والعالم.

محاصيل زراعية اخرى

شهدت محافظة الانبار بعد عقد الستينات والسبعينات من القرن الماضي، تجربة زراعة محاصيل جديدة لأول مرة. وهي محاصيل: البطاطا وفستق الحقل. وقد اثبتت السنوات الماضية نجاح زراعة هذين المحصولين بشكل مشجع، ما جعل المحافظة تتصدر قائمة انتاجهما، حيث تنتشر زراعة البطاطا في منطقة العامرية والفلوجة ومن ثم انتشرت الى باقي مدن المحافظة مثل راوة والقائم. اما محصول فستق الحقل فيزرع في قضاء هيت وناحية البغدادي.

تزرع البطاطا في المحافظة بعروتين، العروة الخريفية وتنتشر زراعتها في منطقة العامرية ويزرع منها بحدود (50) ألف دونم. اما العروة الربيعية فتزرع في عموم المحافظة بواقع (70) ألف دونم. وقد كان انتاج المحافظة من محصول البطاطا لعام 2010 بحدود 38.750 طن وقد ارتفع في عام 2020 الى ما يقارب 125000 وان غلة الدونم وصلت الى 6500 كغم/ دونم(13).

وهناك امكانية كبيرة لزيادة المساحة المزروعة وزيادة غلة الدونم بواسطة الدعم الحكومي وتحقيق وتوفير واتخاذ حزمة اجراءات اهمها:

1. القيام ومن خلال جهة حكومية باستيراد تقاوي البطاطا من مناشئ موثوقة ذات انتاجية عالية وتوزيعها بسعر مدعوم
2. توفير الاسمدة الملائمة والمدعومة وتوزيعها وايصالها الى الفلاح بأقل الاسعار وأسهل السبل.
3. استلام الحاصل من الفلاح لضمان عدم تعرضه للخسارة، نتيجة هبوط الاسعار الى اقل من كلفة الانتاج.
4. توفير المخازن المبردة والسيارات الملائمة.

يعد البصل من المحاصيل القديمة التي تزرع في الانبار، وقد تحول الى محصول تجاري يسد حاجة المحافظة ويسوق الباقي منه الى بقية المحافظات. اضافة الى ما ذكر من محاصيل ستراتيجية تنتشر زراعتها في محافظة الانبار، فان هناك عشرات المحاصيل والفواكه والخضر التي يحتاجها الانسان في استهلاكه اليومي، منتشرة بشكل يسد حاجة السكان المحليين. ويمكن ان يصدر الفائض منها الى المدن والمحافظات المجاورة.

كما انتشرت في الآونة الاخيرة الزراعة المحمية عن طريق البيوت البلاستيكية لتوفير محاصيل الخضر (الطماطم، الخيار، الباذنجان، الشجر) في اوقات غير اوقاتها الطبيعية حيث بلغ عدد البيوت البلاستيكية الموزعة على الفلاحين بحدود (3000) بيت بلاستيكي(14).

لكن بسبب التدمير الذي تعرضت له في فترة سيطرة الجماعات الارهابية على المحافظة وتوقف الكثير منها عن الانتاج وتعرض اصحابها الى خسائر كبيرة، يتطلب من الجهات الحكومية التدخل ووضع الحلول المناسبة من اجل العودة الى الانتاج كما كان، لغرض رفد السوق المحلية والوطنية بما تحتاجه من هذه المحاصيل.

أبرز المعوقات

ما زال القطاع الزراعي في محافظة الانبار يعاني من معوقات كثيرة. لكنها

قابلة للحل، وتجاوزها ليس صعبا ولا مستحيلا. وهذه المعوقات قد تكون عامة تشترك مع كل محافظات القطر واخرى محلية تختص بالمحافظة. هذه المعوقات والمشاكل يمكن ادراجها بما يأتي:

(1) عدم توفر الحصص المائية الكافية لزراعة كل الاراضي الصالحة للزراعة في المحافظة، مما له تأثير سلبي على كمية الانتاج. بالإضافة الى القيود التي تفرضها وزارة الموارد المائية على الفلاحين الراغبين في حفر الابار في المناطق الصحراوية لغرض التحول من الزراعة الديمية المتذبذبة الى الزراعة الاروائية.

(2) ضعف التشريعات الزراعية فيما يخص القوانين والانظمة والتعليمات الخاصة بالقطاع الزراعي وعدم مواكبتها للتطورات العلمية والتقنية والإدارية في العالم.

(3) عدم توفر التقاوي والبذور المحسنة المدعومة من قبل الدولة وان وجدت فانها باسعار مرتفعة، لا يستطيع الفلاح الحصول عليها، مما يقلل من غلة المحصول.

(4) عدم دفع مستحقات الفلاحين في وقتها، ليمكنهم من مواصلة عملهم الزراعي.

(5) شحة الاسمدة والمبيدات وارتفاع اسعارها وصعوبة ايصالها الى حقول الفلاحين.

(6) انخفاض حجم التجهيز بالطاقة الكهربائية والوقود المخصص للقرى والمزارع التي تعتمد على الري باستخدام المضخات.

(7) ضعف التسويق الزراعي وانخفاض اسعار المنتجات الزراعية في مواسم الوفرة مما يعرض الفلاحين لخسائر كبيرة، لا يمكنه معها من معاودة العمل في مواسم لاحقة.

(8) عدم الاهتمام بإنشاء الصناعات التحويلية، لغرض سحب المحاصيل القابلة للتلف السريع في مواسم الوفرة وتحويلها الى منتجات يمكن الاستفادة منها مثل مصانع المعجون قرب مزارع الطماطم. كذلك نشر وتشجيع بعض المهن التحويلية على مستوى الافراد والعوائل مثل صناعة المخللات والطرشي وتعليب وتجفيف محاصيل الباذنجان والبامية، التي يمكن الاحتفاظ بها وتسويقها في مواسم الشحة. وابتكار اساليب تعليب قديمة حديثة للحفاظ على المحاصيل من التلف وعدم اضطرار الفلاح الى بيعها بأسعار غير مجزية.

أفكار ومقترحات لتطوير الواقع الزراعي في محافظة الأنبار

عندما تذكر محافظة الانبار، يتراءى للسامع انها ارض صحراء جرداء، لا نبات فيها ولا حياة، وهي أقرب للربع الخالي. بينما تضم محافظة الانبار اراضي زراعية من أخصب الترب، خاصة تلك القريبة من النهر. وقامت على ارضها مدن وتجمعات سكانية من أقدم التجمعات في العالم (هيت وعنه على سبيل المثال لا الحصر). حيث ابتكرت في هذه التجمعات طرق واساليب العيش واستخدام الارض والماء بالشكل الامثل لآلاف السنين.

صحيح ان اغلب اراضي المحافظة صحراء، لكن هذه الصحراء تضم مساحات زراعية واسعة، يمكن لها ان تنتج نباتات ومحاصيل زراعية كثيرة، إذا ما أحسنت

ادارة العملية الزراعية فيها. مثلا: توفير اصناف تتحمل الجفاف ودرجات الحرارة العالية. وهناك تجارب عديدة اثبتت نجاحها في زراعة الارض الصحراوية وانتجت محاصيل واشجار عديدة. لكن اهملت هذه التجارب، وانتهت لأسباب سياسية واجتماعية. ومن أبرز هذه التجارب، تجربة اقامة الواحات الزراعية على طول الخط السريع الواصل بين بغداد والحدود الاردنية والسورية. كانت هذه ناجحة بكثير من المقاييس. حيث اقيمت واحات بين الرمادي والرطبة، قريبة من الخط السريع، وحفرت الابار، وزرعت الارض بأشجار الزيتون وبعض المحاصيل. لكن الواحات اهملت بسبب الحروب المتكررة والحصار.

كما ان هناك تجارب أخرى، بهدف استغلال الصحراء الغربية لأغراض الزراعة، سواء زراعة الحنطة والشعير او محاصيل العلف او حتى الاشجار التي لها القدرة على النمو في ظروف صحراوية جافة. سواء الاشجار المعروفة والتي تتحمل الجفاف مثل النخيل والزيتون، او اشجار الفستق الحلبي، واثبت نجاحه في مثل هذه الظروف.

بعد عام 2005 - 2008 قامت وزارة الزراعة باقامة واحات على طول الطريق الرابط بين الرمادي والقائم قرب المدن باتجاه الصحراء. ونجحت تلك الواحات واصبحت تضم اشجارا عديدة مثل النخيل والزيتون والفستق الحلبي واليوكالبتوس وغيرها من الانواع حسب المنطقة. وكانت محطات تشع حياة وجمالا وسط بيئة صحراوية قاحلة، وكان لها التأثير الايجابي على المناخ وايقاف التصحر وتقليل التلوث ومناظر مريحة للمسافرين الذين يسلكون هذا الطريق الطويل. لكنها انتهت بعد احتلال العصابات الارهابية لمدن المحافظة وتركت دون عناية طيلة خروج تلك المدن عن سيطرة الحكومة الاتحادية، ولم يعَد العمل فيها الا في عدد قليل وبمبادرات شخصية من بعض الموظفين في الشعب الزراعية.

ويمكن مضاعفة حجم المساحات المزروعة في محافظة الانبار إذا ما تم استصلاح بعض الاراضي وتحويلها من ارض غير منتجة الى ارض زراعية، يمكن استخدامها لزراعة الكثير من المحاصيل وكذلك عبر توفير حصص مائية للكثير من الاراضي الصالحة للزراعة، ولكنها غير مستغلة بسبب عدم توفر الحصص المائية.

وفي هذا السياق، هناك اراضي تقع الى الشمال من نهر الفرات وفي منطقة الجزيرة المحصورة بين بحيرة الثرثار ونهر الفرات، والتي تمتد من مدينة حديثة والى مدينة الخالدية شرق الرمادي عند القناة المائية التي تربط بحيرة الثرثار بنهر الفرات، وتمتد بعدها مع ذراع دجلة الى حدود محافظة بغداد. ان هذه الارض بمساحاتها الشاسعة التي تمتد لمئات الكيلومترات تحوي تربة خصبة صالحة للزراعة، واجواؤها اقل جفافا وحرارة من الصحراء الغربية جنوب الفرات. وهناك مصادر متوفرة للمياه سواء من نهر الفرات او من بحيرة الثرثار او عن طريق حفر الابار. ان هذه المساحات الشاسعة لم تستغل بشكل كامل، الا عن

طريق الزراعة الديمية لمساحات صغيرة تكاد لا تذكر. ولو استثمرت هذه الاراضي بمشاريع زراعية كبيرة عن طريق وزارة الزراعة او عن طريق مستثمرين وشركات زراعية محلية او اجنبية، لكان لها دور في سد حاجة السوق العراقية، لكثير من المحاصيل ولامكن ان تكون سلة العراق الغذائي.

ان تجاوز الاساليب التقليدية، واستخدام الاساليب العلمية، والطرق الحديثة المبتكرة في القطاع الزراعي، وتوفير مصادر مياه جديدة، يمكن ان يزيد من مساحات الارض الصالحة للزراعة. كما ويمكننا ذلك من رفع غلة الدونم الواحد الى اضعاف ما ينتجه في الوقت الحاضر. وأبرز المقترحات التي نقدمها لانتشال الواقع الزراعي في محافظة الانبار، تتمثل بـ:

• استثمار وجود كلية الزراعة ضمن جامعة الانبار باقسامها المختلفة وباحثيها واساتذتها لتجاوز الكثير من المشاكل التي تواجه المزارع الانباري. ووضع الاسس الصحيحة لاستخدامات التربة كي تعطي انتاجا أكثر وغلة اعلى. وتشجيع وتدريب المزارعين على استخدام الاساليب الحديثة في التسميد والوقاية ومكافحة الامراض واختيار أفضل الاصناف المناسبة لمناخ المحافظة واستخدام منظومات الري الحديثة. ويمكن كذلك اقامة قرى ومزارع نموذجية يشرف عليها اساتذة جامعيون بالتعاون مع الكادر الهندسي الزراعي في مديريات زراعة الاقضية والنواحي والمزارعين في القرى المجاورة كي تنفذ على اراضيها الشق العملي للبحوث العلمية المختارة من قبل الكلية.

• تعزيز ودعم الجمعيات الفلاحية لتأخذ المبادرة في تجاوز المعوقات التي تواجه الفلاح الانباري، عن طريق توفير ما يحتاجه من مستلزمات زراعية حديثة بالتنسيق والتعاون مع مديرية الزراعة والتجار المحليين في مجال توفير البذور المحسنة والتقاوي والاسمدة والمبيدات المرضية باسلوب يمكن الفلاح من شراء هذه المستلزمات وتسديد قيمتها بعد جني الحاصل. ويمكن لهذه الجمعيات ان تساهم في عملية السيطرة على تسويق المحاصيل الزراعية، بعيدا عن المضاربة والكساد اللذين يواجهان الفلاح.

• اعطاء فرص بالاستثمار الزراعي للشركات المتخصصة والمتكاملة الانتاج، شرط استخدام الايدي العاملة العراقية والتعاقد مع خريجي كلية الزراعة والاعداديات الزراعية في هذا الجانب.

• إلزام المستثمرين لمعامل الاسمنت والفوسفات والمقالع المختلفة في صحراء الانبار من خلال العقود المبرمة معهم على انشاء احزمة خضراء، حول تلك المعامل والمقالع، تساهم في إيقاف التصحر وتقليل التلوث. وذلك بزراعة اشجار مختلفة تلائم البيئة التي ستزرع فيها مثل النخيل والزيتون.

• ضرورة وضع حزمة من التشريعات والاجراءات لحماية الزراعة الوطنية ومنع استيراد المحاصيل والخضر التي تنتج محليا.

• دعم صغار المزارعين بقروض ميسرة لاقامة مشاريعهم الزراعية المختلفة ومتابعتها من قبل دوائر الزراعة ووضع

شروط جزائية لمن يستخدم هذه القروض لغير اهدافها ولمدة لا تقل عن خمس سنوات.

• إيجاد الحلول الناجعة لمشكلة هجرة الفلاحين، والبحث عن أسبابها وآثارها، والعمل على تجاوزها لغرض عكس الهجرة لتصبح من المدن الى الريف عبر حزمة اجراءات مشجعة تجعل العمل الزراعي مربحا وذا مردود اقتصادي، وتقليل الفوارق بين الريف والمدينة. وتشجيع الفلاحين، على العودة إلى أراضيهم، وتعويضهم وتقديم المنح والقروض لهم.

• تسهيل عملية حفر ابار قرب الاراضي التي تزرع ديما لغرض اعطاء ريات في اوقات حاجة المحصول للمياه، ونبعد المزارعين عن خسائر قد تتكرر لسنوات بسبب طبيعة المنطقة غير المضمونة الامطار.

الهوامش:

1- لمزيد من المعلومات عن محافظة الانبار انظر:
•خطار صكار العاني ونوري خليل البرازي، جغرافية العراق، كلية الآداب/ جامعة بغداد، منشورات جامعة بغداد، مطبعة جامعة بغداد، 1979.
•الجهاز المركزي للإحصاء - وزارة التخطيط، الموجز الاحصائي لمحافظة الانبار:
http://cosit.gov.iq/ar/?option=com_content&view=article&layout=edit&id=1203

2- للمزيد مم المعلومات حول المياه في الانبار انظر:
• الأطلس الإحصائي الزراعي - خارطة الطريق للتنمية الزراعية (الاقتصاد الأخضر)، الفصل الخامس: المياه والسدود والخزانات، الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط، جمهورية العراق،2011.
• تقرير الموارد المائية لسنة 2015، الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط، جمهورية العراق.
• تقرير الموارد المائية لسنة 2020، الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط، جمهورية العراق.
• حنان حسين دريول، المياه الجوفية واثرها على النشاط الاقتصادي في محافظة الانبار، مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العدد 40، 2017.

3- طه احمد عبد ألفهداوي، القيمة ألفعلية للمطر في محافظة الانبار وأثرها على النبت الطبيعي، كلية الآداب - جامعة الانبار، حوليات آداب عين شمس، سبتمبر 2018، المجلد46، ص:294 - 204.

4- الجدول من تصميم الكاتب، وهو يمثل إعادة تهيئة وتوضيح لجدول غير منشور صادر من مديرية زراعة الانبار يمثل المساحات الصالحة للزراعة وغير الصالحة بحسب الشعب الزراعية.

5- معلومات استقاها الكاتب من مديرية زراعة الانبار، غير معدة للنشر.

6- جدول من عمل الكاتب استنادا الى معطيات الجهاز المركزي للإحصاء.

7- معلومات استقاها الكاتب من مديرية زراعة الانبار، غير معدة للنشر.

8- تقرير الحنطة والشعير لسنة 2021، الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط، جمهورية العراق.

9- تقرير الحنطة والشعير لسنة 2020، الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط، جمهورية العراق.

10- الأطلس الإحصائي الزراعي، الجزء الثاني: الإنتاج النباتي، مصدر سابق، ص 88.

11- الجدول من عمل الكاتب، وهو يلخص بيانات الجهاز المركزي للإحصاء، في تقريره الموسوم: تقرير انتاج التمور العراقية 2020.

12- رعد مسلم إسماعيل، النخيل والتمور في العراق وسبل التطوير (الزراعة والإنتاج والتسويق والتصنيع)، دراسة مقدمة إلى المؤتمر الدولي الرابع لنخيل التمر أبو ظبي/ الامارات العربية المتحدة للمدة 15 - 17 مارس/ آذار 2010م، ص6.

13- معلومات استقاها الكاتب من مديرية زراعة الانبار.

14- معلومات استقاها الكاتب من مديرية زراعة الانبار.

ملاحظات في واقع الزراعة في محافظة النجف

أحمد عبد علي القصير
مستشار الاتحاد العام للجمعيات الفلاحية

النجف السكان، الموقع، المساحة، ومصادر المياه:

يبلغ عدد سكان النجف عام 2019، بحسب تقديرات الجهاز المركزي للإحصاء 1.510.338 نسمة. وهم يشكلون ما نسبته 4 % من سكان العراق. يعيش منهم 431.700 نسمة في الريف، أي ما يقارب 29 % من سكان المحافظة(1).

تقع محافظة النجف على حافة الهضبة الغربية، تحديدًا في الجزء الأوسط من العراق. حيث تحدها محافظات كربلاء والانبار من الشمال، وبابل والقادسية من الشرق، والمثنى من الجنوب. اما جهة الغرب فتتمثل بالحدود الدولية مع السعودية. وهي تقع أيضا جنوب غربيّ العاصمة بغداد، التي تبعد عنها بحوالي 161كم، وتمتد محافظة النجف على مساحة تبلغ 28.532كم2، أي أنّها تمثل 6.6 % من مساحة العراق الكلية وفيها 4 اقضية ـ تتشكل جميعها من 10 وحدات إدارية/ نواحي. ويمكن تقسيم محافظة النجف الى قسمين: الأولى السهل الرسوبي، بخصائصها الطبيعية التي تسهل الزراعة. والثانية تتمثل بمنطقة الهضبة الغربية التي تمتد من الصحراء السعودية غرباً وحتى الحافة الغربية للسهل الرسوبي (2).

اما مناخ محافظة النجف، فهو يتصف بحكم موقعها الجغرافي بكونه حارا جافا صيفا وباردا رطبا شتاءً. مع تباين طفيف في الظروف المناخية بين المناطق والمواسم. بمعدلات دراجة حرارة عظمى في شهر اب 45.7 سيليزية و16.8 سيليزية في شهر كانون الثاني. اما بالنسبة لكمية الامطار الساقطة خلال شهر كانون الأول فتصل الى 36.5 ملم، فيما ينعدم سقوط الامطار في أشهر حزيران وتموز واب. وبالتالي فانه بحكم قرب محافظة النجف من الصحراء يتأثر مناخها بالمناخ الصحراوي. (3).

مصادر المياه:

تعتمد أراضي محافظة النجف الشرف في إروائها على نهر الفرات الذي يتفرع خارج حدودها في محافظة بابل جنوب قضاء الكفل بمسافة 5 كيلو الى فرعين رئيسيين: شط العباسية وشط الكوفة. حيث يتم إطلاق المياه للمحافظة من مؤخرة سدة

الهندية لتصل الى منظومة سدتي الكوفة والعباسية، التي بدورها تقوم بتوزيعها بين الشطين المذكورين.

يمثل شط العباسية أحد أهم الأنهر الطبيعية القديمة. يبلغ طوله داخل محافظة النجف 28كم تقريبا. وانشئ عليه ناظم العباسية للسيطرة على توزيع المياه. وتبلغ تفرعاته (جداوله) الرئيسية 13 فرعا. اما بالنسبة لشط الكوفة فيبلغ طوله ضمن محافظة النجف 72كم. وقد أنشئ عليه عدد من النواظم للسيطرة على توزيع المياه، وهي: ناظم الكوفة ضمن قضاء الكوفة، وناظم أبو صخير ضمن قضاء المناذرة، وناظم المشخاب ضمن قضاء المشخاب وناظمي اليعو وأبو عشرة ضمن ناحية القادسية. وتتفرع من شط الكوفة 37 جدولا رئيسيا وثانويا في المحافظة(4).

ان انخفاض امدادات نهر الفرات المستمرة والمتزايدة، يفرض على الجهات المسؤولة ضرورة تدقيق حجم المساحات الزراعية المروية بواسطة جداول شطي العباسية والكوفة، وكذلك تدقيق اطوال الجداول، والفروقات بين التصريف التصميمي والتصريف التشغيلي الفعلي لكل جدول.

المساحات الزراعية لمحافظة النجف:

المساحة الاجمالية لمحافظة النجف هي 11.529.600 دونم، وهي تمثل حوالي 7.3 % من مساحة العراق. بينما المساحة المزروعة فعليا لعام 2020 هي 512.319 دونم. وهي تمثل ما يقارب 3.4 % من مجمل المساحة المزروعة في العراق لذات العام. وللمزيد من المعلومات حول المساحات الصالحة المزروعة للسنوات من 2013 ولغاية 2020، ونسبتها المئوية من مجمل مساحة العراق الصالحة للزراعة، بالإضافة الى المساحة المزروعة فعليا ونسبتها، انظر الجدول رقم (1)(5).

السنة	المساحة الصالحة للزراعة (دونم)	نسبتها المئوية	المساحة المزروعة فعليا (دونم)	نسبتها المئوية
2013	11.237.100	21.8	477693	3.4
2014	11.237.100	21.5	439.891	2.8
2015	11.196.470	21.4	322.342	4.4
2016	11.196.470	21.4	345.592	5.7
2017	؟؟169.160	0.9	399.977	6.2
2018	؟؟169.160	0.9	257.927	5.8
2019	؟؟169.160	0.9	451.368	3.7
2020	؟؟169.160	0.9	512.319	3.4

الجدول رقم (1)

ومن أبرز ما تمكن ملاحظته في هذا الجدول، هو انخفاض حاد جدا وغريب في ذات الوقت في المساحات الصالحة للزراعة في محافظة النجف، وفي نسبتها المئوية من مجمل المساحة المزروعة في العراق للأعوام بعد عام 2017 ولغاية 2020. وهو ما رافقه أيضا، انخفاض كبير جدا في المساحة الصالحة في عموم العراق في ذات احصائيات قسم الإحصاء/ وزارة الزراعة. بينما بقيت الأرقام التي تمثل المساحات المزروعة فعليا قريبة من الواقع الى حد كبير. اما المعلومات التي استطعنا الحصول عليها من مديرية زراعة النجف لعامي 2018 و2019 فتشير الى ارقام مختلفة تماما. ففي عام 2018 كانت المساحة الصالحة للزراعة 11.019.185 دونما، اما المزروعة فعليا على مستوى المحافظة فهي 462.690 دونما. بينما كانت المساحة الصالحة للزراعة لعام 2019 تقدر بـ 11.351.524 دونما تقريبا، زرع منها 542.704 دوانم. وهذا الاختلاف في الاحصائيات يثير العديد من علامات الاستفهام؟ ورغم محاولاتنا لم نستطع التوصل الى حل لهذه القضية.

اما بالنسبة لبادية النجف، فهي تحتل ما يقارب 95 % من المساحة الكلية للمحافظة. حيث تبلغ مساحتها حوالي 27844 كم2. والمساحات المزروعة فيها صغيرة ومتفرقة. حيث ان تربتها فقيرة بالمادة العضوية، وتعتمد على المياه الجوفية كمصدر وحيد للمياه. فمعدل الامطار منخفض (50ملم سنويا).

الحنطة:

ان بيانات الجهاز المركزي للإحصاء تشير الى زراعة 209.714 دونما بالحنطة في محافظة النجف عام 2021، حصدت كلها تقريبا. وكان انتاج المحافظة 111.418 طنا، مثل ما نسبته 2.6% من الإنتاج الوطني تقريبا. وكانت الإنتاجية (متوسط الغلة) للمساحة المحصودة 535.5كغم/ دونم. وللمزيد من المعلومات عن المساحات المزروعة وكمية انتاج المحافظة من الحنطة وانتاجيتها لاحظ الجدول رقم (2)(6).

ان نظرة عامة على الاحصائيات تشير الى انخفاض عام في مجمل الأرقام من انتاج المحافظة من الحنطة، او إنتاجية الدونم الواحد او نسبته من الإنتاج الوطني في عام 2021.

السنة	المساحة المزروعة (دونم)			الإنتاج المحافظة (طن)	الإنتاج الوطني (طن)	النسبة % من الإنتاج الوطني	متوسط الغلة (كغم/دونم)	
	اجمالي المساحة	المساحة المحصوده	المساحة المتضرره				اجمالي المساحة	المساحة المحصوده
2015	215.185	210.870	4315	124.071	2.645.061	4.7	576.6	588.4
2016	213.528	212.650	868	188.156	3.052.939	6.2	881.2	884.8
2017	219.365	206.978	12387	166.853	2.974.136	*5.6	760.6	806.1
2018	202.114	192.868	9246	124.286	2.177.885	*5.7	614.9	644.4
2019	201.209	199.983	1226	152.095	4.343.473	3.5	755.9	760.5
2020	254.948	254.674	274	186.730	6.238.392	3.0	732.4	733.2
2021	209.714	208.066	1.648	111.418	4.233.714	2.6	531.3	535.5

* إحصائية هذين العامين لا تشمل إقليم كردستان ومحافظات نينوى وصلاح الدين والانبار وقضاء الحويجة من محافظة كركوك بالإضافة الى بعض قرى ديالى مما ساهم بارتفاع نسبة مساهمة محافظة النجف.

جدول رقم (2)

الشعير

أما بالنسبة لمحصول الشعير، فإن بيانات الجهاز المركزي للإحصاء تشير الى زراعة 1.014 دونم في النجف. انتجت حوالي 472 طنا مثل ما نسبته 0.2 % من الإنتاج الوطني. وبإنتاجية مقدارها 465.5 كغم/ دونم. وعند ملاحظة الجدول رقم (3)(7)، نلاحظ انخفاضا ملموسا في جميع الاحصائيات سواء من ناحية المساحة المزروعة، او الإنتاج او متوسط الغلة (الإنتاجية) وحتى نسبة مساهمة المحافظة من الإنتاج الوطني.

السنة	المساحة المزروعة (دونم)				انتاج المحافظة (طن)	الإنتاج الوطني (طن)	النسبة % من الإنتاج الوطني	متوسط الغلة (كغم/دونم)	
	اجمالي المساحة	المساحة المحصوده	المساحة المتضرره	مساحة الطف الاخضر				اجمالي المساحة	المساحة المحصوده
2015	10.197	9.763	123	311	4.085	329.713	1.2	400.6	418.4
2016	5.751	5.548	-	203	3.396	499.222	0.7	590.5	612.1
2017	2.879	2.208	667	4	1.512	*303.114	0.5	528.3	688.9
2018	2.358	2.330	-	28	1.175	*190.647	0.6	498.3	504.3
2019	3.334	3.316	-	18	1.629	1.518.471	0.1	488.6	491.3
2020	8.192	8.192	-	-	3.528	**1.756.200	0.2	430.7	430.7
2021	1.014	1.014	-	-	472	266.581	0.2	465.5	465.5

* عدا إقليم كردستان ومحافظات نينوى والانبار وصلاح الدين وقضاء الحويجة من محافظة كركوك وبعض قرى محافظة ديالى
** لم يتم شمول بعض قرى محافظات نينوى والانبار وصلاح الدين كركوك وديالى.

جدول رقم (3)

الشلب:

تعتبر النجف في مقدمة محافظات العراق في انتاج محصول الشلب. حيث ترتكز زراعته في الفرات الأوسط خصوصا في محافظتي النجف والقادسية. والملاحظ في الجدول رقم (4)(8) هو استحواذ انتاج النجف (القطاع الخاص) على الحصة الأكبر في عموم العراق. حيث كانت المساحة المزروعة لعام 2020 حوالي 205.810 دوانم وإنتاج المحافظة 251.580 طنا، وهو ما يمثل ما نسبته 54 % تقريبا من انتاج العراق. وبمتوسط غلة مرتفع نسبيا 1222.4 كغم/ دونم.

السنة	المساحة المزروعة (دونم)			انتاج المحافظة (طن)	الإنتاج الوطني (طن)	متوسط الغلة (كغم/دونم)	
	اجمالي المساحة	المساحة المحصوده	المساحة المتضرره			اجمالي المساحة	المساحة المحصوده
2015	51.819	39.311	12.508	43.454	109.209	838.6	1105.4
2016	87.920	84.595	3325	96.922	181.320	1102.4	1145.7
2017	132.515	127.649	4866	143.965	265.852	1086.4	1127.8
2018	13.561	13.549	12	12.505	18.196	922.1	922.9
2019	206.947	206.510	437	257.525	574.705	1244.4	1247.0
2020	205.810	205.810	-	251.580	464.159	1222.4	1222.4

جدول رقم (4)

ويزرع الفلاحون في النجف نوعين من الشلب/ الرز: الياسمين والعنبر. وهم يميلون الى زراعة الياسمين، وذلك لان إنتاجية دونم الياسمين تكون أكبر من إنتاجية دونم العنبر. فمعدل إنتاجية الياسمين 1500 - 1700 كيلو/ دونم تقريبا. وقد يصل في بعض الأحيان الى 2000كيلو/ دونم، وهذا يعتمد على جهود الفلاح. بينما دونم رز العنبر ينتج حوالي 800 - 1200 كيلو. كما ان فرق الأسعار الكبير يتم تعويضه بكمية الإنتاج؛ حيث ان سعر طن الياسمين 700 الف دينار، بينما سعر طن العنبر 900 الف دينار(9).

النخيل والتمور

تنتج محافظة النجف اصنافا عديدة من التمر اهمها الزهدي والخستاوي والساير والديري. وادناه الجدول رقم (5)، يوضح اعداد النخيل ومتوسط إنتاجية كل نخلة، بالإضافة الى كمية الإنتاج والنسبة من الإنتاج الوطني لعدد من السنوات لغرض المقارنة(10).

السنة	عدد النخيل	متوسط إنتاجية (كغم/نخلة)*	الإنتاج (طن)	النسبة من الإنتاج الوطني %
2006**	522.257	54.5	24.291	5.6
2014	566.923	65.7	30.895	4.7
2017	579.189	66.6	31.866	5.1
2018	573.978	70.1	33.724	5.2
2019	577.101	60.75	29.376	4.6
2020	580.440	62.7	30.464	4.1

*متوسط إنتاجية النخلة المنتجة فعلا وفي مرحلة الإنتاج
**بيانات عام 2006 مأخوذة من دراسة للدكتور رعد مسلم إسماعيل

جدول رقم (5)

ان أبرز ما يمكن ملاحظته من الجدول، هو ان نسبة مساهمة النجف في انتاج التمور على المستوى الوطني ضعيفة، حيث بلغت 4.1 % لعام 2020.

وعلى الرغم من الزيادة النسبية المحدودة في اعداد أشجار النخيل في السنوات الأخيرة، فالذي نلاحظه من تقارير الجهاز المركزي للإحصاء حول إنتاج التمور، أنها توضح ان محافظة النجف تتذيل قائمة المحافظات من ناحية اعداد اشجار النخيل؛ حيث تقع في المرتبة ما قبل الأخيرة، وقبل محافظة ميسان. ونسبة اعداد النخيل في محافظة النجف الى اعداد النخيل في العراق بحدود 3.3 %.

مشكلات القطاع الزراعي في محافظة النجف:

ان أبرز المشاكل التي تواجه القطاع الزراعي في النجف واغلبها مشاكل مشتركة للقطاع الزراعي العراقي عموما، هي:

- انخفاض مستوى مياه الارواء الاساسية لنهر الفرات، إذ تتم الاستعانة بالابار لاسيما في المناطق الصحراوية وهي مرتفعة الكلفة. بالإضافة الى ملوحة المياه الجوفية وعدم وجود اجهزة تقنية حديثة لكشف وتحديد نوعية المياه.
- ارتفاع تكاليف الطاقة الكهربائية من حيث الوقود وساعات التجهيز، حيث تشكل كلفة اضافية عالية، تقلل من ربحية

وعائدية المحصول للمزارع والفلاح.

• تفتيت الملكيات الزراعية بسب الارث والنزاعات العشائرية، وغياب الاتفاق بين أطراف النزاع. ان ذلك يقف عائقاً امام تنفيذ الخطط الزراعية وهو ما تعاني منه الدوائر الزراعية.

• التوسع العمراني الواسع على حساب الاراضي الزراعية والبساتين. عدم التزام وزارة الزراعة او ربما عدم قدرتها على الحفاظ على الاراضي الزراعية وتحديدا الواقعة في أطراف المدن. فبالرغم من وجود قوانين تمنع التجاوز على الاراضي الزراعية والبساتين الا ان التجاوز ما زال مستمراً. كما ان بعض التجاوزات تمت بعقود زراعية ويجب - وفقا للقانون- ان تبقى أرضا زراعية، الا ان المتعاقدين قاموا ببيعها كقطع أراض زراعية واستفادوا منها نقدا، ودون رادع او اجراء من قبل وزارة الزراعة.

• انحسار عمليات استصلاح الأراضي وزيادة تركيز الاملاح، مما قلص المساحة الصالحة للزراعة.

• المنتج الزراعي الوطني يفتقد قوانين حماية. على الرغم من ان المنتج العراقي الزراعي يعد من المحاصيل الأكثر جودة.

• عدم السيطرة على استيراد البذور، وارتفاع اسعارها واستيرادها من مصادر مجهولة وبنوعيات رديئة، وانحسار البذور ذات المنشأ الأصلي. وعدم وجود معامل تنقية البذور.

• انعدام السيطرة على ادخال المبيدات ذات المناشئ الرديئة. وعدم تخصيص المبالغ الكافية لقضية مكافحة الآفات الزراعية.

• ارتفاع اسعار والاسمدة، وقلة الجرعة السمادية المدعومة من الوزارة. وهذا يشكل عائقا كبيرا امام الفلاحين والمزارعين ويعطل الاستعدادات للمواسم الزراعية القادمة.

• عدم وجود مبازل في الكثير من الأراضي الزراعية، ما يتسبب في ارتفاع نسبة الاملاح في التربة.

• تأخير تسديد مستحقات الفلاحين والمزارعين عن المحاصيل المسوقة، ما يتسبب بتراكم الديون على الفلاحين، ويحد من امكانياتهم للتهيئة للموسم الزراعي القادم.

• ضعف الطاقة الاستيعابية للسايلوات، فهي بنيت في سبعينات القرن الماضي وهي ذات طاقة استيعابية منخفضة.

• تدني اسعار المنتجات الزراعية، ما ينعكس على دخل المزارعين والفلاحين بسبب ارتفاع تكاليف الزراعة ومنافسة المحصول المستورد. فعلى الرغم من ان جودة المنتج العراقي هي الافضل بامتياز، ولكن اصحاب الدخول المحدودة يميلون الى المنتج ذي السعر المتدني.

• الوضع الأمني في مناطق البادية والمناطق الصحراوية يعيق وصول التجهيزات الزراعية خصوصا ان السيطرات الأمنية تساهم في إعاقة مرورها في بعض الاحيان.

المقترحات:

1- تزويد المزارعين والفلاحين بالبذور والاسمدة الكيماوية بأسعار مدعومة وبأوقات مناسبة قبل بدء الموسم الزراعي، وتوفير معامل تنقية البذور.

2- تسديد مستحقات المزارعين والفلاحين في تواريخ استحقاقها لحاجتهم إليها، ولتغطية متطلبات الموسم القادم.

3- تنظيم الحصص المائية مع المحافظات المجاورة، بناء على المساحات المزروعة، والاخذ بنظر الاعتبار مساحات الرعي اللازمة للحيوانات. والعمل على نشر وسائل الري الحديثة القائمة على الاستهلاك الامثل للمياه مثل الري بالتنقيط والري بالرش.. الخ.

4- إيجاد حلول عملية لمشاكل الطاقة (الكهرباء والوقود). والسعي الى استخدام الطاقة البديلة (الطاقة الشمسية والرياح).

5- تنظيم عمليات استيراد المنتجات الزراعية، وحماية المنتج الوطني من محاصيل وفواكه وتشجيع زراعة اشجار الفاكهة وبإسناد من خبراء الزراعة في المحافظة.

6- تفعيل دور الجمعيات او التعاونيات الزراعية لما لها من دور في الدفاع عن مصالح الفلاحين والمزارعين.

7- المحافظة بحاجة الى بناء عدد من السايلوات، ذات طاقة استيعابية عالية. وذلك لاستيعاب محصول الموسمين الصيفي والشتوي من الحبوب.

8- تنظيم حملات المكافحة في الاوقات المناسبة لتحقيق الفائدة منها وضمان الحصول على الناتج بشكل سليم.

9- اعادة العمل بالمبادرة الزراعية وتسليف صغار الفلاحين والمشاريع الزراعية الإنتاجية. حيث تم ايقاف معاملات التسليف حسب كتاب المصرف الزراعي فرع النجف منذ 2014.

10- تطوير شبكات المبازل وتوسعتها وتنظيفها وصيانتها باستمرار. والإسراع في تنفيذ مشروع الكفل الشنافية بغية زيادة المساحة التي يمكن زراعتها بمحصول الشلب خصوصا.

11- استيراد المكائن والآلات الزراعية ذات الكفاءة. والتي تتلاءم مع الظروف العراقية (مضخات، ساحبات، حاصدات، سيارات إنتاجية، ..الخ).

12- انشاء معامل تعليب الأغذية وتحويلها لمواجهة مواسم وفرة المحصول.

13- تسهيل حفر الابار بمساعدة الدوائر المتخصصة، وتوجيه الاستثمار نحوها.

14- تطوير وتوسيع شبكات الطرق خصوصا تجاه البادية، بهدف تسهيل وصول التجهيزات والخدمات الى هذه المناطق.

الهوامش:

1- تقديرات سكان العراق 2019، الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط، جمهورية العراق.

2- للمزيد انظر:

- علياء حسين سلمان، تحليل جغرافي لشبكة المبازل في محافظة النجف وسبل تطويرها، مجلة آداب الكوفة/ 3-2009.

- الموقع الرسمي للجهاز المركزي للإحصاء على شبكة الانترنت.

3- نسرين عواد عبدون الجصاني، المناخ والنبات الطبيعي وإمكانية الاستثمار والتنمية في النجف، مجلة العلوم الإنسانية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ص:157 - 174.

4- للمزيد حول الموارد لمائية في النجف انظر:

- علياء حسين سلمان، مصدر سابق.

5- الجدول من عمل الكاتب، وهو مستمد من البيانات الإحصائية السنوية لسنوات من 2013 ولغاية 2020. التي ينشرها قسم الإحصاء في وزارة الزراعة.

6- جدول من اعداد الكاتب، بناء على تقارير إنتاجية الحنطة والشعير للأعوام 2015 - 2021، الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط.

7- جدول من اعداد الكاتب، المصدر السابق.

8- جدول من اعداد الكاتب، بناء على تقارير انتاج الشلب وزهرة الشمس للأعوام 2015 - 2020، الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط.

9- معلومات ميدانية، استقاها الكاتب من الفلاحين ومن مديرية زراعة النجف.

10- جدول من اعداد الكاتب، بناء على:

- تقارير انتاج التمور للأعوام 2014، و2017 - 2020، الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط.

- رعد مسلم إسماعيل، النخيل والتمور في العراق وسبل التطوير الزراعة والإنتاج والتسويق والتصنيع، دراسة مقدمة إلى المؤتمر الدولي الرابع لنخيل التمر أبو ظبي/الامارات العربية المتحدة للمدة 15 - 17 مارس/ آذار 2010م.

نصوص قديمة

نقض... النقيض *

THE NEGATION OF NEGATION

عامر عبد الله

لاحظت من خلال مناقشاتي مع بعض المعنيين بقراءة الديالكتيك الماركسي، ان شيئاً من مفاهيم الديالكتيك الهيكَلي غالباً ما تشوب نظراتهم أو معالجاتهم، على الرغم من تأكيدات (ماركس) من أن طريقته الديالكتيكية لا تختلف عن طريقة (هيكَل) فحسب، وانما تعارضها تعارضاً عمودياً.

لذلك وجدت من المفيد أن انقل لقرائنا طرفاً من المناقشات التي دارت حول مسألة هذا التعارض، وان أعرض بقدر ما يمكن من الايجاز والتبسيط وجهتي النظر الماركسية والهيكَلية، وجوهر التعارض في ما بينهما.

***

منذ ان نشرت الطبعة الالمانية الاولى لـ(رأس المال) على يد (انجلز) بعد وفاة ماركس عام 1883، انبرى لتفنيد أفكار ماركس وطريقته الديالكتيكية، فريق من المثقفين من مختلف بلدان أوربا، وفي مقدمتهم (دوهرنج)- في الالمانية، و(ميخائيلوفسكي) – في روسيا. وقد اتهم هؤلاء ماركس ''أخذه'' بثلاثية هيكَل المعروفة بقانون (نقض النقيض)- أي المسألة، ونقيضها، والوحدة العليا- وذلك في معالجته لتطور الرأسمال، واستخلاص استنتاجاته لهذا التطور وآفاق مستقبله – اعتماداً على طريقة هيكَل المثالية. ولم يتورع – هؤلاء ''النقاد'' عن نعت ماركس بـ''الصوفية'' و''المثالية'' وحتى بـ''الشعوذة''. استندوا في ذلك كله على عبارة (نقض النقيض) التي أوردها ماركس، مرة واحدة، في كل ذلك السِفر العظيم الذي هو (رأس المال)، مستشهدين بها على ان ماركس قد اعتمد طريقة هيكَل المثالية في دراساته واستقصاءاته.

تولى انجلز- كما هو معروف تفنيد اتهامات وسخافات (دوهرنج) في كتابه الشهير (الرد على دوهرنج)؛ كما تولى لينين الرد على (ميخائيلوفيسكي) في أول مؤلفاته (أصدقاء الشعب).

ويكفينا في هذا البحث الموجز أن نستند على بعض الردود لأنجلز ولينين، ففيها مايكفي لاجلاء الحقيقة.

***

خلص ماركس من بحث تطوير الملكية في الفصل المسمى (الاتجاه التاريخي لتراكم رأس المال)- من كتاب ''رأس المال)-[1] الى انه في الفترة السابقة للعهد الرأسمالي كانت الصناعة الصغيرة قائمة على ملكية الشغيل الخاصة لوسائل انتاجه – وهذه

هي المسألة (Thesis). وان الرأسمالية قد جاءت نتيجة تقويض الملكية القائمة على عمل المالك، وابدالها بالملكية الرأسمالية القائمة على استغلال الآخرين – وهذا هو نقيض المسألة (Negation) ولكن مثلما خلق تطور الصناعة الصغيرة نقيضه الذي أورده حتفه، وهي الملكية الرأسمالية – فان الانتاج الرأسمالي – يخلق هو الآخر نقيضه الذي يورده حتفه – وذلك هو نقض النقيض It is the negation of negation.” [2]

غير ان ماركس لم يستخدم هذا التعبير (نقض النقيض) إلا بعد مسيرة شاقة[3] برهن خلالها على عملية التطور هذه بالحقائق الاقتصادية والتاريخية التي لا تدحض. فاذا جاءت استنتاجاته متفقة هنا مع ثلاثية هيكَل، فليس معنى ذلك ان ماركس يستعين في تعليل وبرهنة الظاهرات الاجتماعية، أو في استقراء المستقبل دون الرجوع الى حقائق الحياة المادية أولا وفي الأساس.

استنتج (دوهرنج) من تطرق ماركس الى نقض النقيض وهو يعالج شروط تطور الرأسمالية ووجهته، على ان ماركس قد اعتمد فكرة نقض النقيض الهيكَلية لاثبات وبرهنة استنتاجاته عن مستقبل النظام الرأسمالي، والثورة الاجتماعية وطابع الملكية التي ستقوم في المجتمع الاشتراكي، والواقع ان ماركس لم يتطرق الى ذلك بل ولم يخطر بباله قط. ذلك ان ماركس كان يرود ببراعة وتدقيق – وبالاستناد الى الوقائع – الطريق التاريخي لتطور الرأسمالية. وقد توصل – عن طريق الاسترشاد بالوقائع المادية، لا عن طريق المثالية الهيكَلية، الى الحقائق الآتية:

أولا: قبل العهد الرأسمالي، كانت الملكية قائمة على أساس تملك الشغيل لوسائل انتاجه – أي تملك المنتجين انفسهم لوسائل انتاجهم. ولكن تطور وسائل الانتاج لم يعد يلائم هذا الاسلوب البدائي من الإنتاج، مما أدى الى ان تبدأ عملية تدريجية لنزع ملكية هؤلاء المنتجين من جانب ومن هم أقوى منهم. وهكذا بدأ اول تجميع لوسائل الانتاج الفردية والمشتتة وتحويلها الى وسائل انتاج ممركزة. وتلك هي مرحلة التراكم البدائي للرأسمالية.

ثانيا: نتيجة تملك عدد من الرأسماليين لوسائل الانتاج وبفعل القوانين المتأصلة في الانتاج الرأسمالي نفسه، لا يعود الشغيل المالك لوسائل انتاجه هو من ستنزع ملكيته، ولكن الرأسمالي الذي يشغل عدداً من هؤلاء الشغيلة الذين حولهم الى إجراء (بروليتاريين)، هو من ستنزع ملكيته، وكيف؟ ”ان نفراً من الرأسماليين الأقوياء يأخذون بإهلاك الكثيرين من زملائهم، مما يؤدي الى مزيد من تركز وسائل الانتاج والى ان يتطور على نحو متزايد أبداً الشكل التعاوني لاسلوب العمل، وكذلك التطبيق التكنيكي الواعي للعلم، والفلاحة النموذجية للتربة، كما تحول وسائل العمل الى أدوات تستخدم فقط على صورة جماعية مشتركة، ويجرى الاقتصاد في استعمال جميع وسائل الانتاج وذلك باستخدامها كوسائل انتاج في عمل مشترك مترابط، ومن ثم ايقاع الشعوب في شبكة السوق العالمي. وذلك هو الطابع الدولي المميز للنظام الرأسمالي“.

ثالثاً: والى مَ يؤدي ذلك؟

يستطرد ماركس قائلاً:“ ومع هذا

التناقص المستمر لعدد اقطاب رأس المال الذين يغتصبون ويحتكرون مغانم ومزايا عملية التحويل هذه (أي تحويل العامل الذي كان يملك وسائل انتاجه الى بروليتير ووسائل انتاجه وقوة عمله الى رأسمال، واستثمار العمل والأرض ووسائل الانتاج الاخرى بطريقة فنية وعلى شكل جماعي مترابط – ع) يتزايد مقدار البؤس والاضطهاد والعبودية والتردي والاستغلال. ولكن بجانب ذلك تنمو ثورة الطبقة العاملة – وهي طبقة يتزايد عددها على الدوام، ويتعاظم تراصها ووحدتها وتنظيمها بفعل ميكانيكية عملية الانتاج الرأسمالي ذاتها. ثم ان احتكار رأس المال يمسي قيداً على اسلوب الانتاج، وهو الذي نشأ وترعرع معه وتحت ظله. ومركزة وسائل الانتاج واشتراكية العمل (أي صيرورة العمل اجتماعياً يشترك فيه ملايين الشغيلة – وهم القوة الاجتماعية الانتاجية الاساسية-ع) يبلغان في نهاية الأمر نقطة، يصبحان معها غير متلائمين مع غلافهما الرأسمالي، فلا يلبث هذا الغلاف ان ينفجر ويتبدد هباءً، وعند ذلك يقرع ناقوس الفناء للملكية الرأسمالية الخاصة، وتنزع ملكية نازعي ملكية الآخرين"[4].

هكذا توصل ماركس – على أساس التحري العميق للظروف والوقائع المادية لتطور الرأسمالي – الى:

1 - انه وجدت في البدء ملكية خاصة قائمة على ملكية المنتج لوسائل انتاجه.

2 - ثم ولد من رحم هذه الملكية نقيضها وهو الملكية الرأسمالية الخاصة التي يحرم منها المنتجون الحقيقيون – وهم ملايين العمال والكادحين.

3 - وان هذه الرأسمالية بفعل نفس القانون، تولد نقيضها الذي يوردها حتفها (وهو اشتراكية العمل)- "وذلك هو نقض النقيض".

غير ان ماركس اذ تطرق الى هذا التعبير، لم يخطر بباله قط ان يتخذ منه برهاناً على الحتمية التاريخية لهذه العملية، وهو اذ برهن بالوقائع على ان شطرين من هذه العملية قد تحققا، فقط توصل بعد ذلك الى حتمية حدوث الشطر الأخير (أي الثورة البروليتارية). واذ توصل ماركس الى هذه النبوءة العظمى التي تحققت في زماننا هذا بعد موته، لم يكن يستعين بقانون نقض النقيض لاثبات صحة ما تنبأ به، وانما جاء نقض النقيض هو نفسه مطابقاً لاستقصاءات ماركس؛ وعلى ذلك انتهى ماركس الى وصف هذه العملية التاريخية بانها (عملية ديالكتيكية).

قال انجلز بهذا الصدد:

"انها لعملية تاريخية، فاذا جاءت في الوقت ذاته عملية ديالكتيكية فما الذنب بذنب ماركس- وان غاض ذلك الهر دوهرنج"[5].

استنتج دوهرينج- كما بينا – ان ماركس بدأ بثلاثية هيكل عند بحثه لتطوير الملكية وسار وفقها في استنتاجاته حتى توصل الى حتمية الثورة الاشتراكية – التي تصبح فيها الملكية اشتراكية وخاصة في آن واحد، تطبيقاً لفكرة (الفكرة الهيكَلية العليا) التي ينبغي أن تؤلف بين نقيضيها وتنتهي الى نتيجة مركبة ارقى، والتي خيّل لدوهرينج ان ماركس قد اعتمدها دليلاً للتوصل الى تحديد طبيعة الملكية في عهد الاشتراكية.

ماحقيقة هذه الملكية التي اتخذها دوهرينج وسيلة لتشويش وتشويه أفكار ماركس؟

لم يتطرق ماركس الى فكرة الوحدة العليا للملكية، ولم يخطر بباله وهو يتطرق الى الثورة الاجتماعية ضد الرأسمالية، ان يستعين بنقض النقيض الهيكَلي لتحديد طبيعة الملكية في العهد الاشتراكي. ولو فعل ذلك لانتهى الى ضرورة رد الملكية الخاصة القائمة على تملك المنتِج لوسائل انتاجه والسابقة للعهد الرأسمالي – الى نفس المنتجين في العهد الاشتراكي – أي الى الشغيلة والعمال فرداً – أي تحويلها من جديد الى ملكية فردية خاصة – ولكن ما الذي فعله ماركس؟

ذكر ان ملكية نازعي ملكية الآخرين – أي نزع ملكية الرأسماليين – وان كان يعني رد الملكية الفردية الى المنتجين، الا ان ذلك ينصرف الى مفهوم التمليك الاشتراكي للأرض ووسائل الانتاج من جانب أفراد أحرار يمارسون عملهم بوسائل انتاجية مشتركة، في مجتمع منظم على أساس اشتراكي. أما الملكية الخاصة فتقتصر على مواد الاستهلاك – أي ان ما ينتجه المنتجون في مجتمع اشتراكي، يخصص قسم منه ليكون بمثابة وسائل انتاج جديدة ويظل اشتراكياً، ويخصص القسم الآخر منه للاستهلاك من جانب أفراد المجتمع. فأين ذلك كله من مفهوم الوحدة الهيكَلية العليا؟

ولو ان ماركس وانجلز اعتمدا ثلاثية هيكَل، لسارا شوطاً بعيداً في تنبؤاتهما حول المستقبل ولحدّثا الاجيال عمّا سيكون عليه حالهم بعد آلاف السنين. ما أيسر ذلك لمن يضع نفسه خارج حدود الحياة وتطوراتها المعقدة. ولكن ماركس وانجلز – كما نعرف – قد اكتفيا بدراسة وتحليل مجتمع عصرهما، المجتمع الرأسمالي، مستندين في ذلك الى ما لا يحصى من الحقائق والأرقام والبيانات عن تطور الرأسمالية البريطانية. واذ استنتجا من خلال دراستهما لتناقضات المجتمع الرأسمالي حتمية الثورة الاشتراكية، لم يسرفا في وصف طبيعة هذا المجتمع.. مجتمع المستقبل، ولم يشيرا الا بصورة عارضة الى المجتمع الشيوعي – دون أن يتجاوزا، ولو خطوة واحدة الى ما وراء ذلك.

***

ليس نقض النقيض خطأً بحد ذاته، فهو بمفهومه الماركسي قانون عام من قوانين الحركة. ولكنه خطأ عندما يؤخذ مجرداً، لاستنتاج النتائج الواسعة – بالاستناد الى العقل وحده - كما هو الحال في منهج هيكَل المثالي (اللامادي – الميتافيزيقي). وهو خطأ بالنسبة للمتعلمين الذين يتخذونه نقطة بداية في البحث والاستقصاء، أو بمثابة المنطق للبرهنة على صواب ظاهرة ما.

إن اعتماد نقض النقيض اعتماداً عقلياً، او مجرداً، أو كنقطة للشروع في التعليل والبحث – هو مثالية – مناقضة للديالكتيك الماركسي. الصواب هو البدء بتحري ودراسة الظواهر الجارية أولاً والركون اليها قبل كل شيء. والصواب في كل فكرة أو نظرية، هو مطابقتها للواقع، وليس العكس. فإن جاءت هذه النتيجة أو تلك مطابقة لقانون نقض النقيض، فليس في ذلك ما يبعث على الاستغراب. ان

عمليات لا تحصى، تقع يومياً وكل ساعة بل وكل لحظة خارج وعينا وإرادتنا – في المجتمع والطبيعة والفكر – وفق قانون نقض النقيض الذي هو جوهر الديالكتيك الهيكَلي والذي اقتبسه ماركس بعد أن نزع عنه قشرته الصوفية، وأوقفه على قدميه.

لقد استمد انجلز أمثلة عديدة من عمليات تجري على أساس نقض النقيض في عالم البايولوجيا (النبات، والحيوان) ومن الجيولوجيا، والرياضيات، والفلسفة والتاريخ.

استشهد مثلاً بحبة الشعير، فذكر انها عندما تبذر في التربة، لا تلبث أن تنقض نفسها، فتتحول الى نبتة التي هي نقيض الحبة. ثم لا تلبث هذه النبتة أن تنقض نفسها عندما يولد الحب، وهذا هو نقض النقيض. وبنتيجته نحصل لا على الحبة من جديد بل على عدد وفير من الحبات. واستشهد بالبيضة التي تنقض نفسها لتنشق عن حشرة، لا تلبث بعد اجتيازها أدوار الاستحالة أن تموت فتصبح بدورها منقوضة – وذلك في اللحظة التي يكتمل فيها تلقيحها وتنتهي الأنثى من وضع بيضها الوفير.

كما استشهد أنجلز بالقشرة الارضية التي هي محصول سلسلة من النقيضات المنقوضة للتربة ـ عبر الدهور ـ تحت فعل عوامل كيمياوية وفيزيائية ومناخية كثيرة معقدة.

واستشهد أيضاً بعمليات حساب التفاضل، وتطور ملكية الأرض والفلسفة، وفكرة المساواة.. الخ.

وفي هذا الصدد قال لينين: ''ان ماركس لم يخطر له قط ان ''يبرهن'' على أي شيء بالاعتماد على ثلاثية هيكَل. كان ماركس يعنى فقط ببحث ودراسة العملية الحقيقية، وكان يعتبر مطابقة النظرة للواقع هو مصداقها الوحيد. ومع ذلك، فإن ظهر في أي وقت من الأوقات، ان تطور أية ظاهرة اجتماعية معينة جاء مطابقاً لمنهاج هيكَل – أعني المسألة والنقيض، ونقض النقيض وليس في ذلك ما يبعث على الدهشة. لقد استمد انجلز الامثلة من نطاق التاريخ الطبيعي (تطور البذرة)، ومن نطاق العلم الاجتماعي كالمثل القائل بأنه قد وجدت في البداية المشاعية البدائية، ثم الملكية الخاصة، ثم اشتراكية العمل في العهد الرأسمالي. أو انه قد وجدت في البداية مادية بدائية، فمثالية، فمادية علمية.. ولكن من الواضح لكل إنسان ان الجهد الرئيسي في جدلية انجلز هو ان المادية ينبغي أن تصور بصراحة ودقة عملية التاريخ. أما التمسك بالديالكتيك واصطفاء الأمثلة لتبيان صحة الأسلوب الثلاثي، فليس إلا من آثار الهيكَلية التي نشأ عنها مذهب الاشتراكية العلمية، أو بالأحرى أثر من آثار اسلوبها في التعبير. فما مغزى تلك الأمثلة التي تضرب حول العمليات ''الديالكتيكية'' اذن؟ أليس واضحاً انها تشير فقط الى منشأ هذا المذهب ليس إلا''؟[6]

لكن نقض النقيض لا يصلح مخباراً نثبت به صحة عملية ما، أو نستدل بواسطته على عمليات التطور المعقدة التي تجري في الطبيعة والمجتمع والفكر. وانما هو قانون عام من قوانين الحركة ليس إلا. فالاكتفاء بتعبير ''نقض النقيض'' لوصف عملية تطويرية ما، هو في الواقع جهد قد يكون عقيماً تماماً بالنسبة للعالِم

والمؤرخ، أو بالنسبة لبني الانسان الذين يستهدفون من وراء هذه الدراسات لعمليات التطوير، مغانم ونتائج ملموسة. ان وصف تطور البذرة بانه نقض النقيض، لا يشمل جزيئات عملية التطور هذه.. لا يشمل (التناقضات الخاصة) لعملية تطور البذرة التي تختلف نوعياً عن التناقضات الخاصة لتطور الملكية مثلاً - كما لا يشمل الظروف والعوامل الاخرى الخاصة (الثانوية) – كالحرارة، والرطوبة، والمناخ، والتربة، والاسمدة، والبستة..الخ. وماذا يجني عالم النبات أو المجتمع من فوائد لو انه توقف عند حد الاستنتاج بأن تطور البذرة قد جرى وفق قانون نقض النقيض؟ لو توقف الأمر عند هذا الحد، لأصبح وصف عملية تطور البذرة يساوي من حيث النتائج وصف عملية تطور الملكية؛ وهذا بدوره يساوي قولك بأن (ثمة حركة اضداد في عملية تطور كل شيء) - أي انك تردد دونما طائل قانوناً عاماً من قوانين الحركة (عمومية التناقض) - وهذا ما يفعله الميتافيزيقيون أيضاً (مع اختلاف في الجوهر).

ان هذا القانون العام وحده لا يكفي. فلكل عملية تطورية خصائصها المتناقضة (تناقضها الخاص). والتعرف على هذه الخصائص هو مهمة العالِم في مختبره، والفلكي في مرصده، والمؤرخ في تحرياته ودراساته. ومن هنا قولنا إن الماركسية هي التي أنزلت الديالكتيك من عرش التأملات العقلية المجردة، الى أرض الواقع.

ان قانون نقض النقيض (بمعنى ان التناقض هو أساس الحركة وانه يسري في عملية تطور كل شيء من البداية الى النهاية)، يشق طريقه ويرتب نتائجه في الطبيعة والتاريخ والفكر - قبل أن يعيه الإنسان.

ومثلما تطور المجتمع منذ ملايين السنين وفق أفكار ومبادئ المادية التاريخية الحديثة، دون أن يعي انسان تلك المجتمعات هذه المبادئ والافكار، كذلك كان كل شيء في الطبيعة يتحرك ويتبدل ويتطور، وكان الانسان يفكر تفكيراً ديالكتيكياً قبل أن يصبح الديالكتيك علماً متعارفاً بين اناس هذا العصر.

لقد كان هيكَل أول مفكر عملاق صاغ (ولو بصورة مثالية) قانون نقض النقيض، ومنه اقتبس ماركس جوهر طريقته الديالكتيكية. فأين وجه التعارض إذن بين الطريقتين؟

يتفق ماركس وهيكَل في المحتوى الأساسي للديالكتيك: التناقض، الحركة، الصراع بين القديم والجديد، التغيير، الترابط بين الظواهر، التطور الكمي، التحول النوعي.. الخ – والفضل في ذلك يعود الى هيكَل – باعتباره الرائد الأول للديالكتيك والذي لا يجحد ماركس فضله – كما فعل آخرون من الذين عاملوه "ككلب ميت"، وانما اعلن نفسه بصراحة "تلميذاً لهذا المفكر العملاق"[7]. إلا ان هيكَل يبدأ من حيث ينتهي ماركس. وهو يبدأ بالفكرة، بالحق المطلق، بالروح الكلي، فيعتبره الأصل، الخالق، الأزلي الذي يستوعب كل ظاهرات الكون حتى في أدق جزيئاته. فما الطبيعة – في نظر هيكَل – إلا تجسيد محسوس لهذا الروح الكلي، وما الحياة إلا تجسيد روحي رفيع لهذه الروح. أما كيف يكشف هذا الروح عن نفسه، وكيف

تجري سنة التطور، فعلى الوجه التالي: تقوم المسألة فيقوم الى جانبها نقيضها. ومن الصراع الناشب بين هذين النقيضين تقوم ''أزمة'' لا تلبث أن تتفاقم وتتسع حتى تنحل وتسوى على نحو انفجاري – وذلك هو نقض النقيض أو (الوحدة العليا). عند اذن تنهض أمامنا حالة جديدة، ائتلاف جديد، أو ما يسميه هيكَل ''مرحلة جديدة من مراحل تطور الفكر المطلق'' وهذه هي المسألة مرة اخرى. ولكن سرعان ما يقوم الى جانب هذه المسألة الجديدة نقيضها أيضاً، فينشب الصراع، وتنتهي العملية ''بحل'' هذا التناقض بقيام إئتلاف جديد أرقى من سابقه، بمسألة جديدة، بانكشاف جديد.. وهكذا دون انقطاع.. ويرى هيكَل ان هذه الانكشافات التطورية (سواء وقعت في الطبيعة أو في المجتمع) ليست إلا انكشافات نسبية للحق المطلق أو قل اعرابات جزئية عن الروح الكلي المتجسد في الكون بأسره. وهكذا صعوداً تسير الحياة، حتى يتكشف هذا الحق في صفته المطلقة، أو حتى يكشف هذا الروح عن نفسه كلياً. أما كيف ينتهي الفكر الى هذه المرحلة فيرى هيكَل انه قد قطع اليها مراحل ثلاث: لقد وجد أولاً كحقيقة أزلية مجردة؛ ثم تسرب في الطبيعة فأصبح حقيقة مادية محسة؛ وأخيراً راح يسعى الى ان يحقق نفسه بصورة أرفع وأسمى بصورة روح – وهذا هو هدف الفكر منذ البداية. ويعني ذلك ان الطبيعة التي نراها بأعيننا ليست إلا تجسيداً للفكر في المرحلة الوسطى من مراحل تطوره. أما المرحلة الروحية من تطور الفكر المطلق فهي مرحلة تطور العلائق الاجتماعية (التاريخ، الحق، الاخلاق، السياسة) التي تبلغ ذروتها في بلوغها مرتبة الادراكات الذهنية العليا (الفن، الدين، الفلسفة). وفي هذه المرتبة الأخيرة يتجلى الروح الكلي في أروع أشكال الكمال والانسجام، ثم لا يلبث أن يعود الى نفسه[8].

هذه هي طريقة هيكَل الديالكتيكية، أو ما يسمى بـ''ثلاثية هيكَل'' مبسطة قدر الامكان. وهي – كما هو واضح – طريقة مثالية، صوفية. أما تطبيقاتها الاجتماعية، فكانت عبارة عن مساندة، على الصعيد الفلسفي، لحكم الدستور المطلق السائد في ألمانيا آنذاك، وذلك في نطاق السياسة، والقانون، وعلم الاجتماع. وليس هذا بطبيعة الحال المكان الملائم لعرض هذه الناحية من فلسفة هيكَل.

ذلك هو منهج هيكَل.

أما منهج الماركسية فهو كما يأتي:

تنهض الماركسية على دعامتين متلازمتين: نظرية مادية، وطريقة ديالكتيكية.

فالماركسية تنظر الى الظاهرات نظرة مادية. أي انها تعتبر الشيء المادي هو الأصل، والشيء المعنوي أو الفكري هو الانعكاس الصادق عن هذا الشيء - بخلاف النظريات المثالية التي تعكس المسألة أو تضعها بشكل آخر.

والماركسية تتناول الظاهرات بطريقة ديالكتيكية – أي أنها لا تعتبر الظاهرات شيئاً جامداً أبدياً أو خالداً، وانما في حالة تناقض وحركة دائمة وتطور مستمر. فهناك دوماً الى جانب القديم شيء جديد؛ شيء ينمو وآخر يضمحل، شيء ثوري وآخر لا ثوري، شيء يولد وشيء يموت

– أو بكلمة اخرى، هناك حركة صيرورة وانتهاء وخلق وإفناء، دائمة الجريان، وهي أثناء جريانها تعبر مرحلتين: مرحلة ارتقاء (كمي) تؤدي الى مرحلة تحول (نوعي).. وهكذا تجري الحياة صعوداً بدون توقف أو انقطاع.

هذا هو بتبسيط وايجاز المفهوم المادي الديالكتيكي أو المنهج الفلسفي الذي تقوم عليه الماركسية العلمية، ومنه استمدت الماركسية قوانين تطور المجتمع ومبادئ الثورة البروليتارية.

أما تطبيقاته العلمية فهي تنهض بوجه عام على الأسس الاتية:

- لما كان الشيء المادي هو الأصل والشيء الفكري هو الانعكاس فمعنى ذلك ان الوجود الاجتماعي هو الذي يقرر الوعي الاجتماعي وليس العكس، كما هو الحال عند هيكَل وبقية المفكرين المثاليين.

- ولما كان كل شيء يتحرك، فلتعرف الماركسية اذن، في أية وجهة يسير التاريخ.

- ولما كان الجديد يقوم بجانب القديم وان هناك دوماً شيئاً ينمو ويتطور وآخر يضمحل ويفنى، فلتتعرف الماركسية اذن على القوة الاجتماعية الناهضة (وان بدت صغيرة ومحكومة في وقت من الاوقات)، وعلى القوة الاجتماعية البائدة (وان بدت في الوقت ذاته كبيرة ومسيطرة).

- ولما كان هناك عملية ارتقاء (كمي) تنتهي الى عملية تحول (نوعي) فلتخطط الماركسية، اذن للحركات السياسية مناهج عملها على هذا الضوء. ولتدل البروليتاريا على ما يجب أن تنهض به من مهام (ديالكتيكية) تنسجم مع عملية التطور (الكمي) وتزيد من سرعتها ومهام (ستراتيجية) تنسجم مع عملية التحول (النوعي) – أي الثورة – وتضمن نجاحها.

بهذه الطريقة، أخذت الماركسية تستقرئ ظاهرات الحياة ولاسيما ظاهرات التطور الاجتماعي وسير التاريخ الانساني. وقد اعتبرت الماركسية ان مصداق هذه الطريقة يكمن في حقائق الحياة وليس في التعميمات الذهنية المجردة.

وطبيعي ان هذه الطريقة تخالف طريقة هيكَل.''بل تناقضها على خط مستقيم'' كما يقول ماركس. فطريقة ماركس مادية، واقعية، ثورية. وطريقة هيكَل مثالية، صوفية، محافظة.

ومما سبق يتضح الفرق بين طريقة هيكَل وطريقة ماركس.

ففي الوقت الذي يأخذ هيكَل بيده ثلاثيته يعلل بها ظاهرات الطبيعة والمجتمع، ويستكنه بواسطتها الغيب وآفاق المستقبل، نجد ماركس يأخذ ظاهرات الحياة نفسها كبداية يدرسها ويعللها ويختبرها بطريقة ديالكتيكية مغايرة تقوم على اساس الاخذ بالمحتوى المعقول من ديالكتيك هيكَل: التناقض، الحركة، التغير، الارتقاء، التحول.. الخ، وعلى نبذ قشرتها الصوفية المثالية (الحق المطلق – الروح الكلي .. الخ)، معتبرا ان الظاهرات الواقعية في الحياة نفسها هي ما يصلح ان يكون محكاً ومصداقاً لهذه الطريقة، وليست الطريقة ذاتها مجردة او الافتراضات المثالية المسبقة حول مجرى الحياة وافاقها المستقبلة.

إذن، فالمادية الماركسية، هي بنت الواقع ومحركها الاول والأخير، هو حقائق الحياة المادية.

إنّ النظرية لا تستنتج مبادئها او تلجأ الى تفسير الظاهرات المعقدة بأساليب مثالية.. انها ليست عقيدة جامدة وانما مرشد في العمل.. انها لا تتكون نهائيا الا في صلة وثيقة بالنشاط العملي. وان من الواجب اختبارها بواسطة معطيات النشاط العملي. ألم يقل انجلز "ان المادية مقدر لها على ان تأخذ لها وجها جديدا لدى كل كشف جديد خطير؟!".

***

بعض الاستنتاجات

• ان قانون نقض النقيض (بصيغته المثالية) خطأ – اذ يفترض ان كل ظاهرة تطورية هي انكشاف جزئي عن الروح الكلي المتجسد في الطبيعة والمجتمع والفكر – وقد سبق تبيان هذه المسألة عند مقارنة المنهجين الفلسفيين لكل من هيكَل وماركس.

• وقانون نقض النقيض خطأ، عندما يعتبر كل ظاهرة تطورية هي عودة الى المسألة ذاتها بشكل مركب اعلى ناشئ من اتحاد النقيضين. وصف (لينين) ان التطور (كزيادة، ونقصان، وتكرار) هو وجهة النظر الميتافيزيكية لا وجهة النظر الديالكتيكية. وسماها (ماوتسي تونغ) لأنها (وجهة نظر ارتقائية مبتذلة) اذ ترى ان "الشيء قد يتكاثر مراراً وتكراراً ولكنه يبقى نفسه ولا يمكن ان يتحول الى شيء من نوع اخر ابداً"! لقد اصبح بمستطاع علماء النبات مثلاً ان يحصلوا لا على خمسين ثمرة محسنة (بدل عشر او عشرين) بنتيجة بذر بذرة واحدة، وانما استطاعوا ان يحصلوا من بذور فاكهة معينة موجودة في الطبيعة (وعن طريق التركيب المعقد واستخدام وسائل العلم الاخرى) على فواكه جديدة غير موجودة في الطبيعة.

• وقانون نقض النقيض، خطأ ايضاً، عندما يعتبر مجموعة الظاهرات التطورية، هي انكشافات جزئية اعلى فأعلى عن الروح الكلي الذي يكشف عن نفسه في نهاية الامر.. فيعود الى نفسه اخيراً – وعند ذلك تكتمل دائرة التطور. ان المفهوم الماركسي للتطور لا يناقض فقط هذا المفهوم المثالي، وانما يناقض ايضاً فكرة اكتمال وانغلاق الدائرة؛ ويرى ان التطور يسير على صورة لولبية متسعة الحلقات ابداً، ولا نهاية لها.

• وقانون نقض النقيض خطأ ايضاً، عندما لا يرى في كل عملية من عمليات تطور الاشياء إلا اتحاد (نقيضين). ان هذا يصدق فقط على العمليات البسيطة، بينما العمليات المعقدة (وهي الظاهرات الاكثر شيوعاً وتنوعاً في الطبيعة والمجتمع والفكر) اكثر من زوج واحد من النقائض المتضادة المتعارضة.

• ولكن نقض النقيض، صحيح (بصيغته الماركسية)، عندما يعني: التناقض، الحركة، التطور – ومن هنا قيل ان ماركس قد انتزع من ديالكتيك هيكَل لبّه المعقول ونبذ قشرته المثالية.

• وبهذا المعنى فقط يعتبر نقض النقيض – قانونا اساسيا من القوانين العامة للحركة – وما الديالكتيك الا علم القوانين العامة للحركة.

• وكونه قانوناً عاماً، لا يصلح قانون نقض النقيض أن يكون وسيلة للاختبار والتعرف على الأشكال المعقدة للحركة (أي التعرف على الاختلاف النوعي بين شكل وآخر من أشكال الحركة – التي يؤلف كل منها موضوع الدراسة لنوع معين من فروع العلم)، ولا على التغيرات التي تحصل بنتيجتها – وليس بشرط أيضاً أن تأتي النتائج بشكل "وحدات عليا هيكَلية". ان اشكال التغيرات (ولا سيما في الكيمياء – التي يسميها ماركس علم التغيرات) لهي أدق وأعقد ألف مرة من أن يستطيع قانون نقض النقيض حلها.

فمن المعروف مثلا، ان حامض الهايدروليك (HCL) وحامض الكبريتيك (H2So2) وحامض النايتريك (HN03) يحتوي كل منها على عنصر الهايدروجين الذي يمكن ابداله بفلز عند تفاعله معه. وتفاعل أي من هذه الحوامض مع الفلز ينتهي (وهذه القاعدة العامة) الى نقضهما وانتقالهما الى شكل جديد من أشكال الحركة (نقض النقيض). ولكن ما هي هذه النتيجة (التي هي نقض النقيض) هل هي نتيجة واحدة؟ هل هي مركب أعلى يجمع بين خصائص النقيضين دوماً؟ كلا!

أ- فعندما يتفاعل أي من هذه الحوامض مع أحد الفلزات المتقدمة في جدول الاحلال (كالبوتاسيوم والصوديوم) فإننا لا نحصل على الهيدروجين وانما نحصل على "انفجار"!

ب- وعندما يتفاعل حامض الكبريتيك المركز أو حامض النايتريك (المركز أو المخفف) مع أحد الفلزات الوسطى في جدول الاحلال (كالنحاس مثلا)، فاننا لا نحصل أيضاً على الهيدروجين، وانما على غازات أخرى (كأوكسيد النايتريك).

ج- ولكننا نحصل على الهيدروجين نتيجة تفاعل حامض الكبريتيك المخفف مع الخارصين، حيث يحل الخارصين محل الهايدروجين الموجود في الحامض، ويتحد بالباقي مكوناً ملحاً ذا بلورات بيضاء يسمى (كبريتات الخارصين).

اين نقض النقيض من كل هذه النتائج المتغايرة؟ وكيف يستطيع أن يسعفنا في التعرف على (التناقضات الخاصة) لكل من هذه العمليات؟!

لنأخذ مثلاً آخر على اتحاد الاضداد والحصول على نتيجة ليس لخواصها أي أثر من تشابه أو قرابة مع خصائص نقيضيهما: من المعلوم ان (الكلور) غاز سام لونه أصفر مخضوضر. وان (الصوديوم) هو فلز سهل التأكسد في الهواء وأخف من الماء. ولكن ما الذي نحصل عليه من تفاعل هذين العنصرين؟ نحصل على (ملح الطعام) الذي نستعمله في الأكل – وهو يختلف كل الاختلاف عن خواص كل من الكلور والصوديوم، وهو غير سام ويذوب في الماء.

وعدا ذلك فليست كل التفاعلات الكيمياوية هي مجرد (اتحادات). فهناك الاحلال (أي احلال عنصر محل عنصر آخر في مركب ما، أو تبادل مركبين لعنصريهما. بل هناك عمليات التحلل (أي إعادة المركب نفسه الى عنصريه من جديد) - أي الى نقض الوحدة العليا نفسها - اذا صح التعبير. وهناك الى جانب هذه (النوعيات المختلفة) من أشكال الحركة، عوامل (خارجية) كثيرة

تؤثر على نتائجها: فاختلاف النسب بين الذرات المتفاعلة، والضغط، والحرارة، ودرجة تركيز المواد المتفاعلة، والعوامل المساعدة الوسيطة.. الخ - كلها عوامل تؤدي الى نتائج بالغة التباين.

ففي كل هذه الحالات، لسنا دوماً أمام مركبات عليا تجمع بين خصائص نقائضها وتجسد صفاتها - ولكننا أمام عمليات معقدة، لكل منها (نقائضها الخاصة) التي لا يمكن التعرف عليها أو حلها أو تحديد نتائجها، بواسطة قانون نقض النقيض.

إننا أمام عمليات تناقض وتغير.. أمام انتقال المتناقضات الى أشكال جديدة من أشكال الحركة.

ولكل من هذه العمليات خصائصها وشروطها ونتائجها التي لا يمكن استنباطها بواسطة قانون عام من قوانين الحركة، وانما بواسطة التجربة، والبحث والاستقصاء، ووسائل العلم الاخرى.

ضع قانون نقض النقيض جانباً.. تمسك بمفهوم التناقض، الحركة، التغيير (كقانون عام - عموميته التناقض).. فذلك هو جوهر الديالكتيك الماركسي؛ واختبر كل عملية تطورية على ضوء التجربة لغرض التعرف على (تناقضاتها الخاصة) والوسائل الخاصة لحلها - وذلك في نطاق خصائصها، وظروفها، وارتباطاتها، وبالاستناد الى آخر معطيات العلم الصحيحة.

تلك هي الطريقة الديالكتيكية في البحث!

*** (الثقافة الجديدة)/ العدد الخامس عشر – السنة الثامنة – مارس ونيسان 1960**

الهوامش:

1- راجع ص 834 - 837 - الطبعة الانجليزية.
2- راجع ص 837 من المصدر ذاته.
3- راجع ص 838 - 837 والخمسين صفحة التي قبلها وكذلك ص 90 من ذات المصدر.
4- رأس المال ص 836 - 837 – الطبعة الانجليزية.
5- في الرد على دوهرينج – قسم الفلسفة – في الفصل الثالث عشر.
6- الاعمال المختارة بالانجليزية ص 101 - 102.
7- راجع "رأس المال" المقدمة.
8- يكفي أن نشير هنا الى التعليل الذي اعطاه هيكَل لسقوط الاغريق. فهو يرى ان السبب الأكثر أهمية في سقوط الاغريق هو انهم قد اعربوا عن مرحلة واحدة من مراحل تطور الفكر المطلق، لذلك كان محكوماً عليهم بالسقوط عندما تم انجاز هذه المرحلة، ويقول: "ان العلاقات الاجتماعية ومجرى التطور التاريخي للانسانية كله، انما تقرره في التحليل الأخير نواميس المنطق (يقصد طريقته الثلاثية) ومجرى تطور الفكر".

نصوص مترجمة

الاحتجاج في الحركات الاجتماعية *

دوناتيلا ديلا بورتا **
ترجمة: نجاح الجبيلي

دوناتيلا ديلا بورتا

تعريف

يشتمل الاحتجاج على طرقٍ غير روتينية للتأثير على العمليات السياسية والاجتماعية والثقافية. أقرّت الأبحاث الاستقصائية، منذ الستينيات على وجه الخصوص، أن "مجموعة جديدة من الأنشطة السياسية قد أضيفت إلى الذخيرة السياسية للمواطنين". من بين الأشكال "غير التقليدية" للمشاركة السياسية أدرج البحث العلمي الاجتماعي الطلبات الموقّعة، التظاهرات المجازة قانونياً، المقاطعة، الامتناع عن دفع الإيجار أو الضرائب والمهن، الاعتصامات، عرقلة حركة المرور، والإضرابات الجامحة. كان هذا التوسع في ذخيرة المشاركة السياسية بالفعل سمة طويلة الأمد للسياسة الديمقراطية. وبعد أكثر من عقدين من الزمان، أكدت تحليلات استطلاعات الرأي من قبل منظمة World Value Surveys أن "العديد من هذه الأشكال من النشاط، مثل الالتماسات والمظاهرات ومقاطعة المستهلكين، منتشرة إلى حد ما واكتسبت شعبية متزايدة خلال العقود الأخيرة. سياسة الاحتجاج آخذة في الارتفاع كقناة للتعبير السياسي والحراك".

أدى انتشار الاحتجاج ذاته إلى فتح نقاش حول إمكانية اعتباره ذخيرة غير روتينية أو غير تقليدية. في حين أن مجموعة واسعة من الجهات الفاعلة تستخدمها بشكل متكرر أكثر فأكثر، إلا أنه ما زال صحيحاً أن تحالفات القانون والنظام، مراراً وتكراراً، تحدَّت شرعية أشكال الفعل التي ما زالت تعتمد في كثير من الأحيان على تعطيل الروتين اليومي، والقواعد

والنظام في كثير من الأحيان. فليس من قبيل الصدفة، أن يجري قمع موجات الاحتجاج الجديدة بقوة حتى في الديمقراطيات.

سمة أخرى للاحتجاج هي كونها علائقية. كما أكدت دراسات الحركة الاجتماعية، فإن نمط الاحتجاج هو استخدام القنوات غير المباشرة للتأثير على صانعي القرار، مما يؤدي إلى تحريك عملية الإقناع بوساطة وسائل الإعلام وحلفاء أقوياء. كما أشار مايكل ليبسكي، "يكون الاحتجاج ناجحاً إلى الحد الذي يتم فيه تنشيط الأحزاب الأخرى للمشاركة السياسية".

لقد جرى اقتراح أنواع مختلفة من الاحتجاج. يمكن أن يكون الاحتجاج متطرفاً إلى حد ما في طبيعته، بدءاً من تقديم الالتماسات التقليدية إلى المزيد من عمليات الحصار المتنازع عليها، بما في ذلك عدد من حلقات العنف. يمكن أيضاً تمييز أشكال الاحتجاج وفقاً للمنطق أو طريقة العمل التي يحددها النشطاء: منطق الأرقام، منطق الضرر، أو منطق الشهادة.

الاحتجاج كخيار استراتيجي

حللت الأبحاث حول الحركات الاجتماعية الاختيارات بين أشكال الاحتجاج كخيارات استراتيجية تأخذ في الاعتبار تعدد الأهداف، وتُوازن بين الحاجة إلى الحفاظ على التزام الأعضاء مع الالتزام بالحصول على دعم الجمهور والتأثير على صانعي القرار العام. ونظراً لافتقارها إلى الموارد المادية للاستثمار بحوافز مادية انتقائية، من المهم بشكل خاص إيجاد تكتيكات مناسبة أيضاً لتحقيق الأهداف الداخلية. بالنسبة للحركة العمالية، كان للإضرابات أكثر من مجرد وظيفة آلية، وهذا ينطبق أيضاً على اعتصامات الحركة الطلابية، التي تعزز الهوية الجماعية والتضامن المتبادل. في أحدث موجة من الاحتجاجات، ظهرت المخيمات كأشكال احتجاجية تتمتع بقدرة استباقية عالية جداً. في ميدان طاهر، أو "بلاكا ديل سول"، أو ميدان "سينتاغما"- وآلاف الميادين الأخرى المشغولة لأسابيع أو شهور في جميع أنحاء العالم - يعد الاعتصام في ساحة عامة أكثر بكثير من مجرد تكتيك تخريبي، مما يسمح بدلاً من ذلك بتجربة ممارسات جديدة للديمقراطية والأشكال الجديدة للعلاقات الاجتماعية.

مع ذلك، قد تؤدي الإجراءات المناسبة لتعزيز التضامن الداخلي، في ظل بعض الظروف، إلى تقليل الدعم الخارجي. إذا كانت الإجراءات الراديكالية والمباشرة تميل إلى الحفاظ على الدعم العام، فإنها مع ذلك تخاطر بعزل الحلفاء المحتملين، إذ أنه كلما كان المسار السياسي غير التقليدي أكثر سلمية ومؤسساتية (تقديم الالتماسات، على سبيل المثال)، زاد مستوى القبول العام (كما أظهرت استطلاعات

الرأي). اكتسبت معسكرات حركات "أنديغنادوس" Indignados قدرة قوية على تحديد الهوية، أدت إلى حدوث أزمات خطيرة بسبب عمليات الإخلاء التي تقوم بها الشرطة.

إنّ وسائل الإعلام وثيقة الصلة جداً بنشر رسائل الحركة، ولكن من الصعب تماماً إرضاء الغرباء. أظهرت الأبحاث حول تغطية الاحتجاج، من أجل الحصول على تغطية إعلامية، يجب أن يشمل العمل عدداً كبيراً من الأشخاص، أو استخدام تكتيكات متطرفة، أو يكون بشكل خاص إبداعياً.

لكن في الوقت نفسه، أكدت الأبحاث أيضاً مراراً وتكراراً أن وسائل الإعلام تميل إلى وصم العنف السياسي باعتباره سلوكاً إجرامياً منحرفاً. في حين أن التقنيات الجديدة (من نوع الويب1 والويب2) زادت بلا شك من قدرة منظمات الحركات الاجتماعية، وحتى الناشطين الفرديين على التواصل، ما زالت هناك صعوبة في توسيع نطاق الجمهور العام إلى ما هو أبعد من أولئك المتعاطفين بالفعل.

قد تتسبب بعض أشكال العمل أيضاً في تصعيد القمع ونفور المتعاطفين. يعمل العنف، على وجه الخصوص، على استقطاب النزاعات الاجتماعية، ويحول العلاقات بين المنافسين والسلطات من لعبة مفتوحة متعددة الجوانب إلى لعبة ثنائية القطب، إذ يضطر الناس إلى اختيار جانب، وينشق الحلفاء، وينسحب المتفرجون، ويتأرجح جهاز الدولة القمعي إلى أفعال.

يعد اختيار شكل العمل وسيلة مفيدة، وكما ذكرنا، فإن الاحتجاج له أيضاً وظيفة تمهيدية لنشطاء الحركة الاجتماعية. لا تبرر الأهداف الوسيلة، ولا يدور الكثير من الجدل داخل الحركات الاجتماعية حول الفعالية فقط ولكن أيضاً حول المعنى والقيمة الرمزية. أكد جيمس جاسبر، مشدداً على النشوة والمتعة التي ينطوي عليها الاحتجاج، أن "التكتيكات تمثل إجراءات روتينية مهمة، وتبرز عاطفياً وأخلاقياً في حياة هؤلاء الأشخاص".

الذخيرة والتغييرات التاريخية

بالإضافة إلى الاهتمامات النفعية والأخلاقية، فإن اختيار أشكال الفعل مقيد أيضاً في الزمان والمكان. استخدم تشارلز تيلي مفهوم "ذخيرة الفعل الجماعي" لتحديد الاختلافات في أنواع الأفعال الشرسة المنتشرة في فترات تاريخية معينة. وأشار بحثه أولاً إلى النظام الذي يمكن أن يعثر عليه فيما يعد بصورة رئيسة كعَرَض والصراعات السياسية القابلة للقراءة فيما عرضته السلطات على أنه اضطراب. وكما أشار، فإن عمل الذخيرة يجري من خلال تكرار عدد محدود من الإجراءات، وتهدف إلى تحقيق تأثيرات سياسية.

وشدّد على دور الناس العاديين

في صنع التاريخ، ونظر إلى تطور السياسات الجدلية في فرنسا وبريطانيا العظمى، التي تميزت بتغير عميق، وتطور بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. قبل ذلك، كان الاحتجاج حاضراً في التاريخ الأوروبي: أحرق الفلاحون المطاحن احتجاجاً على ارتفاع أسعار الخبز؛ مواطنون يرتدون ملابس من أجل السخرية من رؤسائهم؛ يمكن تحويل الجنازات إلى مناسبة للتنديد بالظلم. وتشترك هذه التجمعات الجدلية ببعض الخصائص: فقد كانت ذات نطاق ضيق، وخاطبت بشكل أساسي الفاعلين المحليين أو الممثلين المحليين للفاعلين الوطنيين، واعتمدت على المحسوبية - "مناشدة للاستفادة منها على الفور من قبل أصحاب السلطة القادرين على نقل المظالم أو تسوية النزاعات، والعمل مؤقتاً في مكان أصحاب السلطة غير المستحقين أو غير النشطين فقط للتخلي عن السلطة بعد الفعل".

إنّ الذخيرة الجديدة للاحتجاج الأوروبي، الذي تطور في نهاية القرن الثامن عشر- والذي اشتمل على أعمال مثل الإضرابات، والتجمعات الانتخابية، والاجتماعات العامة، والعرائض، والمسيرات، والعصيان، وغزو الهيئات التشريعية - كان بدلاً من ذلك وطنياً، "على الرغم من أنه متاح للقضايا والأعداء المحليين، إلا أنه يفسح المجال بسهولة للتنسيق بين العديد من المواقع"، وهو مستقل، لأنه "بدلاً من البقاء في ظل أصحاب السلطة الحاليين وتكييف الإجراءات الروتينية التي يقرونها، يميل الناس الذين يستخدمون الذخيرة الجديدة إلى المبادرة ببياناتهم الخاصة عن المظالم والمطالب".

مفهوم نقاط الذخيرة هو الخصائص المحددة والمقيدة تاريخياً للاحتجاج: إنه في الواقع محدود في أشكاله المقيدة في كل من الزمان والمكان. في الواقع، تتم إعادة إنتاج الذخائر بمرور الوقت، لأنها ما "يعرفه المحتجون". تميل أشكال العمل المستخدمة في حملة احتجاجية واحدة إلى تبنيها وتكييفها في الحملات اللاحقة، إذ يقلّد النشطاء ما حدث في موجات الاحتجاج السابقة. تنتقل التقاليد في الواقع من جيل من النشطاء إلى جيل آخر. على سبيل المثال، تطورت المسيرة العامة من ممارسة إقامة مأدبة انتخابية ثم تطورت من خلال إضفاء الطابع المؤسساتي على طقوس وهياكل معينة مثل التجمع الختامي وإدارة المسيرات.

إنّ الذخائر متجذرة في الثقافات السياسية المشتركة للناشطين، وتحتوي على الخيارات العملية المعروفة والمعتبرة، مع استبعاد الأخرى. ومن ثم فإن ذخيرة الاحتجاج هي "شيء مثل المعنى المسرحي أو الموسيقي للكلمة. لكن الذخائر المعنية تشبه تلك الخاصة بالكوميديا دلارتي commedia[1]

dell'arte أو الجاز أكثر من تلك الخاصة بالمجموعة الكلاسيكية تماماً: يعرف الناس القواعد العامة للأداء بشكل أو بآخر، ويغيرون الأداء لتلبية الغرض المطروح''. ومع ذلك، فقد جرى ابتكار الذخائر أيضاً، من خلال التجارب بأشكال جديدة ومجموعة جديدة من الأشكال القديمة. يجري استيراد أشكال الأفعال - وخاصة الناجحة منها - من حركات ودول وأجيال أخرى. يشهد التاريخ الأوروبي الخلاف على تعميم بعض أشكال الفعل (مثل الإضراب أو حواجز الطرق) من مجموعات اجتماعية وسياسية محددة لمعظمها. بالإضافة إلى ذلك، يقدم كل جيل جديد أشكالا محددة في الذخيرة، أو يتكيف مع الأشكال القديمة. على سبيل المثال، تغيرت طقوس المسيرات مع مرور الوقت لتتكيّف مع الأزمنة الحديثة (أو ما بعد الحداثة): من تلك الموجهة لإظهار الوحدة والتنظيم إلى أخرى أكثر مسرحاً، مما يعطي مساحة للتعبير الملون عن التنوع والذاتية. وجدت أشكال الاحتجاج مثل[2] Charivari أو ''Katzenmusik''(نغمات متنافرة)، المستوردة من ذخيرة ما قبل الحداثة، مكانها أيضاً في النزاعات المعاصرة.

الدورات والفرص

الفعل ينتج الفعل، إذ تميل أفعال الاحتجاج إلى التجمع في الوقت المناسب. كما لاحظ بيسنجر، في تحليله للصراعات القومية التي نشأت مع انهيار الاتحاد السوفيتي، من أجل فهم الاحتجاج، على المرء أن يأخذ بعين الاعتبار أن الأحداث والخلاف حول الهوية التي تمثلها لا يتم توزيعها عشوائياً عبر الزمان والمكان. فظهورها منظم من حيث الوقت والمكان. لذا تأتي الاحتجاجات على شكل سلاسل وموجات ودورات وتيارات ''وتشكل تاريخاً متقطعاً من التحديات المتزايدة والاستقرار النسبي''. ذلك يعني أن الأحداث مترابطة بالتتابع في ما بينها عبر الزمان والمكان بطرق عديدة: في سرد الصراعات التي ترافقها، وفي التوقعات المتغيرة التي تولدها حول الاحتمالات اللاحقة للتنافس؛ وفي التغييرات التي تثيرها في سلوك تلك القوى التي تدعم نظاماً معيناً، وفي المشهد المتحول إذا كان يعني أن الأحداث في بعض الأحيان تكون موضة. على حد تعبير بيسينغر، فإن موجات الاحتجاج، باعتبارها ''ظاهرة نمطية''، تتقدم على شكل ''عدد متزايد من المجموعات ذات الشروط الهيكلية الأقل تفضيلًا التي يتم دفعها إلى الفعل نتيجة لتأثير المثال السابق الناجح للآخرين''.

وبالمثل، جرى تعريف دورات الاحتجاج على أنها مراحل من الخلاف المتصاعد الذي يتطور عبر النظام الاجتماعي والسياسي. ويشير تارو إلى أنها تشمل ''الانتشار السريع للعمل الجماعي من القطاعات الأكثر

تحشيداً إلى القطاعات الأقل تحشيداً؛ وتسارع وتيرة الابتكار في أشكال الخلاف؛ وأطر العمل الجماعي الجديدة أو المحولة؛ ومزيج من المشاركة المنظمة وغير المنظمة؛ وسلاسل من الإجراءات المتبادلة المكثفة بين المُتَحدِّين والسلطات والتي يمكن أن تنتهي بالإصلاح والقمع وأحياناً الثورة".

ومن المتوقع أيضاً أن تتبع دورات الاحتجاج، كونها دورات اقتصادية، مساراً تصاعدياً، يليه ذروة ثم انخفاض. وبكلمات تارو، فإنها تنتقل "من الصراع المؤسساتي إلى الذروة الحماسية ثم إلى الانهيار النهائي. بعد أن تكتسب الاهتمام الوطني واستجابة الدولة، تصل إلى ذروة الصراع التي تتميز بوجود منظمي الحركات الذين يحاولون إطلاق التمرد ونشره إلى جمهور أوسع. عندما يجري توجيه المشاركة إلى المنظمات، تتخذ الحركات، أو جزء منها، منطقاً سياسياً أكثر- الانخراط في مساومة ضمنية مع السلطات. في كل حالة، مع انسحاب الدورة، تتحول المبادرة إلى النخب والأحزاب".

الديناميكية المتكررة للصعود والهبوط متأصلة في مفهوم الدورة. تنتشر الدورات من خلال المظاهرة، مثل "من خلال إظهار ضعف السلطات، فإن الحركات البارزة الأولى تخفض كلفة الفعل الجماعي من أجل الجهات الفاعلة الأخرى". ومع ذلك، فإنها تنطوي أيضاً على المنافسة لأن "الانتصارات التي حصلت عليها تقوّض النظام السابق للأشياء، وتثير حراكاً مضاداً". الانتصارات، حتى لو كانت موضع نزاع، تنشر الاحتجاج إلى مجموعات جديدة: الحركات المنبثقة تقلد الحركات الصاعدة أولاً، وبالتالي توسع نطاق المطالب.

تميل أشكال الاحتجاج، إلى جانب الصعود والهبوط، إلى التغيير على مدار الدورة. في المراحل الأولى من الاحتجاج، تبرز إلى الواجهة التكتيكات الأكثر تخريباً، ولكنها ليست في الغالب عنيفة؛ كما جرى اختراع أشكال جديدة من قبل الفاعلين الجمعيين الجدد، في حين أن أولئك الذين يعيدون التعبئة من دورات الاحتجاج السابقة يجلبون ذخيرتهم التقليدية. ومع انتشار الاحتجاج تميل النخب إلى الاستجابة مع مزيج متغير من القمع والاستقطاب الذي يبدأ، في الوقت نفسه، بعمليات التطرف والمأسسة.

في بعض اللحظات، مثل دورات الاحتجاجات في السبعينيات، لا سيما في بلدان مثل إيطاليا أو ألمانيا، تميل أشكال الاحتجاج إلى التطرف، وفي بعض الحالات حتى تشكيل منظمات سياسية سرية. كان التطرف تدريجياً غالباً وينشأ خلال التفاعلات في شوارع الحركات والحركات المضادة والشرطة. في بداية الاحتجاج، كان العمل العنيف

محدوداً في وجوده، صغير النطاق وغير مخطط له، تطور بشكل أساسي كنتيجة غير متوقعة لعمل مباشر مثل الاعتصامات أو الاحتلالات. مع تزايد الاحتجاج، انتشرت أشكال الفعل العنيفة في البداية بشكل أبطأ من تلك غير العنيفة، واتخذت شكل مصادمات بين المتظاهرين والشرطة أو المتظاهرين المضادين. بدأت هذه الحلقات على أنها عرضية، ومع ذلك، تميل إلى التكرار واكتساب صفة شعائرية. خلال هذه العملية، بدأت مجموعات صغيرة تتخصص في التكتيكات المتطرفة بشكل متزايد، وأنشأت هياكل متخصصة للفعل العنيف، وفي بعض الأحيان كانت تعمل سراً. إن مجرد وجود هذه الجماعات ساهم في عملية التسريح. وهكذا شهدت المراحل الأخيرة من الدورة عملية إضفاء الطابع المؤسساتي وظهور عدد متزايد من أعمال العنف.

نتيجة مساهمات تيلي وتارو المبكرة في دراسة الحركات الاجتماعية، جرت دراسة أفعال الاحتجاج بشكل أساسي على أنها حاصل فعل جماعي. عُدَّ الاحتجاج كونه "متغيراً تابعاً" ويجري شرحه على أساس الفرص السياسية والموارد التنظيمية. جرى الاستشهاد بفتح الفرص السياسية لتفسير ظهور دورات الاحتجاج. يميل الفاعلون الجماعيون في الواقع إلى الحراك قبل كل شيء حينما وحيثما يرون إمكانية النجاح: لذا فإن فتح قنوات الوصول يميل إلى أن تكون أشكال الاحتجاج معتدلة، بينما يؤدي إغلاقها إلى التطرف.

وبعيداً عن الاختلافات الزمنية، هناك أيضاً خصوصيات ذخيرة الاحتجاج الوطنية، ذلك البحث العابر للوطنية في الواقع جرى عزله وربطه بخصائص سياسية أكثر استقراراً. لذا، فإن الاحتجاج أكثر اعتدالا في البلدان التي تتميز بالتقسيم الوظيفي للسلطة، واللامركزية الإقليمية، وثقافة سياسية شاملة. في البلدان الأوربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وفرنسا وألمانيا فإن الاستبداد والتقديم المتأخر للاقتراع أدى إلى حركة عمل منقسمة متطرفة. من جهة أخرى فإنه في البلدان الأصغر ذات الأسواق المفتوحة في بريطانيا العظمى والدول الاسكندنافية، من ناحية أخرى، إذ لم يتم تقديم أي تجربة للاستبداد والاقتراع العام، أنتجت الاستراتيجيات الشاملة المبكرة حركة عمالية موحدة ومعتدلة. وفي إيطاليا، كانت النقابات التي تعرضت للقمع المستمر أكثر حرصاً على دعم الاحتجاجات الجماهيرية، حتى من النوع الأكثر اضطراباً.

شدّدت الأبحاث حول دورات الاحتجاج أيضاً على أهمية التفاعلات الجسدية والرمزية بين المتظاهرين والشرطة، وبالتالي مراقبة الاحتجاج المتأثر بالتاريخ الديمقراطي الوطني. ظهرت في إيطاليا خلال السبعينيات،

تكتيكات جذرية في سياق تصعيد استخدام القوة لحفظ الأمن في المسيرات والمظاهرات. أصبحت تدخلات الشرطة والمنظمات شبه العسكرية carabinieri أكثر تحديدا في حين اشتبكت مجموعات اليسار واليمين المتطرفة بأسلحة أكثر فتكا: الحجارة وقنابل المولوتوف والمفكات، وفي النهاية البنادق.

وفي وقت لاحق، عكَسَ انتشار خفض التصعيد في استراتيجيات الشرطة إضفاء الطابع الروتيني على بعض أشكال الاحتجاج، فضلاً عن إضفاء الشرعية على بعض الجهات الفاعلة في الاحتجاج. تُظهر الاحتجاجات الأخيرة بعض الاتجاهات المعاكسة لا سيما عند دخول فاعلين جدد وأشكال عمل جديدة إلى المشهد. إن عسكرة تدريب الشرطة ومعداتها لها تأثير واضح في مراقبة بعض أفعال الاحتجاج، خاصة وأن القضايا الأمنية (بعد 11 سبتمبر) مقترنة بمبادئ "عدم التسامح المطلق"، حتى بالنسبة للجرائم البسيطة أو الإخلال بالنظام العام. كان للحرب على الإرهاب تأثير قوي على مراقبة الاحتجاج، فضلاً عن الحرية الفردية على الصعيدين الوطني وعبر الوطني. من الأمور الحساسة بشكل خاص في هذا الصدد أحداث الاحتجاج العابرة للحدود الوطنية، التي برزت بشكل كبير وتوحد النشطاء من مختلف البلدان.

الاحتجاج الحافل بالأحداث

في مقال حديث عن مساهمة تشارلز تيلي الهائلة في البحث عن ذخيرة الاحتجاج، وصف سيدني تارو عمله الأولي بأنه تأثر بـ"الإقناع البنيوي" الموروث من بارينجتون مور الابن. من بين الشروط الهيكلية المسبقة لتطور الحركات الاجتماعية (مثل حملات الاحتجاج المستمرة التي تحشدها الجمعيات الخاصة) هي التغييرات الهيكلية طويلة الأمد مثل القوة المتزايدة للدولة، برلمة السياسة الوطنية والتمدين والبروليتارية. وعلق تيلي نفسه قائلاً: "في تلك الأيام البعيدة، "الطريقة تعني التحليل الإحصائي"، والتفسير يتجاهل العمليات التحويلية".

حتى لو ركز تيلي على الأحداث اليومية العادية، فقد شدد في عمله اللاحق على المزيد والمزيد من التواريخ الحافلة بالأحداث فوق حساب الحدث. وبعد أن يوضح تطور ذخائر الاحتجاج فإنه يضيف أيضاً إلى الظروف الخارجية (التي من بينها هياكل النظام والفرصة) تاريخ السياسات الخلافية نفسها. وفي سياق مماثل، جرت صياغة مفاهيم مثل الأحداث التحويلية أو "الاحتجاج الحافل بالأحداث" لتأكيد آثار الاحتجاج على الحركات الاجتماعية والنشطاء أنفسهم. تميل أحداث الاحتجاج في الواقع إلى تغذية آليات التغيير

الاجتماعي: أثناء الاحتجاجات، تتطور الشبكات التنظيمية؛ وتعزز الإطارات ذات الروابط الشخصية الموصولة من الثقة المتبادلة. وخلال بعض أحداث الاحتجاج على وجه الخصوص، تتطور الخبرات الجماعية من خلال تفاعل مختلف الفاعلين الفرديين والجماعيين، الذين يشاركون فيها بأدوار وأهداف مختلفة.

في عمله عن تاريخ الحركة العمالية الفرنسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عرّف ويليام إتش سيويل مفهوم الزمانية الحافلة بالأحداث. فهي تختلف عن الزمانية الغائية، التي تفسر الأحداث على أساس العمليات التجريدية العابرة للتاريخ "من الأقل إلى الأكبر" (التمدين، والتصنيع، وما إلى ذلك)، ومن "الزمانية التجريبية"، بمقارنة المسارات التاريخية المختلفة (الثورة مقابل عدم الثورة، والديمقراطية مقابل اللاديمقراطية)، "تدرك الزمانية المليئة بالأحداث قوة الأحداث في التاريخ". ووفقاً لسيويل، الأحداث هي "فئة فرعية نادرة نسبياً من الأحداث التي تغير الهيكل بشكل كبير"؛ إن المفهوم الحافل بالأحداث للزمانية هو ذلك الذي يأخذ في الحسبان تحول الهياكل عن طريق الأحداث. إنّ الأحداث لها آثار تحويلية بقدر ما هي "تحول الهياكل إلى حد كبير من خلال تشكيل وتمكين مجموعات جديدة من الجهات الفاعلة أو عن طريق إعادة تمكين المجموعات القائمة بطرق جديدة". أدت بعض أحداث الاحتجاج إلى تحريك العمليات الاجتماعية "التي هي بطبيعتها عرضية، ومتقطعة، ومفتوحة النهاية".

بالإشارة إلى الزمانية الحافلة بالأحداث، تم تطوير مفهوم الأحداث التحويلية لتمييز الأحداث ذات التأثير الرمزي العالي. كما لاحظ ماك آدم وسيويل، "لا يمكن لأي توصيف سردي لحركة اجتماعية أو ثورة استبعاد الأحداث... لكن دراسة الحركات أو الثورات الاجتماعية - على الأقل كما يقوم بها عادة علماء الاجتماع أو علماء السياسة - نادراً ما أولت اهتماماً تحليلياً إلى الملامح الاتفاقية والمغزى الطارئ لأحداث عنيفة مثل هذه". لذلك دعا الباحثان إلى تحليل الطرق التي "تصبح فيها الأحداث نقاط تحول في التغيير الهيكلي، ولحظات مركزة من الإبداع السياسي والثقافي عندما تتم إعادة تشكيل منطق التطور التاريخي عن طريق الفعل الإنساني لكن يجري إبطاله بأي حال من الأحوال".

جرى تمييز لحظات من التحولات المركزة بشكل خاص في تلك الأحداث المرئية جداً والتي تنتهي بترميز حركات اجتماعية بأكملها - مثل الاستيلاء على الباستيل في الثورة الفرنسية أو "مقاطعة حافلات مونتغومري"[3] في حركة الحقوق

المدنية الأمريكية. خلال دورات الاحتجاج بشكل خاص، تظل بعض الأحداث (على سبيل المثال، تحدّي شاه إيران في برلين عام 1967، أو معركة "فالي جوليا" في روما عام 1968) مثار إعجاب في ذاكرة النشطاء باعتبارها أحداثاً مشحونة عاطفياً، ولكنها تمثل أيضاً نقاط تحول مهمة في تطور الهياكل التنظيمية واستراتيجيات الحركات. يتضمن تاريخ كل حركة والسياسة الجدالية في كل بلد دائماً بعض الاحتجاجات "الحافلة بالأحداث".

في مفهوم الاحتجاج الحافل بالأحداث، تركز "دوناتلا دلا بورتا" على الديناميكيات الداخلية والقدرة التحويلية للاحتجاج، مع النظر إلى نطاق أوسع من الأحداث من تلك المدرجة تحت عنوان الحدث التحويلي. وتفترض أن الاحتجاجات لها تأثيرات معرفية وعاطفية وعلائقية على نفس الحركات التي تنفذها. من خلال أحداث الاحتجاج، تتم تجربة تكتيكات جديدة، ويتم إرسال إشارات حول إمكانية العمل الجماعي، ويجري إنشاء شعورٍ بالتضامن، وتوحيد الشبكات التنظيمية، وفي بعض الأحيان يجري تطوير الغضب العام من القمع. لذا فإنّ الاحتجاج هو "ناتج ثانوي" للاحتجاج نفسه، إذ تنتج النزاعات رأس المال الاجتماعي، والهوية الجماعية، والمعرفة التي تُستخدم بعد ذلك لإنشاء حراك جماعي.

أوضحت دراسة حول الاحتجاجات العابرة للحدود، مثل القمم المضادة للاتحاد الأوروبي والمنتديات الاجتماعية الأوروبية، بشكل خاص على ما يجعل الاحتجاج مليئاً بالأحداث من خلال التمييز بين الآليات المعرفية، مع الاحتجاج كميدان للنقاش: الآليات العلائقية، التي تؤدي إلى شبكات الاحتجاج، والآليات العاطفية، من خلال تنمية مشاعر التضامن "أثناء الفعل". على الرغم من أن الأشخاص الأكثر تنوعاً يستخدمون الاحتجاج كل يوم، إلا أنه لا يزال نوعاً من الأحداث التي تميل إلى إحداث تأثيرات، ليس فقط على السلطات العامة أو الرأي العام، ولكن أيضاً (ربما بشكل أساسي) على ممثلي الحركة أنفسهم. تظهر هذه التأثيرات بشكل أكثر وضوحاً في بعض أشكال الاحتجاج المحددة التي تتطلب عمليات تحضيرية طويلة، حيث تلتقي مجموعات مختلفة معاً (على سبيل المثال، الحملات العابرة للوطنية)، وتؤكد على أهمية الاتصال (على سبيل المثال، المنتديات الاجتماعية)، وتكون مكثفة بشكل خاص من وجهة نظر عاطفية (على سبيل المثال، صراعات رمزية وجسدية حول المواقع المحتلة). هذه الأنواع من الاحتجاج "حافلة بالأحداث" بشكل خاص، أي أن لها تأثيراً معرفياً وعلائقياً وعاطفياً وثيق الصلة بالمشاركين وغيرهم.

الأحداث طويلة الأمد (أو سلاسل الأحداث، مثل الحملات)، وساحات التواصل الشاملة، والمساحات الحرة هي أشكال من الاحتجاج تبدو مناسبة بشكل خاص لخلق تأثيرات علائقية ومعرفية وعاطفية على المتظاهرين. الطابع العابر للحدود للاحتجاج في الآونة الأخيرة، بالإضافة إلى عدم التجانس الداخلي لموجات الحراك الأخيرة (مع "حركة الحركات" كتعريف ذاتي لها)، أضافا قيماً إلى أهمية تلك الآليات العلائقية والمعرفية والعاطفية التي تجعل الاحتجاج حافلاً بالأحداث.

*** الفصل الأول (Protest in Social Movements) من كتاب (Protest Cultures: A Companion):**
Donatella Della Porta; Protest in Social Movements; Kathrin Fahlenbrach, Martin Klimke, and Joachim Scharloth (edirors); Protest Cultures: A Companion; Berghahn Books;2016; p:13-25.

****دوناتيلا ديلا بورتا Donatella della Porta: باحثة إيطالية في علم الاجتماع وأستاذة في قسم العلوم السياسية والاجتماعية في معهد الجامعة الأوروبية، حيث تدير مركز دراسات الحركة الاجتماعية (كوزموس). كما أنها تدير مشروعاً رئيسياً لمجلس الأبحاث الأوروبي بعنوان "الحشد من أجل الديمقراطية" حول مشاركة المجتمع المدني في عمليات التحول الديمقراطي في أوروبا والشرق الأوسط وآسيا وأمريكا اللاتينية. تشمل منشوراتها الحديثة: هل يمكن إنقاذ الديمقراطية؟ (كامبريدج، 2013)؛ العنف السياسي السري (كامبريدج، 2013) ؛ وموسوعة الحركات الاجتماعية والسياسية - 2013. في عام 2011، حصلت على جائزة Mattei Dogan لإنجازات مميزة في مجال علم الاجتماع السياسي.**

الهوامش:

1- نوع مرتجل من الكوميديا الشعبية في المسارح الإيطالية في القرنين السادس عشر والثامن عشر، إذ استناداً إلى الشخصيات العادية يقوم الممثلون بتكييف حوارهم الهزلي وأفعالهم وفقاً لبعض الحبكات الأساسية (عادةً ما تكون حبكات الحب) وقضايا الساعة.

2- غناء ساخر صاخب تؤديه مجموعة من الناس للاحتفال بالزواج أو للسخرية من شخص لا يحظى بشعبية.

3- كانت "مقاطعة حافلات مونتغومري" احتجاجاً من قبل حركة الحقوق المدنية رفض خلاله الأمريكيون الأفارقة ركوب حافلات المدينة في مدينة مونتغمري ، ولاية ألاباما.

حـــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور الأستاذ رائد فهمي سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي

حاوره رئيس التحرير د.صالح ياسر

الأستاذ رائد فهمي المحترم (أبو رواء)... نرحب بكم ضيفا عزيزا على صفحات مجلتنا (الثقافة الجديدة)، وننتهز فرصة انعقاد المؤتمر الوطني الحادي عشر للحزب الشيوعي العراقي وانتهاء اعماله بنجاح لنتقدم لك وعبركم الى رفيقات ورفاق الحزب كافة بخالص التهاني، مقرونة بأطيب الأماني بعام جديد مليء بالنجاحات من اجل تطبيق ما توصل اليه المؤتمر من قرارات وتوصيات وبرامج.

الثقافة الجديدة: المؤتمرات الوطنية للحزب الشيوعي العراقي عادة ما يشكل انعقادها لحظات مهمة ومحطات نوعية في مسيرة الحزب النضالية، وليس ارقاما تضاف للتاريخ. والمؤتمر الحادي عشر انعقد في ظروف غاية في التعقيد والتشابك، وفي اجواء ازمة بنيوية عميقة وحراك احتجاجي متسع وحراك فكري وسياسي... الخ. وفي مثل هذه الظروف، وغيرها الكثير، انعقد المؤتمر وانهى اعماله بنجاح... **هل لكم**

ان تصفوا لنا الظروف التي انعقد فيها المؤتمر، وما هي ابرز النتائج التي توصل اليها الحزب، بعد مناقشات ثرية وواسعة ومعمقة لمختلف الوثائق المطروحة على المندوبين والمندوبات، وأين تكمن، برأيكم، اهمية المؤتمر الوطني الحادي عشر العتيد؟

رائد فهمي: إنّ مؤتمرات الحزب تمثل محطات رئيسية في عمله، فهي من جانب ممارسة وتجسيد للبناء الديمقراطي للحزب كما ينص على ذلك نظامه الداخلي. وكما حرص الحزب منذ مؤتمره الوطني الخامس الذي انعقد عام 1993 وفي مؤتمراته اللاحقة، وصولا إلى المؤتمر الحادي عشر، على تطويرها وتعميقها باستمرار، وذلك بانتخاب هيئاته القيادية على مختلف المستويات، وبما يعزز مشاركة أعضاء الحزب وتحكيم العقل الجماعي في مناقشة ورسم سياسة الحزب وتدقيقها. وفي المؤتمر الحادي عشر، كما في المؤتمرات السابقة جرى تقييم مسيرة الحزب منذ المؤتمر العاشر الذي انعقد أواخر عام 2016 بالارتباط مع استعراض وتحليل معمق للتطورات التي شهدتها البلاد على الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية ومختلف المجالات المجتمعية الأخرى.

ومن جانب آخر، يقوم الحزب في مؤتمره الوطني من خلال الوثائق السياسية والبرنامجية التي يطرحها للمناقشة بتقديم قراءة تحليلية شاملة للوحة السياسية والاجتماعية والطبقية ومستجداتها وتحديد اتجاهات حركة تطورها واصطفافاتها والتناقضات المحركة لها وما يستتبعها من توازنات قوى سياسية واجتماعية.

وعلى أساس هذه القراءة والتحليل للواقع الموضوعي وفق المنهج المادي الجدلي، يستخلص الحزب المهام الرئيسية للمرحلة ويصوغها برنامجيا ويطرحها كمشروع سياسي واجتماعي متكامل ويحدد استراتيجية تحقيقها وأشكال وأساليب النضال التي يعتمدها وصيغ التعاون والتنسيق والتحالف الاجتماعي والسياسي ما بين الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية ذات المصلحة حاملة المشروع.

وفي المؤتمر الوطني الحادي عشر؛ تناولت الوثائق التي طرحت للمناقشة، أي مشاريع البرنامج والنظام الداخلي ومسودة التقرير السياسي ووثيقة "قدما.. نحو التغيير الشامل"، جميع الجوانب سالفة الذكر. وهي تتضمن حصيلة آراء وملاحظات المناقشات الواسعة للمسودات الأولية داخل تنظيمات الحزب، وفي منابره العلنية لهذه الوثائق، في ممارسة وتقليد ربما يتفرد به الحزب الشيوعي العراقي من بين الأحزاب والقوى السياسية العراقية.

ويمكن توصيف السمات الرئيسية لأوضاع البلاد كما خلصت اليه مناقشات المؤتمر ومخرجاته: أن بلادنا تعصف بها أزمة عامة قادت اليها سياسات القوى المتنفذة القابضة على السلطة والثروة والنفوذ، وباتت تشمل منظومة الحكم والدولة والواقع الاجتماعي والاقتصادي، ولها آثار وتداعيات تهدد حاضر البلاد ومستقبلها.

وقد تمظهر استفحال الأزمة في تفشي الفساد في معظم مفاصل الدولة، إن لم تكن جميعها، وينخر عميقا في أسسها، ما أدى

إلى تردي أداء مؤسساتها، وبلغت حالة من الضعف والعجز وإلى ما يشبه الشلل التام، خصوصا في مجال توفير الخدمات الأساسية. وقد كشف تفشي جائحة كورونا على نحو صارخ عن نواحي القصور والخلل الكبير في النظام الصحي وتهالك بناه التحتية وهشاشتها، فضلاً عن انتشار الفساد فيه.

وتنعكس آثار وتداعيات تفاقم الأزمة الشاملة على المجتمع وفي تدهور الظروف المعيشية، ولا سيما بالنسبة لفئاته وشرائحه الأكثر حرماناً وفقراً، وتعمق الهوة بين الغنى الفاحش والفقر المدقع وغياب العدالة الاجتماعية، كما استثار مشاعر سخط شعبي متنامية عبرت عنها أشكال متنوعة من الحراك الاجتماعي والمطلبي انخرطت فيه فئات وشرائح وقطاعات مجتمعية متزايدة الاتساع. بعضها كان بعيدا عن ساحة الفعل السياسي.

وأكدت التجربة والأزمة المشتدة ما سبق أن شخّصه حزبنا أن أس الأزمة يكمن في منظومة حكم المحاصصة الطائفية والإثنية وأن العملية السياسية القائمة عليها باتت مأزومة ومنتجة للأزمات، وعاجزة عن الاصلاح والتصليح.

ومن آثار وانعكاسات وتداعيات فشل منظومة حكم المحاصصة وفسادها واستحواذ قواها المتنفذة وشبكاتها الزبائنية ومنظومات الفساد التي تحتمي بها على حصة متزايدة من المال العام ومن ثروة المجتمع، بحكم احتكارها للسلطة والنفوذ، أن اتسعت فجوة عدم الثقة والرفض للقوى المتنفذة ومؤسسات الدولة التنفيذية والتشريعية التي تقبض عليها من قبل معظم فئات الشعب، كما تؤشره نسبة العزوف والمقاطعة للعملية الانتخابية العالية، وانحسار أعداد المصوتين لجميع هذه القوى. وفي الوقت ضاقت أكثر فأكثر القاعدة الاجتماعية لقوى وأحزاب الطائفية السياسية، وبشكل خاص ضمن المكون أو الطيف المذهبي أو القومي الذي يدعون تمثيله، مما ينزع عنهم شرعية ادعائهم بتمثيله.

ومن خصائص نهج المحاصصة أن تكون الدولة والسلطة وما يصاحبها من نفوذ وامتيازات ومنافع النفوذ ميدانا للصراع والمنافسة من أجل اقتسامها وإعادة اقتسامها، لذا فهي في حالة تشظٍ وعدم استقرار دائم، ومن مظاهر تفاقم أزمة منظومة المحاصصة استمرار حالة التجاذب والمنافسة بين القوى المتنفذة على الحصص ما بين المكونات. كذلك ما بين الأحزاب والقوى في اطار المكون الواحد. وشهدت السنوات الأخيرة اشتداد الاستعصاء السياسي ما بين قوى المحاصصة، وبلغت الانقسامات في ما بينها مستويات غير مسبوقة، بعد الانتخابات الأخيرة، كما نشهده في استعصاءات انتخاب الرئاسات وتشكيل حكومة جديدة. ويشي كل ذلك بصعوبة، بل تعذر، إعادة انتاج حكم المحاصصة وتشكيل الحكومة التوافقية على غرار الدورات السابقة.

ومما يزيد من المخاطر والتداعيات المحتملة لاستمرار هذه الاستعصاءات والانسدادات السياسية الناجمة عنها، أن لمعظم القوى المتنفذة أذرعا مسلحة مع وجود سلاح يوصف بالمنفلت تمتلكه جماعات مسلحة ومليشيات تحتمي بأغطية سياسية داخلية وخارجية، تسمح باستهداف ناشطين

وشخصيات وفرض إتاوات، والتجاوز على سلطات الدولة والقيام باعمال خارجة عن القانون من دون محاسبة وعقاب.

وتُلقي الصراعات السياسية واعتماد المحاصصة في بناء المؤسسات العسكرية والأمنية بظلالها وآثارها السلبية على أدائها وفاعليتها، كما دلل على ذلك العديد من الأحداث والتجاوزات والجرائم والخروقات التي تمت بمشاركة وتواطؤ بعض منتسبي القوات الأمنية. وفي بعض الحالات على مستوى قيادات. وما لم تتم إعادة هيكلة وبناء هذه الأجهزة على اساس مبدأ المواطنة والولاء للوطن والكفاءة والاخلاص والنزاهة، فإن خطر الارهاب والسلاح المنفلت خارج الدولة ومؤسساتها والجريمة المنظمة يتنامى، كما يشير الى ذلك إزدياد الخروقات الأمنية والعمليات الارهابية في بعض المناطق، وحدوث النزاعات العشائرية المسلحة، واتساع نطاق تجارة وتهريب المخدرات.

ورصدت وثائق المؤتمر الحادي عشر التغيرات في بنية المجتمع العراقي وعملية التبلور والتشكل الطبقي التي اصبحت أكثر وضوحا، وإن كانت ما تزال في حالة صيرورة، مع تأكيد ضرورة أن يولي الحزب اهتماما مكثفا لمتابعة التطورات والتغيرات التي تطرأ على المجتمع، والناتجة عن اقتصاده الريعي، ونمو رأسمالية دولة المحاصصة الزبائنية وقوى سوق منفلتة غير منظمة.

واستنادا إلى القراءة والتحليل المعمقين للوحة السياسية والاجتماعية – الاقتصادية المعقدة، ورصد وتقييم اتجاهات تطورها، خلص المؤتمر إلى أن التغيير بات ضرورة وليس خيارا وحسب، وأن يشمل التغيير منظومة حكم المحاصصة ونهجها وسياساتها الاقتصادية والاجتماعية، وتقويم عملية بناء الدولة على أساس المواطنة والخلاص من المحاصصة المكوناتية، ومراجعة أسس بناء العملية السياسية القائمة على المحاصصة حاليا. والتغيير المنشود يتطلب ايجاد توازن قوى جديد قادر على إحداثه، وعلى الحزب أن يرسم استراتيجية وتكتيكا يمكناه من أن يلعب دورا رياديا مؤثرا وفاعلا في تحديد قوى التغيير، وفي تجميعها وتوحيد عملها.

ولا يمكن للحزب أن ينهض بمثل هذا الدور ما لم تتعزز قوة تأثيره ونفوذه السياسي والفكري في المجتمع، وعلى الصعيد الجماهيري. ومن هنا حرص المؤتمر على أن تكون مناقشاته حيوية وبحرية تامة، وبروح نقدية جريئة لكل جوانب عمله وسياسته واستخلاص الدروس والاستنتاجات التي من شأنها الارتقاء بدوره وأدائه.

ومن هذا المنظور، سعى المؤتمر في وثائقه وقراراته وانتخاب قيادته، إلى تأكيد سيره على طريق التجديد في الفكر والتنظيم والسياسة، بالارتباط مع التشديد على هويته كحزب ينطلق في سياسته وعمله وخططه وبرامجه من مصالح الوطن والشعب، وشغيلة اليد والفكر من عمال وفلاحين وكادحين وكسبة وفئات وشرائح شعبية مهمشة، وفئات وشرائح وسطى ومثقفين متنورين، يجمعهم التطلع والتغيير نحو بناء الدولة المدنية الديمقراطية، دولة المواطنة والعدالة الاجتماعية. وتجسدت هذه الوجهة في التعديلات التي أجريت

على برنامج الحزب ونظامه الداخلي، وما ورد في التقرير السياسي من تشديد على توثيق وتوسيع الصلة بالجماهير، واعتبار المهمة الأساسية للشيوعيين هي الالتصاق بهموم الشعب وكادحيه والدفاع عن حقوقهم ومصالحهم والعمل على بلورة مطالبهم وتنظيمهم وتعبئتهم للنضال من أجلهم والمشاركة ودعم المبادرات والنشاطات والفعاليات الاحتجاجية التي لها مطالب مشروعة، وأن يواصل الحزب دوره النشيط في الحراك الاجتماعي والاحتجاجي، وأن يعمل بشكل دؤوب ومثابر على تطوير صيغ التعاون والتنسيق، وصولا إلى وحدة عمل القوى والجماعات والأحزاب والتنسيقيات والنواب المنبثقين من رحم انتفاضة تشرين الباسلة. وبينها وبين الاحزاب والشخصيات المدنية والديمقراطية، والنقابات والاتحادات ومنظمات المجتمع المدني التي ساندت ثوار ومنتفضي تشرين ومطالبهم، وكانوا معهم في ساحات الاحتجاج.

وانبثقت عن المؤتمر قيادة جديدة للحزب زادت نسبة الشباب فيها على 55 بالمائة في المكتب السياسي، وعلى 42 بالمائة في اللجنة المركزية، مع التوجه نحو تكثيف الجهود في صفوف النساء وزيادة أدوارهن في هيئات الحزب القيادية على مختلف المستويات. وتوقف المؤتمر عند تطوير آليات عمله وتطوير وسائل إعلامه ومنابرها باتجاه مزيد من الانفتاح والتركيز على القضايا والشؤون ذات المساس المباشر بحياة الناس. كما أفرد اهتماما خاصا باستخدام التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي في نشاطه الفكري والسياسي والتنظيمي.

الثقافة الجديدة. يبدو أن موضوعة التغيير هي الحاضر والهاجس الاكبر في مجموع الوثائق التي ناقشها واقرها المؤتمر الحادي عشر (التقرير السياسي، البرنامج، النظام الداخلي... الخ) والتي تجسدت بتكثيف في وثيقة "**قُدُما نحو التغيير**". والعودة هنا الى التاريخ مطلوبة. في المؤتمر التاسع (أيار 2012) تم إقرار شعار " دولة مدنية ... عدالة اجتماعية!" في حين اقر المؤتمر العاشر شعاره العتيد: "التغيير.. دولة مدنية.. عدالة اجتماعية!". اما المؤتمر الحادي عشر فتقدم خطوة للامام برفعه شعار: "التغيير الشامل.. دولةمدنية .. عدالة اجتماعية". وفي الواقع فإن الانتقال من شعار "التغيير" الى "التغيير الشامل" ليس مجرد تلاعب بالكلمات، بل تقف وراءه جملة من الأسباب والمبررات التي دفعت الحزب الى تبني هذا الشعار.

هنا تتدفق الاسئلة: لماذا التغيير الشامل، هل هو خيار ام ضرورة ملحة؟ وهل طرح الحزب الشيوعي العراقي لمفهوم التغيير هو مجرد موضة يريد بها أن "يميز" نفسه عن الآخرين، أم أن هناك اسبابا وعوامل فعلية جعلت مفهوم "التغيير الشامل" يحظى بأولوية نضالية، ويعد شرطا ضروريا لتقدم الحزب نحو الأمام، وما يمكن أن يحدثه من زخم ينبغي بذل اقصى الجهود، وعلى مختلف المستويات التنظيمية والفكرية والسياسية، لاستثماره بشكل صحيح؟

ويبدو ان التغيير الشامل يرتبط بالشقين الاخرين من الشعار. فالتغيير الشامل، الجذري، يستلزم ويشترط **دولة من طراز جديد: دولة مدنية وديمقراطية** في آن، تمثل **نفيا** لدولة المحاصصات الطائفية

- الاثنية، دولة الهويات الفرعية. وهذه الدولة هي في جوهرها **دولة مواطنة،** دولة مواطنين احرار وليس دولة رعايا. ومن جهة أخرى، هو يشترط كذلك **دولة ديمقراطية**. والديموقراطية هنا ليست فقط آلية، أو وسيلة، بل هي معيار وأفق، **وهي** ملازمة لعدة قيم لا يمكن تجاهلها: **الحرية والمساواة والعدالة،** وفكرة "المواطنة" هي في الواقع تقوم وتترسخ حينما تغتني بهذه القيم الثلاث.

فالتغيير الجذري المنشود، إذن، لن يتحقق إلا في إطار حاضنة جديدة هي **الدولة** بشقيها **المدني والديمقراطي**.

وأخيرا **الركن أو الشرط الثالث: العدالة الاجتماعية**. نتيجة للبنية المتخلفة والاحادية الجانب والريعية التي يتسم بها الاقتصاد العراقي والتي فاقمتها الازمة البنيوية والمتعددة الصعد، يعاني مجتمعنا من تفاوت اقتصادي وتنموي ومن الإخفاق في تحقيق التنمية القائمة المستدامة، بسبب الرهان على خطابات مقطوعة الجذور عن حركة الواقع، والانخراط في تطبيق استراتيجيات وسياسات تكرس الفقر والتهميش والإقصاء وعدم المساواة. وكل هذا يجعل تحقيق العدالة الاجتماعية هدفا دونه الكثير من التحديات.

إنّ **التغيير الجذري** إذن لن يتحقق إلا عبر التأسيس لنظام عابر للطوائف والهويات الفرعية، وبناء دولة مدنية ديمقراطية اتحادية عصرية، تقوم على قاعدة العدالة الاجتماعية. وان أي طريق آخر لن يفضي سوى الى اعادة انتاج الازمة واعادة انتاج النظام المحاصصي/ الطوائفي/ الاثني بل وتأجيل تفكيكه الى حين.

هل لكم رفيقنا العزيز أبو رواء ان تتحدثوا عن تلك الاسباب والمبررات التي دفعت الحزب لتطوير الشعار الذي طرحه المؤتمر العاشر والارتقاء الى ذرى جديدة بطرح شعار "معاً.. نحو التغيير الشامل" الذي طرحه المؤتمر الحادي عشر، وما هي رهاناتكم على هذا الشعار الاستراتيجي في ظل تناسبات القوى السائد في اللحظة التاريخية الملموسة؟

رائد فهمي: لأجل الفهم السليم للتطور في مواقف الحزب وسياسته وشعاراته، لا بدّ من وضعها في سياقها الزمني وحيثياتها التاريخية. من المفيد التذكير بأن حزبنا أوضح في وثائقه ومواقفه الأسس والمنطلقات التي حدت به إلى قبول عضوية مجلس الحكم والمشاركة في العملية السياسية. فقد نظر الحزب إلى مجلس الحكم ذي الصلاحيات المحدودة وتركيبته التي تكرس مبدأ المحاصصة الطائفية والعرقية، بأنه صيغة جهاز حكم فرضتها موازين القوى القائمة آنذاك في ظل سلطة الاحتلال. واعتبره شكلا لمواجهة الاحتلال وإنهائه، وركنا أساسيا في العملية السياسية التي هدفها النهائي يتمثل في تحقيق استقلال البلاد ووضعها على طريق التطور الديمقراطي، اي تأمين أفضل الظروف لإنجاز عملية الانتقال الديمقراطي.

واستنادا إلى هذه الرؤية الاستراتيجية، تعامل الحزب مع مجلس الحكم كميدان للصراع، ووضع مشاركته في العملية في إطار السعي لأن يلعب دورا مؤثرا أكبر من داخلها لدفعها بالاتجاه السليم نحو تحقيق أهدافها؛ إذ أن ثمة صراعا داخل العملية

السياسية وخارجها تتجاذبه أطراف وقوى متعددة ذات رؤى ومصالح ومنطلقات فكرية أيديولوجية مختلفة. وأكد الحزب على الدوام، كما جرى تثبيته في أعمال ووثائق المؤتمر الوطني الثامن عام 2007 وتأكيده في قرارات وتوجهات المؤتمرات اللاحقة، تلازم الصراع الذي يخوضه داخل اطار العملية السياسية، مع العمل خارجه لتعبئة جماهير الشعب لتشكيل قوة ضاغطة للحفاظ على المسار السليم للعملية السياسية. كما كان الحزب مدركا لمخاطر تكريس مبدأ المحاصصة الطائفية والعرقية، وقد رفضه منذ البداية عندما وجد طريقه إلى المعارضة العراقية للنظام الدكتاتوري منذ أوائل التسعينيات، واعتبره مضرا بالوحدة الوطنية في كل الظروف والاحوال.

وبفعل تأثير القوى المتنفذة في الدولة والعملية وتشبثها بنهج المحاصصة الطائفية والعرقية الذي يتيح لها الاستئثار بالمنافع والامتيازات والنفوذ الناجمة عن حصولهم على المناصب العليا والدرجات الخاصة "حصة المكون" الذي احتكروا تمثيله، وانغمار القوى المتحاصصة في صراع يكاد لا ينقطع على السلطة والمكاسب والحصص في الدولة التي ينظرون إليها كغنيمة، توالت الأزمات واستفحلت على صعيد الحكم وعمل الدولة وأدائها، باستشراء الفساد في جميع مفاصلها وفشلها في توفير الخدمات الأساسية المناسبة، لا سيما في مجالات الصحة والتعليم والسكن والكهرباء والنقل، اي البنى التحتية عموما والبنى التحتية المادية والاجتماعية عموما، وتعقدت واشتدت نتيجة لتلك المصاعب والمشاكل المعيشية لأوساط وفئات وشرائح متزايدة الاتساع من الشعب، وخصوصا من الشباب والنساء.

وفي خضم الصراعات الحادة بين القوى المشاركة في العملية السياسية والدموية في مواجهة القوى المعادية لها من إرهابيين واطراف داخلية وخارجية أخرى، والتي محورها الأساس، في المطاف الأخير، التنافس على السلطة والثروة والقرار، وعلى تحديد شكل الدولة ومضمونها اتخذت العملية السياسية مسارا متعرجا، يبتعد أكثر فأكثر عن السكة السليمة، فيما تناسلت الأزمات وتشابكت واتسعت مدياتها مقابل العجز البيّن للقوى المتنفذة عن تقديم الحلول والمعالجات، لتصبح أزمة عامة تلف النظام والحكم وعلاقات القوى.

على خلفيّة هذه التطورات بات واضحا من وجهة نظر الحزب، بأنه لا مخرج من دوامة الأزمات وتحقيق المطالبات الشعبية المتصاعدة بمعالجة المعضلات المعيشية والخدمية التي تطحنهم، وارتباطا بالواقع وتوازنات القوى حينئذ، اي في الاعوام 2011 و2012، إلاّ باصلاح النظام عبر اجراء مراجعة تقييمية ونقدية لمسار العملية السياسية وحصيلتها ولأداء مؤسسات الحكم بغية اصلاحها وتصويبها والعمل على تخليصها من الاعتماد على نهج المحاصصة الطائفية – الاثنية أس المشكلة، وذلك وفقا لمعايير وأسس وتوازنات واصطفافات سياسية جديدة تنبذ نهج المحاصصة.

وفي المؤتمر الوطني التاسع عام 2012، رفع الحزب في ضوء تحليله لمتغيرات الواقع السياسي، والاجتماعي-الاقتصادي، وللأزمة العامة المستفحلة في البلاد، ولمسار العملية السياسية القائمة على نهج

المحاصصة وضرورة اصلاحها، شعارا استراتيجيا يعبر عن المشروع الوطني الديمقراطي الكفيل بوضع البلاد على طريق الاستقرار والاعمار والبناء والتقدم؛ "دولة مدنية ديمقراطية اتحادية.. عدالة اجتماعية". وهذا الشعار يشترط تحقيقه إحداث اصلاح وتغيير عميقين في العملية السياسية، وفي الدولة وفي الواقع الاجتماعي والاقتصادي وفي الوعي. وطرح الحزب فكرة اطلاق حوار وطني شامل، تشارك فيه القوى المؤسسة والمشاركة في العملية السياسية، تمهيدا لعقد مؤتمر وطني يتولى مراجعة وتصويب مسار العملية السياسية.

ولم يكن خافيا على الحزب بأن مثل هذه المراجعة الاصلاحية لا تستهوي القوى المتنفذة، وتتطلب ممارسة أقوى ضغط شعبي ممكن عليها للدفع باتجاه الاصلاح. وانسجاما مع وجهة الحزب في الجمع ما بين العمل داخل اطار العملية السياسية وخارجها، وضع الحزب في مقدمة مهامه تعزيز امكانيات الحزب وتوطيد بنائه التنظيمي والارتقاء بنشاطه الجماهيري وتعزيز نشاط قوى وشخصيات التيار الديمقراطي ووحدة عمل القوى المدنية الديمقراطية.

ففي الظروف المحيطة بالمؤتمر الوطني التاسع وموازين القوى القائمة ومستوى تطور الحراك الشعبي حينذاك والمواقف غير الموحدة للقوى ضمن العملية السياسية كان يتيح إمكانية اجتذاب تأييد بعضها لفكرة الحوار الوطني الشامل واجراء مراجعة للعملية السياسية، وعلى سبيل المثال، كان رئيس الجمهورية الراحل جلال الطالباني مؤيدا لفكرة عقد مؤتمر وطني، إلاّ أن معظم القوى المتنفذة لم تستجب لفكرة الحوار الوطني بغية اجراء مراجعة نقدية للعملية السياسية، واستمرت في تعنتها واستمرارها على ذات النهج، ما أدى كما هو متوقع إلى استمرار الأزمة وتعمقها وتفاقم معاناة الفئات والشرائح الشعبية من آثارها، وارتفاع معدلات الفقر والبطالة والأمية وانتشار الفساد، وشموله المؤسسات المدنية والعسكرية، وتصاعد عمليات واختراقات قوى الارهاب واتساع رقعة المناطق الواقعة تحت سيطرتها لترتفع إلى ثلث مساحة العراق بعد سقوط الموصل في حزيران 2014. وفي صيف 2015 اطلقت قوى وشخصيات مدنية حراكا احتجاجيا بمشاركة شعبية واسعة، لا سيما من الشباب، انخرط فيه لاحقا التيار الصدري، ورفع شعارات اصلاح النظام ومحاربة الفساد والمفسدين ومطالب تتعلق بتحقيق قدر من العدالة الاجتماعية، واستمرت الفعاليات الاحتجاجية المنتظمة اسبوعيا، والتي شملت عددا من المحافظات، لقرابة سنتين.

وفي هذه الاجواء، انعقد المؤتمر الوطني العاشر في كانون الأول من عام 2016، حيث اشتدت الأزمة العامة في البلاد، وعجزت منظومة حكم المحاصصة عن اجراء اي اصلاح، بل على العكس من ذلك أجهضت اي محاولة او خطوة اصلاحية جدية، وخصوصا في ما يتعلق بنبذ المحاصصة ومحاربة الفساد وحصر السلاح بيد الدولة ومنع التدخلات الخارجية. ومقابل ذلك تصاعد الحراك الشعبي وتنامى التذمر والرفض لمنظومة الحكم وارتفاع مستوى الوعي لدى فئات وشرائح اجتماعية اوسع وانخراطها في ميدان الفعل الاجتماعي والسياسي الجماهيري.

ومع تزايد الفجوة بين القوى المتنفذة وأوسع قطاعات الشعب، وتشبث هذه القوى بمصالحها ومواقعها وبنهج المحاصصة الضامن لهذه المصالح، بات التغيير أكثر الحاحا مع فشل وتعذر اجراء اصلاحات حقيقية في ظل المنظومة الحاكمة. لذا قام المؤتمر العاشر بتحريك الشعار الاستراتيجي بالتأكيد على التغيير كضرورة للسير على طريق تشييد الدولة المدنية الديمقراطية الاتحادية القائمة على العدالة الاجتماعية. والمقصود بالتغيير، هو الخلاص من نهج المحاصصة ومنظومته السياسية. ويمكن تلخيص عوامل تحريك الشعار وإدراج التغيير فيه هو باشتداد الأزمة العامة في البلاد وعجز منظومة الحكم عن الاصلاح وعدم استعدادها للتخلي عن مواقعها والتنازل عن امتيازاتها وتغيير نهجها ونمط تفكيرها، وتصاعد الرفض الشعبي واتخاذه أشكالا احتجاجية متنوعة، تشمل فئات وشرائح وفئات اجتماعية مختلفة.

وجاءت انتفاضة تشرين الباسلة لتحدث تغييرا مهما، وإن يكن غير حاسم، في معطيات اللوحة السياسية ومعادلاتها. فبفضل شجاعة واصرار ثوار الانتفاضة وتقديمهم لمئات الشهداء وآلاف الضحايا من أجل أهداف ومطالب عادلة ذات طابع وطني واجتماعي، من اجل العدالة والعيش الكريم والكرامة، تمت التعرية التامة لكثير من القوى ورموز المنظومة الحاكمة وكشفت عن القوة الجبارة التي تملكها قوى الشعب التي تعاني من القهر والحرمان والتمييز والتهميش عندما تتوحد إرادتها وتتصلب في فعل جماهيري ذي مطالب مشروعة وعادلة، تقف السلطات الحاكمة عاجزة عن ردعه بالوسائل القسرية. وعلى الرغم من الانحسار الذي شهدته الانتفاضة لاحقا، إلاّ أن آثارها وترددداتها ما تزال فاعلة في المجتمع ووعيه، وأنها سجلت حدثا تأريخيا فاصلا لا يمكن اغفاله أو الالتفاف عليه وعلى دلالاته. فما بعد تشرين لا يمكن أن يكون كما قبله، والتغيير اصبح لا مناص منه، ويفرض نفسه على الواقع السياسي.

فانتفاضة تشرين طرحت ضرورة التغيير وأشرت تجربتها على إمكانية تحقيقه، في حال استمرار عناصر وأسباب تفجر الانتفاضة ومعالجة بعض النواقص والثغرات التي شابت تنظيمها وقيادتها وبرامجها. ولم يعد التغيير المنشود مقتصرا على منظومة المحاصصة ونهجها، بل لا بد أن يشمل التغيير في الشخوص والنهج والسياسات الاجتماعية والاقتصادية، ومراجعة عملية بناء الدولة واسسها واجراء التعديلات الضرورية في الدستور، وفي المنظومة الانتخابية.

إنّ تشرين بينت ضرورة التغيير والاصلاح الجذري، وإن عمق الأزمة وشدّتها وشموليتها تستدعي تغييرات شاملة تقابلها، تشمل منظومة الحكم وبناء الدولة ومؤسساتها ونهجها الاقتصادي والاجتماعي نحو تعزيز الطابع المدني الديمقراطي للدولة، والنهوض بالاقتصاد الوطني وتغيير بنيته الريعية وحشد الموارد نحو تحقيق تنمية مستدامة وتوزيع أكثر عدلا للدخل والثروة؛ فمجموع هذه العوامل والمتغيرات في واقع البلاد يفسر تبني المؤتمر لشعار التغيير الشامل نحو تحقيق شعاره الاستراتيجي.

الثقافة الجديدة: بينت تجارب التسعة عشر عاما الأخيرة ان البلاد ليست بحاجة الى اعادة النظام المحاصصي/ الطائفي/ الاثني بل تحتاج حقا الى بديل آخر، يشكل نفيا لنظام المحاصصات الحالي.

ومن المؤكد ان التغيير المطلوب لن يتحقق إلا **ببناء بديل** يكسر محاولات احتكار السلطة المستندة الى الهويات الفرعية وإعادة إنتاجها، ويؤسس لوعي اجتماعي جديد. ان **تحقيق هذا البديل يحتاج الى أفق أوسع والى قوى جديدة وتحالفات** تكون قادرة على احداث **تغيير حقيقي** في تناسبات القوى الفعلي وليس اعادة انتاج النظام الراهن، المحاصصي – الطوائفي/ الاثني الذي اصبح عائقا امام بناء الدولة المدنية الديمقراطية العصرية، دولة المواطنة.

وهنا يطرح السؤال الاتي: **برأيكم، ما هي القوى الاجتماعية والسياسية المحركة والقادرة على تحقيق مهمات المرحلة الانتقالية المتعثرة؟ وما هو موقع القوى المدنية والديمقراطية والوطنية في هذه المرحلة؟ وكيف يمكن لها ان تكون قطبا مهما ومؤثرا في الصراع الدائر حول شكل ومضمون الدولة الجديدة، وتقديم بديل يشكل نفيا للنظام المحاصصي؟**

رائد فهمي: كما أوضحنا في إجابتنا على الأسئلة السابقة، أن النهج السياسي والاجتماعي والاقتصادي لحكومات المحاصصة الطائفية التي تتولى قيادة العملية السياسية خلال المرحلة الانتقالية أدى، من خلال الامتيازات المفرطة التي منحتها لنفسها قوى المحاصصة الماسكة بمفاتيح السلطة والقرار، مع استفحال الفساد في الدولة الذي تقف وراءه وتحتضنه أحزاب وقوى الطائفية السياسية ذات الوزن والصوت المقرر في تحديد سياسات الدولة وسلطاتها، وعلى اختلاف مسمياتها وعناوينها وانتماءاتها، "بالتحالف" والشراكة والتواطؤ مع شركات وتجار ومقاولين وسماسرة من القطاع الخاص المحلي والأجنبي، أدى إلى الاستحواذ واختلاس وسرقة ما يزيد على ثلاثمائة مليار دولار، فشل وتعطيل أكثر من ستة آلاف مشروع للدولة. وكان الوجه الآخر لحصيلة نهج المحاصصة ومنظومته السياسية، الفشل الذريع في أداء الدولة وفي توفير الخدمات العامة الاساسية من تعليم وصحة وكهرباء وماء وخدمات بلدية لسائر أبناء الشعب بصورة مرضية وعادلة، تضمن حدا أدنى من العيش الكريم . وفي المقابل تنامت الثروات الفلكية بيد قلة من الأفراد والجماعات، تنتمي إلى الأحزاب والقوى المتنفذة، كما تمركزت لديهم السلطة السياسية، حيث يتم تناقلها وتداولها ما بينهم عبر صراع مستمر على الحصص وعلى السلطة والنفوذ. وفي المقابل ازدادت الفوارق في الدخل والثروة عمقا في المجتمع العراقي، وتحايثت مظاهر الثراء الفاحش وظواهر الفقر المدقع وعمالة الأطفال ومعدلات البطالة التي تزداد ارتفاعا وتتسع مدياتها لتشمل شريحة الشباب على وجه الخصوص، ومن خريجي المعاهد والجامعات وحملة الشهادات العليا.

وانتجت مسارات حكم قوى المحاصصة وسياساتها والمصالح الفئوية الضيّقة

التي تخدمها، عملية فرز على المستويين الاجتماعي والسياسي، تمظهرت في انحسار القاعدة الاجتماعية للسلطة، وتصاعد الحراك الشعبي الاحتجاجي الرافض لها والحامل لدعوات الاصلاح والتغيير لمنظومة المحاصصة والفساد، شخوصا ونهجا. وقد توالت الاحتجاجات بوتائر متذبذبة ولكن بخط ميله تصاعدي لتتفجر في انتفاضة تشرين بعنفوان وجرأة وتصميم قض مضاجع منظومة الحكم وفرض سقوط الحكومة وتغيير مفوضية الانتخابات وتمرير قانون جديد للانتخابات وتنظيم انتخابات مبكرة.

وقد بيّنت الانتفاضة أن طيفا واسعا من القوى الاجتماعية قد ساندها ودعم مطالبها وتبنى شعاراتها وعبر عن تضامنه الفعال معها، أبرزها واكثرها اندفاعا وجرأة الشرائح الشبابية والطلابية التي ينتمي اجتماعيا جزء كبير منها إلى القطاع غير المنظم من عمال مياومين وكسبة صغار، ومعهم شباب من الشرائح الوسطى الباحثين عن عمل رغم حصولهم على شهادات عليا. اما العمال والفلاحون والمهنيون وتنظيماتهم النقابية والمهنية المستقلة فقد كانوا من مؤيدي الحراك والانتفاضة، ولكن بصورة غير حاسمة.

أما القوى المتبلورة سياسيا بصيغة أحزاب وتنسيقيات وكتل نيابية، فقد وقفت معظم القوى المدنية بوضوح وبشكل قاطع مع الانتفاضة، وشاركت في الاحتجاجات والتنسقيات، إلا أن معظمها تنقصه التجربة والخبرة والتجربة السياسية، كما دللت على ذلك الشعارات والمواقف الانعزالية حتى وقت قريب لبعض قوى الحراك، والصراعات الثانوية التي تعيق توحدهم، بل وحتى تطوير التعاون والتنسيق في ما بينهم، وبينهم وبين القوى والأحزاب الوطنية والمدنية الديمقراطية.

وإذ تؤكد الأحداث والتطورات عجز قوى المحاصصة عن إعادة انتاج نمط حكمها خلال الفترات السابقة، وكذلك عدم قدرتها على الاصلاح بحكم المنافسة والنزاع المستمر ما بين اطرافها، ما بات يولد حالة استعصاء سياسي على أكثر من مستوى، ابرزها الفشل في تشكيل حكومة، فإن العنصر الغائب الأكبر الذي يديم حالة الاستعصاء العام في البلد الذي يحول دون تخلصه من الأزمات بصورة نهائية، هو تفتت قوى التغيير وعدم اقدامها بشكل جدي على توحيد عملها بخطوات مدروسة وعلى وفق اسس فكرية وسياسية مشتركة.

في ظل انصراف القوى المتنفذة للصراع بشأن تشكيل الحكومة وانشغالها عن الاهتمام بهموم ومعاناة الناس، فعلى القوى المتطلعة والعاملة من أجل التغيير الفعلي، أن تضاعف من جهودها واتصالاتها وحواراتها لبلورة رؤى وتصورات وتحليلات مشتركة تشكل اساسا لوحدة عملها وتحركها. كما تتوفر الفرصة والظروف لأن يلقى البرنامج الذي ستتفق عليه قوى التغيير، صدى واسعا على الصعيد الشعبي ولدى العديد من القوى السياسية، شريطة أن يتم التداول فيه وحسمه في أقرب وقت. ومن ثم الترويج له على أوسع نطاق. ولكن ينبغي ألاّ يغيب عن ذهن القوى المتصدية لعملية التغيير، بأن تعديل موازين القوى لصالح قوى التغيير، يشترط الانفتاح على الجماهير وتوثيق الصلة بمحتشداتها وبتنظيماتها المختلفة،

مع التشديد على دور الحزب المنظم الحامل للفكر والمنهج العلمي والثوري في رسم التوجهات السليمة وفي اشاعة الوعي.

وإنّ فشل دولة المكونات، ورفع ثوار تشرين لشعارات ومطالب تؤكد انشدادهم لدولة عابرة للطوائف والمكونات لخصها شعار: نريد وطن، يهيئ تربة اكثر خصوبة لانتشار شعار دولة المواطنة، الدولة المدنية الديمقراطية الاتحادية القائمة على العدالة الاجتماعية.

الثقافة الجديدة: في احدى وثائقه توصل الحزب الى استنتاج في غاية الاهمية، نظريا وتطبيقيا، حيث اشار الى انه ''في ظل التوازنات السياسية الداخلية والدولية الدافعة بقوة لصالح التطور الرأسمالي بصورته الليبرالية الجديدة الاكثر غلوا، ينصب نضالنا في المرحلة الراهنة على تجنيب شعبنا مصائب رأسمالية متوحشة، وانجاز طابع وطني عام عبر اوسع تحالف اجتماعي سياسي''. لقد تجلّت الليبرالية الجديدة في بلادنا في صور وتجليات عدة في مقدمتها الخصخصة تحت رايات المؤسسات المالية والنقدية الرأسمالية الدولية، وفي مقدمتها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. واخيرا ما جسدته ''الورقة البيضاء'' من مشاريع ''اصلاحات'' كانت ذات آثار مدمرة على الاقتصاد والمجتمع العراقيين. فقد اصر المتنفذون على السير نحو الطريق الليبرالي الجديد برغم كل نتائجه المريرة. ويحاجج ''منظرو'' الخصخصة والتكييف الهيكلي على ان لا طريق أمام بلادنا سوى ''بناء اقتصاد مترابط متين يستند الى مبادئ السوق، تقوده ببراعة وابداعية المؤسسات الخاصة''، كما قال (بول بريمر) ذات يوم في منتصف عام 2003 وهو يدشن المشروع الاقتصادي لسلطة الاحتلال.

لقد أشار التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر الوطني الحادي عشر الى ان عملية ''الاصلاحات'' المستندة الى ''وصفات'' المؤسسات الدولية اقترنت بسياسة اقتصادية، هدفها الرئيسي زيادة انتاج النفط الخام وتعظيم ايراداته. وقد وجدت هذه السياسة تعبيرها الأبرز بجولات التراخيص الخمسة. وساهمت هذه الحصيلة في النهاية في ترسيخ الطابع الريعي للاقتصاد والدولة. حيث نشأت عنها حالة هجينة، بل وحتى مشوهة، يمكن ان يطلق عليها مجازاً ''رأسمالية الدولة الريعية''. ان دولة ''الرأسمالية الريعية'' هذه شديدة المركزية من ناحية سياساتها المالية العامة. لكنها من ناحية اخرى، تتصارع مع ميل مستفحل لإضعاف الطابع المركزي لإدارة الدولة، ولعمل اجهزتها ومؤسساتها. وذلك لأنها اقترنت منذ البداية بتعددية مصادر القرار، والمعبر عنها بأشكال متنوعة من المحاصصة، خصوصا المكوناتية منها، ووجود السلاح المنفلت. ان هذا التناقض، بين المركزية المالية المستندة على الريع النفطي وبين نهج المحاصصة، تسبب في تشظٍ بنيوي في تكوين الدولة، وساهم مساهمة كبرى في اضعاف عمل مؤسساتها. فمصالح القوى السياسية التي امسكت بزمام السلطة بعد 2003، قامت على دعامتين: الاولى نهج المحاصصة، والثانية تعميق الطابع الريعي للدولة والمجتمع.

والتجربة التي نحن شهودها منذ 2003

اكدت ان الديمقراطية لم ولن تتحقق في العراق طالما ظل الاقتصاد ريعيا – مشوها واحادي الجانب، وستبقى البلاد تواجه حالات استعصاء دائمة طالما ظلت اسس الدولة الريعية – الاستبدادية قائمة.

فقد أعطت التطورات السياسية التي عرفتها البلاد منذ 9 /4 /2003، وعبر كل التجارب الانتخابية والاستشارية، **ديمقراطية ناقصة، مشوهة، مبتورة،** لأن طبيعة وبنية السلطة في العراق والتوازنات التي تحكمها تجعل منها غير قابلة للتداول بالمعنى الديمقراطي الصحيح.

نطمح منكم رفيقنا العزيز الى تعليق معمق يسهم في فك "ألغاز" هذه اللوحة من القضايا، ويوضح لقراء المجلة ما يميز موقف الحزب الشيوعي العراقي من هذه الاشكاليات، في ضوء ما توصل إليه المؤتمر الحادي عشر من استنتاجات وتحليلات بهذا الخصوص.

رائد فهمي: كثيرا ما يعبر مختصون ومتابعون للاقتصاد العراقي بعد التغيير عام 2003 عن حيرتهم في توصيف طبيعته وهويته وعدم انطباق خصائص وسمات الأنظمة الاقتصادية المعروفة عليه، فلا هو بالاشتراكي ولا بالرأسمالي، إذ يبدو المشهد الاقتصادي فوضويا تتحكم بمفاصله منظومات مصالح وفساد تدعمها قوى وجهات نافذة في السلطة أو جماعات، تملك سطوة السلاح ما يضفي عليه، في ظل ضعف دور الدولة ومؤسساتها، ملامح الاقتصاد المافيوي.

وقد أولى حزبنا على الدوام أشد الاهتمام لتحليل بنية الاقتصاد العراقي من أجل تحديد طبيعته بأدق ما يمكن، وتاليا تشخيص التناقضات المحركة له ومواقع ومصالح الطبقات والفئات الاجتماعية ومواطن الصراع والالتقاء ما بينها، ويعتبر الحزب القيام بمثل هذا التحليل ومخرجاته مقدمة ضرورية، يرسم في ضوئه سياسته، ويحدد أولويات الصراع وأهداف نضاله، ويرسم استراتيجيته وتكتيكه.

وتتسم اللوحة الاقتصادية والاجتماعية - الطبقية في العراق بالتعقيد لكون الاقتصاد العراقي، كما مجمل بنيته السياسية والاجتماعية، تعيش حالة انتقالية إثر الانهيار شبه الكامل لمؤسسات الدولة مع سقوط النظام السابق، وخضوع الأوضاع في العراق لتدخلات خارجية حاكمة، نتيجة الاحتلال وضعف الدولة ووجود امتدادات سياسية داخلية للقوى الخارجية الاقليمية والدولية. فيمكن القول إن الدولة والاقتصاد العراقي ما يزالان في حالة صيرورة وميدان صراع حول طبيعتهما ومضمونهما، ولم يتخذا بعد شكلا مستقرا.

ما هو ليس موضع خلاف واختلاف، الطبيعة الريعية للاقتصاد العراقي الذي يشكل المورد النفطي فيه ما يقارب ستين بالمائة (60%) من ناتجه القومي الاجمالي، وما يزيد على تسعين بالمائة (90%) من تمويل الموازنة العامة. ولكون العائد النفطي يعود للدولة حصرا، ولأهمية الانفاق الحكومي كمحرك أساس للانشطة الاقتصادية، العامة والخاصة، يمكن توصيف الاقتصاد العراقي برأسمالية دولة ريعية مركزية. وتوصيف راسمالية دولة ينطبق أيضا على اقتصاد النظام السابق الذي يوصفه البعض خطأً بالاشتراكي،

إذ قام النظام حينذاك بفسح المجال واسعا لنمو وتوسع الرأسمال الخاص في مختلف القطاعات الاقتصادية، وخاصة لفئات وحلقات رجال الأعمال والمستثمرين القريبين والموالين للنظام.

وإذ كانت المركزية الشديدة السمة الأبرز للنظام ما قبل 2003، فقد تغيرت الوجهة في ظل سلطة الاحتلال الأمريكي بعد التغيير نحو اطلاق العنان لاقتصاد السوق المنفلت من خلال التوجه نحو الخصخصة وفتح الحدود والغاء الضوابط والقيود أمام انتقال السلع ورؤوس الأموال، وتقليص وتحجيم دور الدولة وحجب جزء كبير من الدعم والحماية الذي تقدمه الدولة للانتاج الوطني، فيما اطلقت عملية سياسية لاعادة بناء الدولة وإدارة عملية الانتقال على اساس المحاصصة الطائفية والإثنية.

وإذ أدى التوجه الليبرالي الجديد نحو اقتصاد سوق غير منظم إلى انهيار القطاعات الانتاجية المحلية، الزراعية والصناعية، وتعمق الطبيعة الريعية للاقتصاد، احدث نهج المحاصصة تناقضا ما بين المركزية الناجمة عن امتلاك الدولة للريع ولحق التصرف به، وبين التشظي والترهل والفساد وعدم التماسك وغياب الانسجام في بنية الدولة المعاد بناؤها على اساس التقاسم المحاصصي، واصبح الاستحواذ على أكبر حصة ممكنة من الريع، هدفا للتنافس والصراع ما بين الأحزاب والقوى المتحاصصة، ووفرت المحاصصة بيئة حاضنة للفساد، توافقت القوى المتحاصصة والمتنافسة على امتصاص اكبر قدر من موازنات الدولة الانفجارية لصالحها؛ احزابا وشخوصا وأقارب ومريدين.

وعلى مدى ما يقارب العقدين من حكم المحاصصة، راكمت قوى وأحزاب وجماعات الطائفية السياسية الماسكة بآليات سلطة دولة المكونات، ثروات ضخمة عبر امتصاص نسبة متعاظمة من الريع النفطي. وبفضل ليبرالية السوق المنفلت من اية ضوابط تنظيمية وتجارية، تسربت الأموال إلى الخارج ودول الجوار لتودع أموالها كادخار أو لتوظيفها في الاسواق المالية أو لاستثمارها في العقارات وفي مشاريع تجارية وصناعية، ما أدى إلى تشظي السوق العراقية لتندمج مع أسواق دول الجوار التي تحاكيها مذهبيا وإثنيا. وبعض هذه الأموال ذات المصادر غير الشرعية، تهرب الى الخارج لتعود إلى السوق العراقية بصيغ مختلفة مشرعنة لتقيم مشاريع خدمية وتجارية تفتقد مقومات الربحية، غرضها الأساس تبييض تلك الأموال.

فحصيلة النهج الليبرالي لرأسمالية الدولة الريعية المركزية هي تقويض فرص توظيف الريع النفطي لأغراض تنمية الانتاج الوطني وتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية وايجاد بديل عن ذلك اقتصاد توزيعي واستهلاكي مندمج بالأسواق الخارجية، ونمو سوق حر مالي نشيط مقابل فشل الاقتصاد الحر في تنمية القطاعات الانتاجية لغياب البنى التحتية المادية والمؤسسية. وافرزت توليفة رأسمالية الدولة الريعية المركزية ذات التوجه الليبرالي مع نهج المحاصصة الطائفية والإثنية نموا متسارعا للرأسمالية الطفيلية والبيروقراطية والكومبرادورية التجارية العابرة للانتماءات الطائفية والإثنية، وثيقة الصلة والارتباط والتداخل

مع منظومة المحاصصة الحاكمة والمستأثرة بمعظم مفاصل سلطات الدولة، لتشكل حكم أقلية اوليغارشية تحاول استدامة حكمها بالاستناد إلى تغذية وشحذ مشاعر التعصب للهويات المكوناتية. ونجم عن فشل التعشيق بين رأسمالية الدولة الريعية والنهج الليبرالي الجديد من جهة، ونهج المحاصصة في الحكم من جهة أخرى، استفحال الفوارق في الدخل والثروة وتنامي الشرائح الاجتماعية المستثناة عمليا من دائرة توزيع الريع النفطي والتي تعيش وتتحرك وتعمل في ظروف بالغة الصعوبة على هامش النظام السياسي والاقتصادي القائم على الريع النفطي، وتعاني من الاهمال والإقصاء.

ونخلص من هذا الاستعراض التحليلي الى أن الاقتصاد العراقي ذا الطبيعة الريعية المركزية يمر بمرحلة انتقالية نحو اقتصاد سوق رأسمالي، وقراءة الحزب لموازين القوى الداخلية وفي المنطقة المحيطة بالعراق في أعقاب الاحتلال تميل كليا لصالح مسار التطور الرأسمالي وبصيغته المتطرفة والمتوحشة، بسبب انفلات قوى السوق من الضوابط والقيود. وعلى أساس هذا التقييم والتقدير لموازين القوى، حدد الحزب الأهداف المرحلية القريبة لنضاله في العمل من أجل فرض قوانين وأطر تنظيمية وتشريعية على عمل قوى السوق تحد من آثارها السلبية على الفئات والشرائح الاجتماعية الأكثر هشاشة، وذلك عبر تشريع وانفاذ قوانين وتشريعات العمل العادلة، وتشريع قوانين ضمان اجتماعي وصحي، وتنشيط دور النقابات والاتحادات والعمل على أن تلعب دورا فاعلا في الرقابة وفي الدفاع عن حقوق منتسبيها وعن حرية العمل والتنظيم داخل الجامعات والمعامل وفي مواقع العمل.

ولهذا الصراع بُعد وطني ديمقراطي من جانب، وبُعد طبقي من جانب آخر. ومن شأن تحقيق تقدم في أي من هذه المسارات سيصب في صالح توفير قدر أكبر من العدالة الاجتماعية، وظروف معيشية أفضل، وتأمين مساحات أكبر للمشاركة في الشأن العام.

وبقدر ما تنمو وحدة عمل قوى التغيير، وتتعزز مكانة ودور وتأثير الحزب والقوى المدنية الديمقراطية، تتعزز امكانية الارتقاء بسقوف المطالب والشعارات.

الثقافة الجديدة: من ضمن القضايا التي شهدتها اروقة المؤتمر هي النقاشات التي دارت حول سياسات الحزب التحالفية التي مارسها، بعد المؤتمر الوطني العاشر (اواخر 2016) وحتى لحظة انعقاد المؤتمر الوطني الحادي عشر، وخصوصا التحالف الانتخابي للحزب ضمن (سائرون). وكان السجال حول التحالف الأخير ساخنا ومتوترا بعض الاحيان، لكنه كان جاداً ومسؤولاً. وقُدمت مقاربات مختلفة ورؤى متعددة عبّرت عن الحرص الشديد للشيوعيين على ان يكون أداؤهم على مستوى التحالفات السياسية والانتخابية سليما وصحيحا ومعللا ويسهمون في اغناء تجاربه، وخصوصا في ميدان التحالفات، واساليب تطبيقها في ظل ظروف ملموسة، كما هو عليه الوضع في العراق. ورغم ان التقرير السياسي الذي اقره المؤتمر الحادي عشر قدم عرضا وتحليلا ضافيا لتجربة

التحالف الانتخابي ضمن (سائرون) وأسبابه وجذوره ومبرراته الا انه مع ذلك ما زال هناك من يعتقد ان هناك "بقعا" غير واضحة او غير معللة...الخ. **نطمح منكم رفيقنا العزيز تقديم اضاءة مكثفة لطبيعة التحالف ضمن (سائرون) ولماذا عُقد وجذور ذلك، وما هي "الارباح السياسية" التي حققها الحزب على هذا الصعيد، وهل تحمل الحزب بعض "الخسائر السياسية" المرتفعة جرّاء تحالفه مع (سائرون)، كما يرى البعض؟**

وإذ نطرح هذه الاسئلة فاننا ننطلق من قناعة أكيدة بأهمية دراسة هذه التجربة بعين ثاقبة وذهن متفتح، بعيدا عن أية احكام مسبقة. فالمهم هو ليس هجاء التاريخ وتجاربه قدر توظيف دروسه الثرية بشكل صحيح. فالثوريون الحقيقيون هم اولئك الذين يتعلمون من الصعوبات والثغرات مثلما يستفيدون من نجاحاتهم للتقدم الى الامام واكتساب مواقع جديدة.

رائد فهمي: لقد أثار تحالف الحزب الشيوعي في انتخابات عام 2018 مع التيار الصدري في اطار "سائرون"، الذي ضم أيضا اربعة أحزاب أخرى يغلب عليها الطابع المدني، جدلا واسعا، ما يزال متواصلا الى حد ما، في الأوساط المدنية ولدى الكثير من المراقبين، كما كان محط نقاشات معمقة داخل الحزب، طرحت خلالها وجهات نظر مختلفة بشأنه. وقد خصص التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر الوطني الحادي عشر فقرات ضافية له عرضت خلاصة التقييمات والاستنتاجات التي توصلت اليها مناقشات المؤتمر والتي طرحت فيها الآراء بكل حرية وبروح انتقادية مبدئية ومسؤولة.

وتوزعت الآراء بين مؤيد ومشكك ومتحفظ وناقد ورافض للتحالف. وبشكل عام تمحورت الآراء والمواقف الناقدة لهذه التجربة في صفوف القوى المدنية، وانعكاساتها داخل الحزب، على عدد من من القضايا سأتناولها بإيجاز.

بعض المآخذ التي يثيرها بصور أساسية بعض أعضاء الحزب واصدقائه، تنصب على الآلية والطريقة التي تم من خلالها اتخاذ قرار المشاركة في التحالف، فهم يرون أن القرار لم يسبقه تشاور ومناقشة كافيان، واتسم بتعجل وتفرد، إلاّ أن اصحابه لا يطعنون في أصل فكرة إيجاد أشكال متقدمة من التنسيق والتعاون مع التيار الصدري، وصولا إلى التحالف الانتخابي على وفق شروط مناسبة.

في هذا النقد جانب من الصحة، إذ أدى ضغط عامل الزمن الذي فرضته توقيتات مفوضية الانتخابية لتشكيل القوائم الانتخابية، إلى عدم توفر الفسحة الزمنية اللازمة لمواصلة وتوسيع دائرة النقاش، داخل حزبنا، وبينه وبين القوى والأحزاب المدنية الأخرى لانضاج الموقف ولخلق قناعات مشتركة، ما كان له آثار سلبية لاحقة على مجمل عملية التحالف وفهم مرتكزاتها السياسية والفكرية.

ولكن تحميل قيادة الحزب مسؤولية التفرد في اتخاذ قرار التحالف ينطوي على تجنٍ، فلم يتخذ القرار إلاّ على وفق الآليات الديمقراطية المنصوص عليها في النظام الداخلي، نظمته اللجنة المركزية، وبعد إجراء استفتاء حزبي داخلي، شاركت فيه

كوادر الحزب داخل الوطن وخارجه، كانت حصيلته تأييد أغلبية كبيرة خيار التحالف في إطار "سائرون". كما أنه خلال الفترة من آب 2018 وحتى أواخر عام 2019، عُقِد اجتماعان للجنة المركزية والعديد من الاجتماعات الموسعة للجان المحلية والأساسيات، كرست لمناقشة التحالف مع سائرون، وكانت حصيلتها التأييد الواسع للتحالف.

ولعل المواقف الأكثر حضورا بين معارضي تجربة تحالف سائرون من المدنيين، هي التي ترفض من حيث المبدأ التحالف مع تيار إسلامي، ومع التيار الصدري على وجه الخصوص بسبب التعارض في الفكر والتقلبات في مواقف التيار وعدم استقرارها، إلى جانب امتلاكه تنظيما مسلحا، ولدوره وممارساته إبان فترة الاحتراب الطائفي.

وفي هذا الشأن نشير الى أنه سبق للحزب الشيوعي أن خاض تجربة تحالفية مع التيار الاسلامي ابان فترة المعارضة للنظام الدكتاتوري، وذلك في اطار لجنة العمل المشترك أوائل تسعينات القرن الماضي. كما عمل بصورة مشتركة مع قوى اسلامية في اطار المؤتمر الوطني لفترة قصيرة واستمر التعاون معها بعد خروجه من المؤتمر اواسط التسعينات. فمن حيث المبدأ، لا يحول الاختلاف الايديولوجي من نشوء أشكال من التعاون والتنسيق والتحالف مع قوى اسلامية في ظروف معينة على أساس برنامج سياسي لتحقيق اهداف مشتركة محددة، شريطة أن يكون التحالف قائما على اساس الاستقلالية التنظيمية والفكرية والسياسية، لكل طرف في التحالف، مع التأكيد بأن التحالف لا يشمل الميدان الايديولوجي، وان تكون اسس التحالف وأهدافه منسجمة مع مشروع الحزب الوطني والمدني الديمقراطي طويل الأمد.

والجدير بالأخذ بعين الاعتبار، أن هذه الدعوة للتحالف التي توجه بها التيار الصدري الى القوى والأحزاب المدنية، ومنها حزبنا، لم تأت فجأة ومن دون مقدمات امتدت لحوالي سنتين، ومن دون مقدمات مهدت لها مشاركته الواسعة الى جانب القوى المدنية والحزب في الاحتجاجات التي اطلقتها القوى المدنية في تموز عام 2015 والتي استمرت لما يقارب السنتين، وفي مجراه نشأت وتوطدت في ساحات الاحتجاج وفي فعاليات الحراك، علاقات تعاون وتنسيق وتوافق على شعارات ومطالب مشتركة، تدعو للإصلاح والتغيير ومحاربة الفساد وتوفير الخدمات وتخفيف معاناة الفئات الشعبية، واقامة دولة المواطنة - الدولة المدنية الديمقراطية على قاعدة العدالة الاجتماعية.

وانطلق الحزب في علاقته مع التيار الصدري من نظرته له كحركة اجتماعية – سياسية تتمحور حول شخصية رمزية قائدها وتراث عائلته ليس لها أيديولوجية وبرنامج واضح المعالم. وهي بالتالي غير متجانسة وإن غلب على تركيبتها الاجتماعية الفئات والشرائح الاجتماعية المهمشة وصغار الكسبة والشباب في المناطق والأحياء الشعبية الكثيفة السكان التي تعاني من الفقر ونقص الخدمات. وهي حركة شهدت فرزا وغادرتها مجموعات متشددة شكلت حركات وتنظيمات مستقلة.

ومن المتوقع أن يستمر هذا الفرز والتمايز داخلها ارتباطا باتجاهات تطور وجهتها السياسية، وليس هناك من حتمية في أن يكون الفرز دوما لصالح التوجهات الأكثر اعتدالا.

لذا وجدنا في مبادرة التيار الصدري، الذي يمثل أكبر حركة وتنظيم سياسي ذي تأثير ونفوذ جماهيريين واسعين في محافظات وسط وجنوب العراق، وله هوية إسلامية ومذهبية، في التوجه نحو القوى المدنية، وحزبنا بشكل خاص، لتشكيل تحالف انتخابي من دون أن يجعل الاختلافات العقائدية والايديولوجية مانعا للاتفاق على مشتركات سياسية وطنية، وعلى اساس الاحترام المتبادل للخصوصية الفكرية لكل طرف، انعطافا ايجابيا في الموقف والعلاقة بين قوى وحركات سياسية اسلامية ذات دلالة سياسية وفكرية وثقافية وذات ابعاد أوسع من نطاق العلاقة بين الحزب الشيوعي والتيار الصدري، وتستحق الدعم والتكريس لما تمثله من اعتراف وقبول بالتنوع والاختلاف والاستعداد للتعامل والتعاون مع المدنيين والشيوعيين من قبل الحركة الصدرية، ومن شخصية سياسية واسعة التأثير تمتلك الصفتين الدينية والسياسية. ويمكن لهذا الموقف أن تكون آثار وتداعيات سياسية وثقافية مجتمعية تتجاوز العلاقة بالحزب والقوى المدنية.

كما إن هذا الانتقال في موقف التيار الصدري يعكس فرزا وتباينا في المواقف والتوجه السياسي، ويؤشر اختراقا للاصطفافات والتكتلات السياسية القائمة على أساس الانتماءات المكوناتية والطائفية السياسية، اي البنية السياسية لنهج المحاصصة. ولم يأت هذا التطور في موقف التيار الصدري بمعزل عن اشتداد الأزمات في البلد والفشل البيّن لنهج المحاصصة وازدياد الوعي بالطبيعة الاجتماعية والاقتصادية العابرة للهويات الدينية والمذهبية والقومية، وتنامي الحراك الشعبي واتساع قاعدته. ويمكن لهذا التطور أن يساهم في عملية التغيير في موازين القوى لصالح أي مشروع إصلاحي، كما كان مطروحا في حينها، بعيدا عن نهج المحاصصة وما يصاحبها من فساد وفشل وأزمات.

وقد قام تحالف سائرون على الأسس السالفة الذكر، اي تحديد المشتركات السياسية، التي تبلورت معظمها خلال الحراك الاحتجاجي الذي انطلق صيف عام 2015 ضد الفساد ونهج المحاصصة وغياب العدالة الاجتماعية وتردي الخدمات والمطالبة باصلاحات جذرية ومدنية الدولة. كما تم تثبيت مبدأ احترام الاستقلالية التنظيمية والفكرية والسياسية للأحزاب والقوى المتحالفة. كما تضمن النظام الداخلي للتحالف تشكيل الهيئات القيادية المشتركة، والتزاما بقانون مفوضية الانتخابات وتعليماتها وبقانون الانتخابات، الذي ينص على وجوب تحديد رئيس واحد للتحالف، تم الاتفاق على أن يكون امين عام حزب الاستقامة المدعوم من التيار الصدري، رئيسا للتحالف.

و"يتهم" معارضو تحالف سائرون الحزب بانه فرّط بالتحالف مع القوى المدنية في اطار "تقدم" لصالح التحالف مع التيار الصدري.

نشير بداية الى أن تشكيل هذا التحالف

جاء منسجماً مع سياسة الحزب التي رسمها مؤتمره الوطني العاشر اواخر 2016، ومع التوجهات التي جرى اعتمادها في مجال التحالفات بعد انعقاده. وقد عملت قيادة الحزب على أن تشارك القوى المدنية المؤتلفة في ''تقدم'' مجتمعة وموحدة في التحالف، وأن يكون للتحالف برنامج اقرب ما يكون لدولة المواطنة ونبذ نهج المحاصصة ومحاربة الفساد ويتضمن توجهات اجتماعية - اقتصادية واصلاحات تعزز البناء الديمقراطي للدولة وسيادتها واعتماد سياسات لصالح أوسع الفئات الشعبية، وتحقيق قدر أكبر من العدالة الاجتماعية. وإذ تم الأخذ بالأسس والتوجهات التي دعا لها الحزب، وضمنت في الوثائق الاساسية لـ ''سائرون''، ظهر الخلاف بين أطراف ''تقدم''، وخصوصاً بشأن رئاسة التحالف التي طالب الصدريون أن تكون لحزب استقامة.

اعتبر الحزب مطلب الصدريين متوقعا بسبب امتلاكهم اكثر من ثلاثين مقعدا برلمانيا، كما أن نظام الانتخابات ينص على ضرورة وجود رئيس واحد للتحالف له مهام إجرائية وتمثيلية بالأساس. وبالتالي لم يعتبر هذا الاعتراض كافياً لرفض التحالف الجديد. وبذل الحزب مساعي جدية مع التيار ومع اطراف ''تقدم'' والتيار الاجتماعي لإيجاد صيغة توافقية ولكنه لم ينجح، فيما مارس وفد حزب استقامة والتيار الصدري ضغطا للإسراع في أن تقدم الأطراف المدنية جوابا لكي يتم تقديم القوائم إلى المفوضية لوجود مواعيد زمنية واجبة الاحترام. ولم يكن هناك اعتراض جوهري من قبل معظم قوى تقدم على مبدأ التحالف الانتخابي، وإنما على شروطه وآلياته، مع العلم ان بعض الأطراف المدنية كانت ممتنعة عن الانضمام إلى تحالف ''تقدم'' لوجود الحزب الشيوعي، وانضمت لاحقا الى التحالف المدني الديمقراطي بعد انسحاب الحزب الشيوعي منه، كتنظيم الدكتور غسان العطية، كما أن عددا من اطراف ''تقدم'' انضمت إلى تحالف سائرون او عبرت عن تأييدها له.

ولا شك في ان الضغط وعامل الوقت لم يوفرا الفسحة الزمنية اللازمة لمواصلة وتوسيع دائرة النقاش لانضاج الموقف، ولخلق قناعات مشتركة.

وبالنسبة للحزب، لم يكن التحالف في إطار سائرون عائقا امامه لمواصلة جهوده من أجل تطوير التعاون والتنسيق مع القوى والشخصيات المدنية والديمقراطية والسعي لتحقيق وحدة عملها.

ومن جانب آخر، وجد لهذا التحالف تنظير لدى بعض المثقفين اليساريين الماركسيين يستند إلى مفهوم الكتلة التاريخية للمفكر الماركسي الايطالي غرامشي، إلاّ أن الحزب لم يعتمد هذا المفهوم في تحليلاته، وفي التأسيس الفكري لموقفه من التحالف لاختلاف الظروف والشروط التي ترتبط بفكرة الكتلة التاريخية في ظل نظام رأسمالي متقدم.

كان الحزب يرى في تحالف سائرون تحالفا انتخابيا يمكن أن يتطور إلى تحالف سياسي أطول أمدا، ويحقق إنجازات ملموسة على مختلف الصعد في حال تم الالتزام ببرنامجه وآليات نظامه الداخلي وتوسيع قاعدته الجماهيرية، إلاّ أن هذه الامكانية لم تتحقق.

كما اوضحت في ما تقدم، ان نظرة الحزب لأبعاد هذا التحالف ومرتكزاتها النظرية والسياسية تتعدى المنظور الأضيق له الذي يمكن قياس "أرباحه" و"خسائره" كما، من دون اهمال حساب وتقدير آثار ونتائج التحالف على أوضاع الحزب ومكانته وشعبيته ونشاطه.

فما يندرج في خانة الايجابيات ارتفاع مجموع الأصوات التي حصل عليها مرشحو الحزب مقارنة بالدورات الانتخابية السابقة، اذ بلغ مجموع اصواتهم ما يزيد على ثمانية وتسعين ألف (98000) صوت مقابل خمسة وستين الف (65000) صوت في الانتخابات التي سبقتها، وقد حصلت شخصيا كمرشح عن محافظة بغداد ما يزيد على تسعة عشر ألف صوت (19000)، والرفيقة هيفاء الأمين حصلت على أكثر من اثني عشر ألف (12000) صوت في الناصرية.

وبعد بدء الدورة البرلمانية الرابعة، حدث توسع في مساحة الحضور السياسي والاعلامي للحزب، وكنت بمثابة المتحدث الرئيس باسم كتلة سائرون في وسائل الاعلام وبدون أي تدخل أو ضغط من نواب استقامة والتيار. كما زاد بشكل كبير ظهور شخصيات حزبية قيادية في القنوات الفضائية. وعلى صعيد العمل البرلماني والتشريعي، كان لنائبي الحزب دور مؤثر في مجلس النواب، إذ تولت الرفيقة هيفاء الأمين رئاسة لجنة المرأة، كما كان لنا دور قيادي في لجنة متابعة البرنامج الحكومي، كما كان للحزب دور في تقديم مقترحات ناضجة لقوانين مهمة كمشروع قانون الضمان الصحي، ومشروع قانون المحكمة الاتحادية وفي اصدار قرار برلماني بشأن معالجة مشكلة السكن في العراق. وفي اطار عمل كتلة سائرون، كان النائبان الشيوعيان يتمتعان بتقدير واحترام كبيرين من قبل أعضاء كتلة تحالف سائرون، ولمساهماتهما ولآرائهما قبول وتأثير ملموس في مداولات الكتلة.

وكان ممثلا الحزب في مجلس النواب يتخذان المواقف بحرية واستقلالية إلى حد التقاطع احيانا مع موقف كتلة سائرون، كما حدث ذلك عندما انسحب رفاقنا من جلسة التصويت على تعديل النظام الانتخابي لصالح سانت – ليغو المعدل الذي رفضه الحزب، بخلاف موقف نواب حزب استقامة الصدريين المؤيدين للتعديل.

ومن ايجابيات التحالف التي لم تستثمر كما ينبغي، الظروف الأكثر انفتاحا وحرية العمل ونشاط المدنيين والشيوعيين ومبادراتهم في المناطق والأحياء الشعبية الكثيفة، كما ساهم هذا التحالف في سحب البساط من الدعوات المتطرفة لتكفير الشيوعيين والمدنيين.

بالمقابل، اقسام غير قليلة من الجمهور المدني، بما في ذلك بعض رفاق الحزب، كانت ترفض من حيث المبدأ تحالف الحزب مع قوى اسلامية عموما، ومع التيار الصدري لمواقفه التي تعتبرها غير ثابتة ولأعمال جيش المهدي ودوره أثناء الاحتراب الطائفي، وتجد في هذا التحالف محاولة لاحتواء الحزب والنشاط المدني. وبعض أصحاب مثل هذا الموقف من الرفاق، وخصوصا الشباب، قرر الاستقالة من الحزب رغم أن الحزب لم يحاسب رفيقا أو رفيقة على رأيه/ ـا، وإنما تمت

المساءلة الحزبية على الخروقات المرتكبة للنظام الداخلي ولضوابط التعبير عن الاراء المخالفة لسياسة الحزب ولنقل الصراع الفكري إلى خارج المنابر الحزبية.

إنّ المخاوف والهواجس التي يعبر عنها أصحاب هذه الآراء المناوئة أو المتحفظة على التحالف لم تكن غائبة عن تفكير قيادة الحزب عندما دعت إلى خوض تجربة التحالف، وهي تدرك تمام الادراك بأن التحالف وحدة وصراع وأن لكل طرف مصالحه وخططه واهدافه التي يسعى إلى تحقيقها من خلال التحالف. لذا كان يصر الحزب على مبدأ الاستقلالية التنظيمية والفكرية والسياسية في تحالفاته، وعلى تثبيت آليات عمل تضمن المشاركة المتكافئة في إدارة وقيادة التحالف. وقد توفرت هذه الشروط في تحالف سائرون، وعمل بموجبها الحزب عندما اقتضت الظروف ومصلحة الحزب ذلك. واشرنا إلى اتخاذ النائبين الشيوعيين مواقفهما بحرية واستقلالية الى حد التقاطع احيانا مع موقف أغلبية نواب سائرون عندما تعلق الأمر بتمرير تعديلات على قانون الانتخابات من شأنها تهميش الأحزاب والكتل الأصغر عددا، وتكريس هيمنة القوى والأحزاب الطائفية السياسية على المجلس.

وقد حرص الحزب في اطار التحالف على امتلاك حرية القرار في الاستمرار في التحالف أو الخروج منه. وهذا ما قام به الحزب بعد اندلاع الانتفاضة وعدم قيام مجلس النواب بدوره في وضع حد لقمعها ومساءلة واستجواب رئيس الحكومة والقادة الأمنيين، وعدم اتخاذ كتلة سائرون الموقف الحازم في دعم الانتفاضة، معلنا بالوقت نفسه انتهاء مشاركته في تحالف سائرون.

لقد كان الحزب حريصا على ترسيخ التحالف الانتخابي عبر الالتزام ببرنامجه ونظامه الداخلي والعمل جديا على تحقيق اصلاحات عميقة على المستويين التشريعي والتنفيذي باتجاه نبذ نهج المحاصصة ومحاربة الفساد وتوجيه السياسات العامة نحو التنمية الاجتماعية والاقتصادية وتأمين مستوى أفضل من العدالة الاجتماعية، وأن تتم إدارة الصراع والاختلاف في اطار التحالف طالما كانت المحصلة تميل لصالح الايجابيات. ولكن عندما تبرز مظاهر ضعف وخلل في عمل وإدارة التحالف، انحسرت على اثرها الايجابات المتوقعة والمخططة للتحالف، يكون الخيار الأسلم فض التحالف.

لقد استغرقت المناقشات بشأن تحالف سائرون وقتا طويلا نسبيا في أعمال المؤتمر الحادي عشر، توصلت إلى استخلاص عدد من الدروس، من أهمها امكانية التعاون والتنسيق في قضايا معينة مع قوى سياسية أخرى كالتيار الصدري، من دون دفع ذلك إلى أطر تحالفية، لأنها تحتاج إلى مقاربات أخرى لها علاقة بمنهج الأداء السياسي وطبيعة الأطراف ونمط ادارتها، ولا يكفي في هذا الشأن تشابه المنحدر الاجتماعي لطبيعة جمهور القوى المتحالفة.

ونرى أن لم يمض وقت كاف على انتهاء التحالف لتحديد نتائجه السلبية والايجابية، كما أن انتهاء تحالف انتخابي لا يعني فشل التجربة، فالتحالف الانتخابي مؤقت بطبيعته وله أهداف محددة ضمن الفترة الزمنية للدورة الانتخابية، وهو قابل للتطور إلى تحالف سياسي أشمل من البعد

الانتخابي في حال توفير شروط معينة سبق ذكرها بالنسبة لتحالف سائرون، والتي لم تتوفر لكي يتطور إلى تحالف سياسي استراتيجي.

الثقافة الجديدة: طيلة التاريخ النضالي المديد للحزب الشيوعي العراقي كان لشريحة المثقفين من شيوعيين ووطنيين وديمقراطيين الدور البارز في بلورة مشاريع التغيير ونشر قيم التنوير والحداثة التي طرحها وروجها الحزب. ومن خلال تجارب الحزب الملموسة بشأن المسألة الثقافية والمثقفين عموما **كيف ينظر الحزب – في وثائقه التي اقرها البرنامج – للعلاقة بين الشيوعيين العراقيين والثقافة والمثقفين ولدورهم في المسألة الثقافية وفي نشر افكار الحداثة والديمقراطية عموما، وذلك ارتباطا بشعار "التغيير الشامل" الذي أقرّه المؤتمر 11؟**

إنّ السؤال يركز على نظرة الحزب الراهنة للعلاقة بين الشيوعيين والثقافة والمثقفين، لذا يعفيني السؤال من الاستعراض التاريخي لهذه العلاقة المتميزة وتوضيح أسبابها والتي ينفرد بها الحزب الشيوعي من دون اي حزب او حركة سياسية أخرى والتي تجد تعبيرها المكثف في الصورة الراسخة في الوعي العام للمجتمع بأنه حزب مثقفين، وللحضور المؤثر للحزب في اوساط المثقفين والمبدعين حتى يومنا هذا.

اشير بداية إلى أن برامج الحزب في مختلف مراحل مسيرته، تضع ضمن أولويات عمل الحزب وأهدافه ضمان حرية الثقافة والابداع، واحترام التعددية الفكرية والسياسية في ثقافتنا الوطنية والعمل على ازدهارها، ورعاية الثقافة والمثقفين. وظل هذا النهج ثابتا لا يحيد عنه الحزب رغم تقلب الأوضاع وتعقد ظروف عمله في ظل الأنظمة الدكتاتورية.

وقد أعارت وثائق المؤتمر وأعماله التحضيرية في إعدادها، ولاحقا في مناقشات المؤتمر اهتماما كبيرا لتشخيص وتقييم الواقع الثقافي في البلاد بكل جوانبه، واستخلاص المهمات والأولويات التي يجب أن ينصب عليها نضال الحزب وعمله في المرحلة الراهنة، وارتباطا بذلك بحث سبل تعزيز وتطوير وتجديد أساليب وآليات عمل الحزب وخطابه من أجل زيادة تأثيره.

لقد خلصت قراءة وتحليل الحزب ومناقشات المؤتمر الحادي عشر للواقع الثقافي في العراق وسيرورته منذ التغيير عام 2003 إلى أن قطاع الثقافة في العراق قد أصابه التدهور ويعاني من أزمة بنيوية، شأنه في ذلك شأن بقية قطاعات المجتمع، كما أن الأزمة الثقافية هي جزء من الأزمة الاجتماعية.

فمن ناحية الدولة، أهملت الحكومات المتعاقبة قطاع الثقافة، بصورة يمكن توصيفها بالممنهجة من منطلقات فكرية وأيديولوجية غير مصرح بها. وتمظهر ذلك بتناقص ميزانية وزارة الثقافة إلى أقل من خمسة بالألف (0,5%) من عموم ميزانية الدولة، ويأكل الفساد نصيبا كبيرا منها، وبتخلي الدولة عن مسؤوليتها في انشاء البنى التحتية للثقافة وتوفير شروط ازدهارها، وفي اهمال الامكانيات البشرية من خلال عدم تقديم الدعم الحقيقي من جانب الدولة ومؤسساتها للإنتاج الابداعي، وتغييب دور المثقفين.

وقد خلقت هذه الاجواء المحيطة بالمشهد الثقافي لدى المثقفين احساسا بالتهميش على يد الحكام المتنفذين وتصوراتهم الشعبوية المبتذلة في فهم دور المثقف وخصوصيته، وشعورا بانسحاق المثقف تحت وطأة الاحساس بالإحباط والعزلة وطاحونة اللهاث وراء العيش على نحو يستنزف طاقته الابداعية.

لذا جاء التأكيد في وثائق المؤتمر على الاصلاح الثقافي باعتباره ضرورة ملحة كجزء من الاصلاح كقضية مجتمعية، بما يعنيه ذلك من توفير شروط نمو الثقافة وتطورها، ومن إعادة الاعتبار إليها كجزء اساسي من حياة الناس، ومصدر لا ينضب لمتعتهم وفائدتهم.

ويقتضي الاصلاح الثقافي، إعادة بناء المشهد الثقافي الإبداعي في بلادنا. واحد العناصر الأساسية في هذه العملية هو اعتماد استراتيجية ثقافية وطنية تكرس الرؤية للثقافة باعتبارها جزءاً أساسياً من حياة الناس وحاجاتهم، وشرطا لارتقاء الانسان ونهوض المجتمع، وينبثق منها مشروع ثقافي وطني يكون حاضنة للتيارات الداعية الى بلورة هوية وطنية منفتحة متجددة، تحترم التعددية الثقافية والفكرية، وتتفاعل مع سائر روافد الفكر العالمي وتياراته.

وإذ نشدد على المطالبة باستقلال الثقافة، نشاطا وانتاجا، وعدم تدخل الدولة في العمل الثقافي وكف أجهزة الدولة عن التدخل في العمل الثقافي، ندرك جيدا أن المجال الثقافي الذي يتشكل في رحابه الوعي للفرد والمجتمع، ميدان أساسي للصراع الإجتماعي والأيديولوجي والسياسي، والقوى المتنفذة تعي ذلك جيداً وحشدت موارد وطاقات مادية وبشرية هائلة، وتوظيف نفوذها وتحكمها بمفاصل الدولة وبالمؤسسات و"أجهزة الدولة الايديولوجية" على حسب تعبير المفكر الماركسي الفرنسي ألتوسير، من أجل التضييق على منافذ ومنابر ووسائل نشر ثقافة وأفكار التنوير ومناهج التفكير العلمي النقدي، وبالمقابل نشر الوعي المزيف وتكريسه بغية إدامة هيمنتها الفكرية والاخلاقية والايديولوجية وشرعنة حكمها وسلطتها.

ونجد يوميا ومن خلال ممارسات مختلفة مظاهر الصراع المحتدم في حقل الثقافة والاعلام. وليس الصراع الفكري المباشر والصريح بين حملة فكر التنوير والمدنية والحداثة بمدارسه المختلفة، واصحاب الفكر المحافظ والتقليدي الذي ينظّر للتعصب الديني والطائفي، ليس إلا الجزء الظاهر من الصراع على الهيمنة الفكرية في المجتمع، فعناصر ومجالات الصراع الأخرى نجدها في اختيار اسماء المدن والمحلات والشوارع، وفي تحديد العطل والمناسبات الرسمية، وفي اختيار النُصُب وشكل العمارة، وفي طريقة اجراء المراسيم والطقوس واحياء المناسبات الدينية والاجتماعية، إلى جانب محتوى المناهج الدراسية والبرامج في الاعلام السمعي والبصري وفي الصحافة والادب والشعر وحقول الابداع المختلفة.

وفي بنية اجتماعية - اقتصادية ركيزتها الريع، وتنحسر فيها مساحة ودور الانشطة الانتاجية، ويسود فيها الاقتصاد التوزيعي، تزداد أهمية الوزن النسبي في المجال الفكري والثقافي، بالمفهوم الواسع للثقافة،

كوجه أساسي من أوجه الصراع الاجتماعي - الطبقي، ولا يمكن تصور احراز نجاحات راسخة على طريق الاصلاح والتغيير الشامل، من دون أن تترافق عملية توحيد الجهد السياسي والتعبوي لقوى التغيير، بجهد ونشاط منسق وموحد يقوم به المثقفون والمبدعون لكشف وتعرية وتقويض الوعي المزيف وعوامل وآليات إنتاجه وإعادة إنتاجه من أجل تحرير العقل والسماح بالخيار الحر والواعي للمواطن والمواطنة.

ومن هنا تكتسب اهمية اضافة التغلب على مشاعر الاحباط واليأس والانكفاء المنتشرة لدى أوساط غير قليلة من المثقفين والمبدعين.

الثقافة الجديدة: واخيرا، من خلال المشهد السياسي/ الاقتصادي/ الاجتماعي المعقد بل البالغ التعقيد الذي حدّد معالمه الكبرى التقرير السياسي الذي اقره المؤتمر الوطني الحادي عشر، نود الاشارة هنا الى ان الانتقال في اتجاه التغيير الشامل يجب ان يستند إلى تغييرات عميقة في أسس وبنية النظام السياسي الاقتصادي العراقي، والتطلع إلى نزع هيمنة الأحزاب والقوى الطائفية والمحاصصاتية التي تحوّل تحالفهما إلى عائق أساسي أمام التغيير وأمام الاستجابة لمصالح القوى الاجتماعية المتضررة من نهج وممارسات القوى الطائفية والمحاصصاتية في بلادنا. ومن الضروري الاشارة الى ان النظام المحاصصي/ الطوائفي قد بلغ مداه الاعلى بالمعنى الاستراتيجي، ولا بدّ من الدفع في اتجاه تغييره وإرساء ديمقراطية حقيقية وتحويل الاقتصاد الريعي وبذل اقصى الجهود لبناء الاقتصاد الانتاجي وتحقيق العدالة الاجتماعية. ومن هنا بات وقف هذا المسار مهمة وطنية راهنة أمام قوى التغيير وليس مهمة حزبية صرفة.

وهنا في ظروف النضال الوطني والمجتمعي/الديمقراطي الذي يخوضه شعبنا بمختلف قطاعاته وطبقاته وفئاته وشرائحه الاجتماعية، تبرز **الأهمية المحورية للعمل الجماهيري** وضرورات المشاركة الواسعة في إطاره والتأثير على اتجاهاته الرئيسية، باعتباره **إحدى روافع** النضال الأساسية، التي لن يكون بمقدور الحزب الشيوعي العراقي أن يؤدي رسالته التاريخية، إلا إذا اعتمد بجدارة على الجماهير الشعبية واجتذبها الى ساحات النضال من منطلق الأهداف والمهمات والشعارات التي تنسجم مع المصالح والحاجات الحيوية لهذه الجماهير في اللحظة التاريخية الملموسة، ولكن غير المقطوعة عن أفق المستقبل وخياراته الكبرى.

ومن المهم الاشارة هنا الى ان الطابع الطبقي للحزب يقاس بمدى قدرته على الدفع الصبور، يوما بعد يوم، للنشاط الواعي والمنظم والواسع للناس حول ابسط مصالحهم الحقيقية والمادية والانسانية اليومية، واكتشاف طرق واشكال توحيد هذه الانشغالات في خضم الصراع من اجل بناء عراق ديمقراطي حر ومستقل وسيد نفسه.

ومن جهة اخرى فان نجاحكم – كحزب شيوعي - في تطوير الحركة الاحتجاجية وتوسيع قاعدتها وتعظيم فعلها وتأثيرها وتوسيع قاعدة المشاركين فيها انما يعتمد على عدة عوامل من بينها بل وأهمها وضع استراتيجية للتغيير بهدف تحويل المجتمع،

وبناء نظام مدني- وطني- ديمقراطي، وان تعتمد التكتيكات المناسبة التي يجب ان تكون خادمة لتلك الاستراتيجية وليس عبئا عليها.

وفي كل ذلك وفي اطار الصراع الاجتماعي المتوتر تبرز اهمية التأكيد على **الحفاظ على الوجه الطبقي/ الوطني المستقل للحزب الشيوعي** وطرح برنامجه والتوجه الى الجماهير على هذا الأساس. علما ان هذا لا يعني بالمقابل عدم الانخراط في اعمال ميدانية حول مطالب مجتمعية او تحالفات ميدانية شرط وضوح برامجها ومدى اقترابها من مشروع الحزب الرامي في جوهره الى تفكيك نظام المحاصصات الطائفية – الاثنية وليس تأبيده.

والسؤال هو كيف يمكن ان يكون الحزب قادرا على لعب هذا الدور الطبقي والوطني المؤثر في العمل الجماهيري والاحتجاجي؟ وما هي الاليات التي بلورها الحزب، والاجراءات التي صاغها عند مناقشته هذه القضايا في مؤتمره الحادي عشر؟ ومن المؤكد ان انتفاضة تشرين 2019 كانت حاضرة على جدول المناقشات، وبالتالي ما هي الدروس المستخلصة من هذه الانتفاضة وهل سيراهن الحزب على اندلاع انتفاضات مماثلة مستقبلا وان تكون رافعة جدية وحقيقية للتغيير المطلوب؟

رائد فهمي: تشهد البلاد بعد مضي خمسة شهور على انتخابات مبكرة، أزمة سياسية خانقة تعبر عنها الاستعصاءات التي تواجهها عملية انتخاب رئاستي الجمهورية ومجلس الوزراء وتشكيل حكومة جديدة. ويؤشر استمرار الاستعصاءات وفشل محاولات رأب التصدعات في "البيوت السياسية المكوناتية" عمق أزمة نهج المحاصصة وعجز منظومتها السياسية عن إعادة انتاج التوافقات ما بينها لانتخاب الرئاسات وتشكيل الحكومة، كما في الدورات السابقة، ويؤكد الحاجة إلى الخلاص من نهج المحاصصة المنتج للأزمات ووضع البلاد على سكة التغيير نحو نمط حكم بديل يقوم على مبدأ المواطنة والعدالة الاجتماعية، إلاّ أن هذا البديل لا يزال في حالة مخاض وصيرورة. لذا فان المحور الأساسي للصراع، حسب ما بينته أعمال المؤتمر، يكمن في مضمون التغيير المطلوب وكيفية تحقيق موازين القوى اللازمة لانجازه.

وإزاء تعنت قوى المحاصصة في موقفها المتمسك بنهج المحاصصة الطائفية والإثنية، وعدم قدرتها أو استعدادها لإحداث اي اصلاح حقيقي يحاسب الفاسدين ويتصدى لعوامل انتاج الفساد ويضع حدا للسلاح خارج سيطرة الدولة الفعلية، فيما تتفاقم معاناة قطاعات شعبية واسعة، بات التغيير ضرورة، ويشمل تغييرا في نهج الحكم بعيدا عن المحاصصة الطائفية والإثنية، وفي مضمونه ووجهته وسياساته على الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمضي في عملية تقويم واصلاح جذرية لبناء الدولة ومؤسساتها المدنية والعسكرية على أساس مبدأ المواطنة والولاء للوطن وتعزيز مقومات سيادة الدولة واستقلالية القرار الوطني واحترام الدستور نصا وروحا، والسير حثيثا نحو دولة القانون والمؤسسات والعدالة الاجتماعية.

ومثل هذا التغيير الشامل لا يمكن أن يتحقق من دون ضغط شعبي وتغيير في موازين القوى قادر على تمكين مشروع

التغيير. وقد كشفت انتفاضة تشرين الباسلة عن القوة الهائلة الكامنة في الشعب عندما تتوحد إرادته وتنخرط اقسام وفئات وشرائح واسعة منه في عملية الصراع والفعل السياسي المباشر. وتؤكد التطورات الأخيرة، ان الحراك الاحتجاجي الشعبي وإن تراجع مستواه عما كان عليه إبان الانتفاضة، إلاّ أنه مستمر حيث تتواصل نشاطات ومبادرات احتجاجية من قبل فئات وقطاعات اجتماعية ومهنية مختلفة وفي العديد من المحافظات، إذ نشهد احتجاجات للفلاحين وللخريجين والعاطلين عن العمل والمتعاقدين مع وزارة التربية والوزارات الأخرى والعاملين في بعض الشركات الصناعية المملوكة للدولة التي يراد تصفيتها، ولأهالي العديد من المناطق، الذين يطالبون بالخدمات، ما يؤكد أن عوامل تفجر الانتفاضة لا تزال قائمة وتتفاعل دون توقف، وبغض النظر عن تصاعد وتراجع زخم أنشطتها.

وإزاء التحديات التي تواجهها البلاد، رسم الحزب في الوثائق التي اقرها المؤتمر الحادي عشر، استراتيجيته الهادفة إلى مراكمة عناصر القوة والتمكين للعامل الذاتي حامل مشروع التغيير وما تلقيه من مسؤوليات ومهام على عاتقه، وتحديد الوسائل والآليات وتكتيكات العمل النضالي الكفيلة بتوفير مستلزمات وأدوات عملية التغيير بالارتباط مع نضوج الشروط الموضوعية وبالاستفادة من دروس نجاحات وإخفاقات انتفاضة تشرين.

ونحن ندرك جيداً بان الشرط الأول والأساسي لتنفيذ أي من الأهداف المرتبطة بشعار التغيير الشامل، هو الارتقاء بعمل وأداء الحزب عبر تعزيز دور الشيوعيين ومبادراتهم في الحراك الشعبي وتوسيع صلاتهم الجماهيرية وتوثيقها، وتلمس حاجاتها، وعلى وجه الخصوص مطالب الشغيلة والكادحين والكسبة والمهمشين وذوي الدخل المحدود، والمساهمة النشيطة في صياغة وبلورة مطالبها والمبادرة الى تنظيمها وتعبئتها لتحقيقها على مختلف المستويات. واستلهاما لدروس الانتفاضة، لا بد من العمل على تطوير صيغ مرنة وفاعلة لتوحيد القوى المتنوعة المشتركة في الحراك الاحتجاجي وساحاته ومجالاته ومناطقه وقطاعاته الممتدة جغرافيا واجتماعيا داخل الوطن، وتوفير قيادة سياسية لنضالاته، وتوفير الحصانة له والقدرة على افشال مساعي القوى المتنفذة لاحتوائه وضربه وتشتيت قواه وتضبيب رؤيته والتشويش على أهدافه وأساليب عمله.

فكل ذلك يشكل شروطا مسبقة واجبة التوفر لكي تتحول الحركة الشعبية إلى القوة الدافعة الأساسية للتغيير.

ان نجاح الحزب في تحقيق هذه المهام يتطلب أولا تطوير آليات وأساليب عمل الحزب التنظيمية، والسعي إلى مزيد من الانفتاح في خطابه وعمله وعلاقاته، وتنشيط دور الشيوعيين في الاتحادات والنقابات العمالية والمهنية وفي المنظمات الديمقراطية والجماهيرية، والتوجه نحو المرأة والشباب والطلبة والتعبير عن همومهم ومطالبهم وتحسين ظروفهم وضمان مستقبلهم وحقهم في العمل والسكن والعيش الكريم وإزالة الحواجز والمعوقات وجميع أشكال التمييز التي تحول دون

توسيع مشاركتهم في الحياة السياسية وتولي المسؤوليات القيادية على صعيد أجهزة الدولة وفي الأحزاب ومنظمات المجتمع المدني والأهلي.

ويسعى الحزب إلى تعبئة قواه وصلاته الجماهيرية وزجها في العمل وفق التوجهات السالفة الذكر، وبالتلازم مع هذا السعي يعمل الحزب بدأب ونشاط ومثابرة من أجل توحيد عمل القوى والأحزاب والحركات والتنظيمات المتبنية والمساندة لهدف ومشروع التغيير بمضامينه السياسية الوطنية والديمقراطية والاجتماعية الداعية إلى دولة المواطنة المدنية الديمقراطية القائمة على العدالة الاجتماعية. وقوى التغيير تشمل طيفا واسعا من الأحزاب والقوى والحركات المدنية، والأحزاب والجماعات والتشكيلات المنبثقة من انتفاضة تشرين والحراك الشعبي، بما في ذلك النواب المستقلون الذين فازوا في الانتخابات الأخيرة. كما يشمل معظم الاتحادات والنقابات العمالية والمهنية ومنظمات المجتمع المدني التي تلتقي أهدافها ومصالح منتسبيها مع أهداف ومضامين مشروع التغيير.

إن تحقيق وحدة العمل والمشروع بين هذا الطيف الواسع من القوى ليس يسيرا ويصطدم بمعوقات التنافس والتنازع على مواقع الصدارة والقيادة والطموحات الشخصية وبعض الممارسات والأفكار الاقصائية وقلة الاطر الجامعة للحوار وللنقاش وانضاج أرضية وشروط العمل المشترك. ولكن ثمة وعي متنامي وواعد بضرورة السعي الدؤوب لتذليل معوقات وحدة العمل، وتحققت خطوات عملية بهذا الاتجاه، لكنها بحاجة إلى توطيد وتطوير.

وفي سياق هذه التوجهات، يعمل الحزب مع أحزاب وقوى مدنية أخرى على استنهاض وتطوير التيار الديمقراطي، وأحرز تقدما ملموسا في الأسابيع الأخيرة بانعقاد المؤتمر الثالث للتيار وتشكيل هيئات قيادية على الصعيد الوطني وفي المحافظات بمشاركة قوى جديدة وعناصر شبابية. كما تشكل المجلس التشاوري الذي يضم حركات تشرينية وأحزابا مدنية وممثلي نقابات عمالية ومهنية، وهو اطار للتشاور والحوار الهادف الى تعيين وتوسيع قاعدة المشتركات وبلورة صيغ عمل ومبادرات سياسية وجماهيرية مشتركة. وإذ يرى الحزب في هذا الأطر صيغا تحالفية قابلة للتوسيع والتعميق والتطوير نحو صيغ ائتلافية وسياسية أكثر تقدما.

أدب
و
فن

آذار.. موعد مع الفرح

حسب الله يحيى

نتفاءل كثيراً كلما اقتربت ايام آذار منا. ونجد انفسنا في حالة احتفاء مع أفراح نشارك فيها ابناء شعبنا، ذلك ان بيادر كلماتنا، انما تنطلق من حياة الناس وتتوجه اليهم كذلك.

ومن هنا نجد انفسنا في حالة مشاركة في أفراح شعبنا في هذا الشهر الربيعي المكلل بالخير والجمال.

ربيع الثورات الشعبية في العراق وأقطار الوطن العربي التي وأدتها السلطات القمعية، لكونها تنم عن وعي وارادة شعبية مضيئة.

لقد كانت آمالا ربيعية مفتونة بالحياة والامل والرغبة في اعمام السلام والحياة الرغيدة بين الناس.

فيما المرأة صنو حياتنا، المرأة المضحية والمعطاءة والمناضلة التي يشرق يومها العظيم في الثامن من آذار الخالد، وهي تحتفي بعيدها العالمي، مختطة لنفسها دروباً بعيدة عن القمع والاضطهاد والعنف والتعسف التي ظلت تلقي بظلالها على حياتها الصعبة المليئة بالتضحية.

وفي الحادي عشر من ربيع آذار كانت حمامة السلام التي بعثت منطلقة في سماء كردستان، واحلال الحياة الآمنة والمستقرة في كردستان، ليعيش الكرد والعرب والتركمان والصابئة والآشوريون والمسيحيون جميعاً في وطن آمن ومستقر اسمه كردستان.

نعم.. توقف القتال الآثم ضد كردستان الخير والمحبة، وتوقفت معها حرب دامية ما كنا نريدها أبداً.

وضمن هذا المناخ السار جاء تأسيس حزب الكادحين/ الحزب الشيوعي العراقي عام 1934 ليسهم مساهمة فعالة في بناء الواقع الجديد لعراق آمن ومستقر تسوده الحرية والتآخي وتتحقق فيه آمال شعبنا في تحقيق الوطن الحر والشعب السعيد.

نقول هذا على سبيل المعطيات التي يحملها هذا الشهر العظيم بآماله وأفراحه إنما لنؤكد على حقيقة أساسية وهي ان نضال الشعوب لا يخضع لمناخ معين ولا لتوقيتات محدودة، وانما تأتي مسارات الشعوب مرهونة بالضغوط التي يواجهونها وغياب التفاعل من قبل الحكومات مع آمالها وطموحاتها في توجيه قوى الشعوب بمختلف مذاهبها وفئاتها وقومياتها.. ذلك ان الجميع يطمحون الى تحقيق سياسة وطنية تتخذ من كل الخطط التي ترسمها وتعد اليها، لتحقيق ارادة الشعب، وليست ارادة الحكام او فئات بعينها؛ فمثل هذه السياسة

قد جربت وباءت بالفشل الذريع وبتنا نعدها العقبات التي نريد التخلص منها، بحثاً عن أفق جديد وعالم متغير ووجود ابهى مما كنا عليه في السنوات العجاف تلك، والتي كان طغيان السلطة السابقة فيها شاملاً على كل قطاعات الشعب، فيما جاءت السنوات المرة بعد 2003 لا لتغير من نهج الماضي السلبي الذي عشناه، وانما لتواصل مرحلة جديدة من المرارات التي شكلت ثقلاً على حياة شعبنا.

وامامنا سلسلة التظاهرات والاحتجاجات التي عمت أرجاء الوطن والتي تبحث عن سبيل للخلاص من نظام المحاصصة وتقاسم السلطات بين الفئات عينها من دون مراعاة لما يمتلكه شعبنا من كفاءات وقدرات، فضلاً عن الثروات وطاقات البلاد التي يمكن ان تحقق للعراق ربيعاً دائماً يكلل بالافراح والمنطلقات التي تفتح آفاقاً جديدة امام العراقيين من حيث تحقيق الامن والسلام والرعاية لكل فرد من افراد المجتمع، ليتحول العراق الى ربيع دائم الازهار والازدهار..

ترى هل نحن مقبلون على واقع جديد باستذكار ما كنا عليه وما نريد ان نكون؟

نعم.. نحتكم الى العقل والى الارادة لبناء وطن يتفاءل بالسلام والوحدة الوطنية والتآخي وتعزيز ارادة شعبنا في الاستقلال التام.

النسويّة العموميّة: نحو فكر محوري

د. نادية هناوي

النسويّة العموميّة مفهوم ثقافي لتصور جماعيّ، عقلانيّ النزعة وموضوعيّ التصميم، فيه للنسويّة قطبان: الأول تمثله المرأة كمفرد والآخر تمثله النساء كمجموع. وباستقطاب أحدهما للآخر تأملاً وترقباً وتوازناً وجذباً تغدو النسويّة عموميّة حيث المجموع لا يحوز على مكانة الفرد، والكل لا يسود كنظام على حساب الجزء؛ بل المجموع يكمل واحده وهو المرأة المعبر عنها كينونة غير منفصلة عن هذا المجموع ولا مجتزأة سواء في امتلاك أفكارها التي تماشي طبيعتها أو في التعبير عن نفسها مستقلة في نزعاتها ونواياها ومؤثرات وعيها وبخيوط فكرية حركية ووجهات نظر جوهرية مشبعة وموسعة، فيها يغدو المجموع النسوي عاكسا المرأة في انفرادها وموطدا انعكاس النساء في هذه المرأة أيضا.

وحينها تكون مبررات توحد الجزء بالكل هي نفسها مبررات استقلال الجزء عن الكل، ومن ثم لا تُشطَر النسوية العمومية ولا تُقطع ولا تتناقض؛ بل هي المرأة مفكرة في نفسها لنفسها بانية ذاتها من خلال خصخصة شخصيتها متحصنة ومرئية غير متماهية ولا مغيبة. فهي ليست عابرة ولا مفرطة بلا نظام هارموني ينتمي لنظام نسوي هو دائم ومبجل ومتوازن ومزدوج وواقعي، يعترف بالمرأة كيانا منه يتشكل الجوهر والتاريخ.

فالنسويّة العموميّة رؤية متبادلة لمجموع نسوي شمولي ذي قوى محورية ليس فيها نكران للذات المفردة التي هي في صيرورة مع الذوات التي تشبهها عاملة للحاضر ومستشرفة المستقبل مشكلة النظريّة والتطبيق، متجاوزة هفواتها ومعالجة شروخ كيانها، مصححة مسارها بما يلائم تجاربها ويماشي أغراضها وتطلعاتها، مقدمة المرأة لغة وهوية وانتماء وكيانا مستقلا ومتماهيا في فرديته بالكليّة النسويّة. وما بين الفرديّة والكليّة تتكامل النواقص وتستكمل الاحتياجات وتغدو النسويّة العموميّة مشروعا فكريا وإستراتيجية عملية في داخلها وخارجها، وفي وسائلها وأغراضها الحسية منها والتجريدية، حاضرا ومستقبلا،

تاريخا واجتماعا، تفصيلا وإجمالا. فتتوطد بالنسويّة العموميّة قواعد الفكر بدينامية الواحد في الكل والكل في الواحد.

وما من شيء يمنح المرأة توكيد ذاتها مثل أن يكون فكرها محوريا ومستقلا، به تدلل على وعيها وأهمية دورها وتأثيرها في ما حولها، ومن خلاله أيضا تثبت تمتعها بقابليات فكرية تنطوي على سمات متنوعة ومتجانسة فيها النسويّة هي الهيكل والتصميم وهي المادة والصيرورة.

ولولا الفكر المحوري ما كان لفرجينيا وولف أن تنتج أعمالا ابتكارية نسويّة، فيها أمسكت بزمام الإبداع سرداً وتأليفاً من دون أن تتركه ينفلت من يديها، مدللة على موهبتها من خلال فكرها الذي به نظمت شظايا وعيها، صانعة منها جوهرها الذي ينم عن فكرها النسوي معبرة عنه في رواياتها بجلاء وعقلانية على ما فيه من أشباح الغموض والإبهام.

وهو ما قد نجد بعضاً منه في روايات اسندَ فيها كتّابها الرجال إلى المرأة أدواراً بطوليةً كما في مدام بوفاري وآنا كارنينا انطلاقا مما لدى هذه المرأة من أحلام راودتها فجعلت منها صاحبة فكر محوري به أكدت رؤيتها للحياة كطبيعة وأحداث ومحصلات أخلاقية واجتماعية، متخذة قراراتها بمسؤولية وسائرة نحو نهايات نسوية منطقية في رؤية الحياة بأسرها أو جنونية رؤية الكارثة والاحتدام بها شخصياً.

ويخدم الفكر المحوري النسويّة العموميّة من ناحية تجسيده لأغراضها كفكر حر ذي علاقات مترابطة وخطوط متبادلة، به تدافع المرأة عن نفسها مثلما تدافع عن غيرها وتتكلم على غرار ما تكتب، وتتعاطف حين يقتضي منها الموقف التعاطف ولكن باستحكام، وتتقارب حين يستدعي منها الموقف التقارب لكن بحياد وتتوحد في إبداعها حين تكون منابع قوتها نقيّة تشحذ أفكارها بالوعي النشط والمتوقد، مفصحة عن نشاطها المادي والروحي متمثلة مركزها رصينة ومتوازنة ومبالية وواثقة ومرتبة وذاتية لا تسيطر على الآخر ولا تقبل التبعية له، كي لا تستبعد التفكر فتتكئ مجددا على التنبؤ والتكهن وقوة المفاجأة.

من هنا يغدو الفكر محورياً وهو يمنح النسويّة العموميّة مساحة للمناظرة والإقناع ومعمارا من الجدال والحجاج بحياديّة وواقعيّة محتواة في الضرورة والحتميّة. فالفكر سلاح من أسلحة النسويّة في المقاومة لا الهجوم. وتكمن فاعليته في التجريد الذي به تُختبر الأشياء وتُجرب بدأب وموهبة فتتجلى قوة فكر المرأة في سعة النسويّة وتنعكس في مرآة المرأة المستقلة مركزيّة النسويّة التي تجد تكاملها في الذكوريّة شمولاً وتحديداً.

إذ من غير الممكن أن نتحدث عن فكر محوري ونحن نهمش أو نتجاهل الذكوريّة التي لها فكرها أيضا. وبتعامد الفكرين كمحورين متكافئين ومتغايرين تكون الفلسفة عبارة عن قوة جدليّة اتحاديّة خفيّة بحتميّة موضوعيّة ووعيّ إنسانيّ يرى الواقع من خلال نشاط الإنسان بوصفه كياناً لغوياً ذا طبيعة حيوية، تتموضع في لغته أفكاره التي يظهرها حين يكون واعياً لها ومقتنعاً بها ومسموحاً له التدليل عليها.

ولأهمية الفكر بالنسبة للنسويّة العموميّة؛ فإن تجسده يظل رهناً بالكيان المؤنث وما يتصل به من قضايا داخلية صميمية كقضية

الهوية والآخر والجندر والجسد والأنوثة والقوة والذاكرة والموضة إلى جانب قضايا خارجية لها صلة بأسلوب الكاتبة من الناحية اللغوية والتاريخية وتصنيف الخصائص الفردية للمضمون والشكل ونظريات التواصل والأسلوبية وغير ذلك مما له صلة بالعمليّة الإبداعيّة.

وطبيعي لأي فكر يوصف بأنه محوري أن يشكل المواقف والتقاليد التي ترسو كقواعد وترسخ كتقاليد. فإذا خصصنا الفكر بأنه نسوي بدا الأمر غير مؤكد لمن ينكرون على المرأة أن تكون مفكرة وفيلسوفة، لافتقارها إلى فلسفة ذات تقاليد واتجاهات. كأنّ النسويّة ليست نشاطا إنسانيا له جهازه الفكري الخاص كما له مفاهيمه التي يعمل بها ومواقفه التي يتبناها مضفياً على فعل المرأة ـ التي تكون في حالة انفراد تام وهي تفكر في ذاتها ـ تجريداً حسياً تتطور فيه الكلمات والدلالات والصياغات، وتغدو إفهامية وهي تريد توصيل أفكارها إلى الآخر، معبرة عن مشاعرها وملقية بظلالها المؤنثة على الأشياء وطبيعة حركتها، معمقة مداركها ومكونة الآراء حول ذاتها أولاً والنساء آخراً، مبرهنة من خلال فكرها على ارتباطها العضوي بوعيها الإنساني في ظل عالم نسوي يعكس مظاهرها وأغراضها جميعا.

والوعي بأهمية هذا الفكر المحوري هو الذي يجعل المواقف والقرارات منسجمة ومترابطة ارتباطا وثيقا بطموحات المرأة الرامية إلى بناء أواصر التأثير والتعاون مع النظام الإنساني العام وفي مختلف مجالاته لغة وتاريخا واثنوغرافيا..الخ.

وعلى وفق الأحكام النظرية التي رسختها بطريركية الفلسفة وجعلت للرجل الريادة والأولوية بوصفه صاحب العقل المتكامل؛ لا يغدو للفكر الفلسفي وجود إلا فاعله رجل. وهو ما تدحضه النسويّة العموميّة التي ترى أنّ التفكير أيا كان فلسفيا أو فنيا أو دينيا أو علميا أو عسكريا هو عبارة عن ميكانيزمات نشاط إنساني واع وتجريدي. فالوعي هو أساس الفكر وليس الإحساس، ومن ثم لا تتحدد فاعلية التفكير التوعوية بجنسانية من يقوم بالتفكر وإنما تتحدد بحسب محورية هذا الفكر عند كل جنس على حدة.

وبإسناد المحورية إلى فكر الرجل أو إلى فكر المرأة تكون الفلسفة هي التفكير الإنساني الذي فيه تتعادل كفتا الفعلين النسوي والذكوري. فالإنسان تحرره الفلسفة التي عدها الأقدمون أم العلوم، وبها تتجلى صلته بالزمان وما "تواصل الجوهر المفكر سوى تواصل الجوهر الزماني"(جدلية الزمن، غاستون باشلار، ترجمة خليل احمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الأردن، ط3، 1992، ص15) وفي هذا الجوهر تتجلى أحقية النسوية في أن تكون عمومية من ناحية وأن تكون محورية في فاعلية فكرها من ناحية أخرى.

وفي حالة التفكير النسوي؛ فإن المرأة هي الفاعل الذي يجعل الفكر محوريا وهي الغاية وليست الأداة وهي المادة الأولية التي منها تتشكل الأدوار وتحتدم التصورات وتتراكم التنقيحات وتتولد المجازات. وهذا كله هو ما يعطي المرأة وجوداً صميما وحياتيا ضمن النسويّة العموميّة.

وفهم هذه النسوية من خلال محورية فكرها هو توكيد لسعة مدارك المرأة وعمق امتدادها الحياتي استقلالا وشمولا. ولا يخفى

ما في الاستقلال والشمول داخل المجموع النسوي برمته من ازدواجية الداخل بالخارج والمعتاد بالجديد. فتكون المرأة نائية عن أية تبعية فكرية، مستبعدة أي استحواذ جندري أو ازدراء عقلي متمتعة بوعيها ومجذرة في الآن نفسه أسس النسوية العمومية.

ونستطيع أن نشبه هذا الدور الذي يؤديه الفكر المحوري للنسوية العمومية بالدور الذي أدته الفلسفة للرواية الواقعية في مطلع العصر الحديث حتى "احتلت الرواية الفلسفية منزلة مهمة في تفكير ف. شليغل وغيره من منظري الرومانتيكية "(الأفكار والأسلوب، أ. ف. تشيتشرين، ترجمة حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د. ت، ص65). وإذا لم تستطع الرواية الانكليزية في القرن الثامن عشر كروايات فيلدنغ وسموليت وستيرن وغيرها توكيد قدرتها على التجذر التاريخي مع أنها تمكنت من تحليل الواقع تحليلا دقيقا؛ فإن قصص فولتير الفلسفية بحججها القوية استطاعت أن ترسخ وجودها التاريخي.

إذن لا مناص من محورة الفكر من أجل تدعيم سمات النسوية العمومية. تلك السمات التي بها تتمكن من إعادة رسم خريطة مبادراتها فاسحة المجال لقوتها أن تظهر في شكل نظري. وليس صعبا على النسويّة العموميّة أن تجسّد فكرها المحوري على الصعيد الفلسفي وذلك من خلال تعميق دلائل الوعي النسوي فيها وتمتين اشراقاته الفكرية. والأساس في ذلك كله وعيها الذي يتجلى بصور إبداعية ونزعات عقلانية وأهداف موضوعية وحتميات اجتماعية وتاريخية.

ولا شك أن دخول النسوية إلى معترك الفلسفة هو انقلاب على الذكورية وتسلطها البطريركي الذي حرص الحرص كله على إبعاد المرأة عن الفلسفة وعن ميادين أخرى أرادها حكرا على الرجل. ومن يقرأ الفلسفة الكانتية والهيغلية سيجد أنّ إنسانية الرجل عموميّة بوصفه الكائن المعقول الذي فيه غاية نفسه كعقل خالص وعملي بديالكتيكية مادية جدلية وبقوانين ذاتية خاصة، تمثل المحور في كل ما له صلة بعالم الخليقة من أشياء ومقولات. أما المرأة فكيان عابر، لا تفهم إنسانيته فهما أخلاقيا إلا حين يتماهى المجموع النسوي في المجموع الذكوري.

إن أهمية الفلسفة للنسويّة هي كأهمية التكامل بين الكيانين المفكرين الرجل والمرأة بلا خداع ولا انغلاق ولا تقوقع. ولا احتمال أمام الفكر النسوي ليكون محوريا ما لم تتمظهر النسوية بالعمومية في لغة امرأة تفكر كفرد مرهف وخاص وهي تنظر للإنسان والمجتمع بحد واحد وفي الآن نفسه منغمسة وهي تتكلم عن دقائق حياتها في سلسلة متماسكة ومنتظمة تمتزج بها صور النساء جميعا.

وبهذا يكون الفكر المحوري قناعا ووجها مستعارا تتدارى فيه المرأة بالنساء وترتسم لا بمظهر متكلف ومتصنع ماكر؛ وإنما بمظهر حقيقي يناقض التصور البطريركي المرسوم لها الذي ما فهم وعيها، وكيف يفهم جدوى هذا الوعي وهو ينظر إليها من خلال تابعيتها له.

والتابعية تعني أن النسويّة وهي تعبر عن المجموع تتجاهل المرأة الفرد وأهمية تعبيرها عن نفسها. وهو أمر كثيرا ما توسم به الكتابة النسوية كنظرية وإجراء، ومن ثم تظل النسوية مساهمة في تضبيب الفكر

النسوي جاعلة مسألة وحدته الفلسفية ضرباً من المحال.

فكيف تتمكن النسوية إذن من التملص من هذه التابعية التي ترسخت حدّ التجذر، محاولة بناء فكر محوري فيه المرأة لا تتدارى في تابعيتها للذكورية من جهة ولا تستكين أمام هضم حقها الفردي داخل النسوية نفسها من جهة أخرى ؟

من أهم براهين إثبات الفكر المحوري التعبير الحر والواعي الذي فيه للكلمات وميض خاطف ومزاج نفسي يحتوي الوضع النسوي بالعموم والذي فيه تختلف كل امرأة عن الأخرى بغناء وظلال واستبطان وخبرة. ولأجل بلوغ هذا الفكر، تكرس النسويّة العموميّة السرد كوسيلة ينكشف عبرها كيان المرأة فردا مستقلا عن الآخر.

وتعد الرواية ـ بدءا من أول رواية كتبتها امرأة وهي الأميرة دي كليف لمدام دي لافيت وانتهاء بآخر عمل روائي يكتب بقلم امرأة ـ أهم الوسائل التي من خلالها تبلور المرأة فكرها وفي إطار تتجلى فيه النسوية العمومية ومعها تتوضح خصوصية المرأة، كاتبة كانت أو شخصية فتتأكد حقيقتها واقعا ومجازا.

وعادة ما تتمتع بطلات الروايات النسوية بوعي وفاعلية حياتية مفكرات في أنفسهن وجسامة ما تلقيه الذكورية على نسويتهن، متضادات مع ما كان قد رسم لهن من أدوار هامشية تريد للرجل أن يكون هو البطل وتريد للمرأة أن تظل منفصمة في فكرها ورؤاها تغايرا وتشتيتا.

ولا سبيل لصناعة فهم يشحذ إمكانيات الرواية النسوية ويحرك رواكدها مثل اعتماد الفكر محوراً يستغرق الشخصية النسوية متوغلا في مجاهيلها محررا إياها من ربقة ما هو نمطي وبسيط وعفوي وجاهز ومنمق. وهذا بالضبط ما تسعى النسويّة العموميّة إلى توطيد أساساته.

والروايات التي فيها يتمحور الفكر في أدوار نسوية ضمن أجواء فلسفية هي روايات فكرية فيها المرأة هي الكاتبة والساردة، المفكرة في واقعها والمتعايشة هارمونيا مع المتناقضات من حولها حرة ومقيدة مسيطرة ومنهارة سطحية وغامضة وعلى وفق قوانين الطبيعة. وبذلك تتمتع الشخصية برؤية فكرية ونزوع فلسفي ذي وشائج ميتافيزيقية. فكأن الرواية هي الخارج الذي يرجع صدى دواخل البطلة. هذه الدواخل التي تتسع ضمن مجال ذاتي حتى تتخذ شكل الوجود برمته.

والنزعة الفلسفية في الرواية ـ التي فيها فكر المرأة هو المركز والنسوية هي الإطار ـ عادة ما تتسم باختلاجات وتقلبات واستفهامات وإحساسات تجسد العمومية لا كمفهوم اجتماعي أو تاريخي وإنما كجوهر نسوي وفكرة فلسفية ذات مظهرية إنسانية.

الوعي وتطور التفكير العقلي في (لامية العرب) للشنفرى*

د. صبيح الجابر**

التراث: كل ما هو من الماضي، وهو ما خلفه الأجداد للأحفاد إرثاً، جعلهم على ما هم عليه خلقاً وتكويناً وتطلعات. فهو بالتالي، عادات وتقاليد، وقيم وأحداث، وهو المكتوب والمنقول، والمتداول، ويشمل ما سجل من الأدب والفكر والثقافات، على إنه ذو أهمية خاصة، لأنه يؤلف النواة الصلبة لمعرفة الماضي، والتفاعل معه... والمهم في نظر بعض الباحثين، إن التاريخ هو استمرارية محدودة أو منقطعة. أما التراث فهو استمرارية غير منقطعة، وهذا هو الاختلاف بين التاريخ والتراث. والاستمرارية هنا لا تعني الجمود، والدوران في حلقة مفرغة، بل هي استمرارية متحولة ومتغيرة في شكلها من عصر الى آخر.

ولهذا فإن متابعتنا التراثية لموضوع الوعي العقلي والفكري-التنويري، تعني بأن هذا الوعي كان وما يزال أداة للتطور والتقدم، وبناء الحضارات البشرية منذ فجر التاريخ وحتى الآن.

وقد كانت مصادر الباحثين والدارسين لمتابعة معرفة الوعي البشري، وخاصة الوعي الديني، هي القصص والاساطير والملاحم- وتحديداً-ما عثر عليها في بلاد ما بين النهرين، وحضاراتها القديمة، السومرية والآشورية والبابلية.

ويمكن الإشارة هنا الى أن (منذر الحايك) في مقدمة كتابه (الفكر الديني في الملاحم الرافدية) عدّ الأفكار الدينية، التي توصل اليها الانسان جاءت بعد انتقاله من حياة الجماعة الى حياة المجتمع، ويقول، إن الانسان راح يخضع لطقوس الطبيعة، ويتودد لها بتقديم القرابين، التي غدت حصة مشروعة لتلك القوى الطبيعية، التي تساهم في تنمية المحصول الزراعي والإنتاج الحيواني، حيث بدأ مفهوم الإله بالتطور، واكتسبت قوى الطبيعة صفات القوة والمجد، وأحيطت بهالات من القداسة، حتى اكتملت بها فكرة الإله المستحق للعبادة

وللأضحيات.

إن هذا الوعي المتنامي لدى البشر في ثقافة الديانات الأولى، قد نشأ وتطور في بلاد الرافدين، إذ أن ثقافة الوعي الديني، التي جسدتها الملاحم والأساطير والقصص في انطلاقتها الأولى من بلاد الرافدين، كانت الحجر الأساس المتين، الذي بنيت عليه كل الثقافات العالمية الأخرى، حيث تمخضت عنها حضارة عظيمة، تجلت بمعطياتها في الطب والهندسة والفلك والرياضيات والقانون والآداب والفنون والفلسفة، حضارة خلقتها مآثرهم العظيمة، وتراثهم العلمي الخالد، الذي ما يزال أثره شاهداً على بناته في بلاد الرافدين من سومريين وبابليين وآشوريين وغيرهم.

وهكذا استطاعت مصادرنا اليوم، التي هي نتاجاتهم في تلك العصور القديمة والسحيقة من التاريخ البشري أن تكون سجلات إبداعية لخيال مبدعي ذلك التاريخ، إذ أنها كانت وما زالت تشكل مصادر أساسية لدراسة احداث ووقائع تلك العصور، وأن تكشف تلك المصادر من الملاحم والاساطير والقصص والمسرحيات تسلسل الاحداث، وتنامي الوعي الإنساني المكتشف، والمتطلع الى الأمام تحت تأثير تصاعد حركة الإنارات العقلية، التي وجهت العقل البشري باتجاهين:

الأول: ديني - ثقافي

الثاني: تنظيمي -قانوني، يخص حياة البشر، وخاصة في بلاد وادي الرافدين بعد أن تحولت البشرية من نظام الجماعات الى المجتمعات وأصبح هناك (بيت الإله) أو (المعبد المقدس) والى جانبه (القصر الملكي) وغالباً ما تكون الهيمنة والسطوة للقصر، ويكون (المعبد المقدس) تابعاً، (كما يقول منذر الحايك).

ومع طبيعة البشرية الطموحة نحو المعرفة والتطور استمرت حركة (الوعي الاجتماعي-الديني) وكذلك الوعي بتنظيم الحياة، لينتج هذا الطموح البشري، المملكات والإمبراطوريات الكبيرة، ولينتج أيضاً ثلاث ديانات سماوية - توحيدية، هي اليهودية والمسيحية والإسلامية، إذ تتكئ هذه الديانات على ثلاثة محددات أو مشتركات أساسية تجمع بينها، وهي:

1 - المتكأ الأول: إن الله واحد لا شريك له.

2 - المتكأ الثاني: الاعتراف بالأنبياء الثلاثة.

3 - المتكأ الثالث: الإيمان باليوم الآخر بعد الممات.

وقد استغرقت هذه التحولات البشرية في وعيها ما يقارب السبعة آلاف سنة، وانتجت مئات الديانات، وشهدت إقامة الإمبراطوريات والمملكات، وظهور الأنبياء، والملوك والحكام، والحكماء، الذين كان ينظر الى بعضهم كآلهة، أو أنصاف آلهة، وانبياء لعصورهم وإمبراطورياتهم، وتحولت العلاقة بين الإله والبشر من خدمة الإلهة في العصور القديمة الى عبادة الإله بعد الديانات السماوية الثلاث.

مبادئ الوعي الديني والعقلي في جزيرة العرب

إذا ما تركنا متابعة تطور الوعي الديني عند بناة الحضارات القديمة في التاريخ البشري، وخاصة عند شعوب بلاد ما بين النهرين، الذي وصل الينا وتعرفنا عليه عن طريق تراثهم الإبداعي في مختلف المجالات العقلية والفكرية والفنية، وخاصة مدوناتهم في مجال الأسطورة والملحمة والقصة، أو مجال

المسرحيات وتحولنا الى بيئتنا العربية، وخاصة في الجزيرة العربية، الواقعة - وقتذاك- ما بين امبراطوريتين كبيرتين، هما الإمبراطورية الساسانية (الفارسية) جنوباً، والامبراطورية البيزنطية (الرومانية) شمالاً، وقبل ما يقرب الالفي عام، وايضاً من خلال ما تركوا من تراث ابداعي، وخاصة في مجال الشعر، فإننا سنجد، ومن خلال دراستنا للشعر، والتاريخ القديم، وخاصة الدراسات، التي اعتمدت المنهج العلمي في التراث، وكذلك دراسات بعض المستشرقين وتحديداً الروس، بأن الشعر فعلاً يعد هو المصدر الأساس، الذي يسلط الضوء على حياة المجتمع العربي، وعلى تفكيره العقلي في العصر الجاهلي، وخاصة الحقبة الزمنية، التي سبقت الدعوة الإسلامية بـ(150) عاماً، وهذا ما يخالف الرأي، الذي اعلنه (طه حسين) في النصف الأول من القرن العشرين، والقائل بأن الشعر في العصر الجاهلي، هو شعر (منتحل)، وهو ايضاً يخالف الحقيقة والواقع، اللذين كشفهما الشعر بواقعية تجسيدية لما كان شائعاً ومعروفاً في زمانه ومكانه. فالشعر الجاهلي كشف - حقاً- طبيعة الحياة الاجتماعية، والعقلية، والثقافية السائدة –وقتذاك- والمعتمدة -اصلاً- على العادات والتقاليد، التي تعتمد عليها القبيلة، كقوانين لإدارة شؤون الحياة وتنظيم علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية، وما يسودها من ظلم وقساوة، وعبودية، ومن ظروف حياتية قاهرة، الأمر الذي يؤكد أن الشعر الجاهلي، هو حقيقة راسخة، أمدَّنا بمصادر موثوقة للدراسة.

فما تعرضت له الشريحة الاجتماعية الواسعة، التي أطلق عليها (الصعاليك) وهي شريحة من أبناء وبنات (الاماء) السود، إذ أن الأب (الرجل) الذي يتزوج من امرأتين، إحداهما عربية، والثانية حبشية، أو غير حبشية، لكنها (أمة) أي عبدة سوداء، فإن الأب يعترف بأبوته لأبن الأولى، وينسبه اليه، والى العشيرة. أما الأبن الآخر، ابن السوداء، فلا يعترف بأبوته له، ولا ينسبه اليه، ولا الى عشيرته، ولا يشركه في الغزوات، وليس له حصة من الغنائم، بل يسندون اليه مهمة تنظيف البيوت، ورعي الابل أو الأغنام.

وهناك شواهد كثيرة على ذلك حتى من خارج دائرة (الصعاليك) كطرفة بن العبد، وعنترة بن شداد، وقد تعاطف معهم الكثير، حتى ممن لم ينتم الى شريحتهم الاجتماعية، كالشاعر عروة بن الورد، وغيره الكثير، وجمهرة كبيرة من الشعراء المهمشين والمطاردين، وإن كانوا غير منتمين الى هذه الحركة، التي أطلق على شعرائها تسمية (الصعاليك) أي الفقراء. وكان في مقدمة هؤلاء الشعراء، الشنفرى والسليك بن السلكة، وعمر بن براق، وتأبط شراً و(عروة بن الورد) الذي لم يكن فقيراً ولا من أغربة العرب ولكنه انضم الى هذا التمرد، والثورة ضد الظلم، الذي قاده الواعون ومن راح يفكر بعقله لتفسير أسباب هذا التمييز، والظلم، والقمع والجوع، الذي يمارس بحق هؤلاء الفقراء، الذين يطلق عليهم الصعاليك.

وقد كانت حركة الصعاليك التمردية في العصر الجاهلي، التي مثلتها جماعات أو مجموعات بشرية - عربية احتقرها المجتمع، وهمشتها القبيلة، فعاشوا على هامشها، وانضوى تحت لوائها فئات كثيرة من المجتمع غير متجانسة يجمعها الفقر والتهميش والنظرة الدونية من قبل القبائل العربية.

وكان الشنفرى، صاحب قصيدة (لامية العرب) الشهيرة، أبرز هؤلاء الصعاليك

المتمردين. وهذا التمرد لا يخص الصعاليك وحدهم، بل انضمت اليهم فئات واسعة ومتنوعة من المجتمع القبلي، يجمعها ظلم قوانين القبيلة وتقاليدها، وصرخات الجوع، وآهات التمييز العنصري.

وحين راح الصعاليك ومن انضم اليهم يفكرون بعقولهم، ويميزون بين الظالم والمظلوم، والمستعبِد والمستعبَد، أعلنوا هبات التمرد على القبيلة وقوانينها الجائرة، واهمالها وعدم مراعاتها النظرة العادلة بين افرادها. وسواء أكان الصعلوك شاعراً أم غير شاعر، خليعاً أو منبوذاً لسواد بشرته، فإنه يجد نفسه غريباً، ووحيداً في مواجهة ظلم القبيلة، محروماً من عطفها وحدبها، ورعايتها، وليس له من يرد عنه غائلة الجوع، والتهميش والاحتقار. وهذا هو في اعتقادي اول صراع عربي في الجزيرة في العصر الجاهلي يمكن أن يطلق عليه، بأنه صراع طبقي انتجه الشعور والاحساس العقلي بهذا التمييز الطبقي القائم على العنصرية والتمييز العنصري بين ما يطلق عليهم بأغربة العرب الفقراء وبين أبناء القبيلة وشيوخها الأغنياء.

وحين انسلخ الصعاليك عن العصبية القبلية، حرموا من (امتيازاتها) إذ أن العصبية القبلية كانت ضمانة لكل فرد من افرادها، لذلك نشأت بين الصعاليك رابطة عصبية من نوع آخر، رابطة تضامنية ببعدها الإنساني، رابطة تدعو لمساندة المظلومين بعضهم للبعض الآخر، رابطة أشبه برابطة النقابات والاتحادات في العصر الحديث فقد كان الصعلوك يعطف على رفاقه ويساعدهم، مخاطراً بنفسه في سبيل انقاذ حياتهم.

لامية العرب: البيان السياسي والعقلي الاول

لامية العرب، قصيدة الشنفرى الشهيرة، هي المصدر الأكثر مصداقية وواقعية وهي المرجع العقلي في التفكير، وهي الوثيقة الرسمية التي وثقت لنا طبيعة الحياة الاجتماعية وقوانينها، ونظمها السائدة -آنذاك- وقساوة هذه النظم، ولا عدالتها، وهمجيتها في الظلم والقمع، وحكمها على شرائح اجتماعية واسعة بالموت جوعاً، وقد كانت حقاً المصدر الأوثق، الذي يمكن الاعتماد عليه، والركون اليه. وبالتالي، هي قصيدة تشكل مصدراً لمعرفة حياة الأقدمين، كما كشفت لنا المصادر الأسطورية والملحمية والقصصية والمسرحية طبيعة الحياة البشرية، وما انتجته من حضارات، قبل آلاف السنين.

قصيدة (لامية العرب) التي أطلق عليها المستشرقون (انشودة الصحراء) هي بمثابة صرخة ضد الظلم، وضد التجويع والتهميش. وقد حملت القصيدة دراسة سوسيولوجية لطبيعة هذا المجتمع المقموع في عصر تميز بالجاهلية الإنسانية، وهي أن القصيدة عبارة عن بيان سياسي، يحمل وعياً متقدماً، ذا بعد عقلي وفكري، يتحدث فيه صاحبه عن حرية الانسان، وحرية الرأي، وحرية اختيار طبيعة الحياة، التي يريد، وحرية العقل الإنساني الفعال في توجيه حياة الناس نحو الصواب، ومساعدتهم على التفكير بالكيفية، التي يمكن أن تحافظ على حياتهم في عز وكرامة، وتحفظ لهم آدميتهم.

وفي استعراضنا للامية العرب، بأبياتها الثمانية والستين وجدنا لزاماً علينا، أن نتوقف عند بعض القضايا الكبرى، التي تثيرها أسئلة القصيدة في واقعها التاريخي (العصر الجاهلي).

فما أثاره البيتان، اللذان سنذكرهما لاحقاً، ينبغي التوقف عندهما ملياً، لنتأمل طبيعة

التفكير والوعي، الذي أثار مثل هذه القضايا الاجتماعية والسياسية والعقلية في عصر عرف بأنه عصر جاهلي:

وفي الأَرْضِ مَنْـأَى لِلْكَرِيـمِ عَنِ الأَذَى
وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ القِلَـى مُتَعَـزَّلُ

لَعَمْـرُكَ مَا بِالأَرْضِ ضِيـقٌ على امْرِىءٍ
سَرَى رَاغِبَـاً أَوْ رَاهِبَـاً وَهْوَ يَعْقِـلُ

منذ مطلع القصيدة يتبين لنا إن الشاعر (الصعلوك) قد كشف لنا بواقعيته التلقائية، إنه لم يكن وحيداً في ساحة الدفاع عن النفس، وعن بحثه عن الحقوق الإنسانية، بل هو قائد لهذا التيار الشعبي المتمرد، وإنه شاعر تجاوز المألوف والسائد من اشعار تلك الحقبة الزمنية القاسية، وثقافة مثقفيها في عصر يُعَدُّ جاهلياً بلا وعي ولا ثقافة.

ففي البيتين الآنفي الذكر نلتقي بقضيتين مهمتين:

الأولى: اسلوبا الترهيب والترغيب، اللذان يمارسهما أصحاب السلطة والنفوذ مع كل من يخالف ارادتهم الجائرة، التي يفرضها رؤساء القبائل والمتنفذون على مرؤوسيهم، وهما اسلوبان مورسا في العصر الحديث من قبل سلطات الاستبداد والقمع مع كل من يعارض سلطاتها.

فالشنفرى يذكرنا بالأساليب، التي مارستها معه ومع (بني أمه) – كما يقول- السلطة القبلية الاستبدادية، وقوانينها الجائرة، الأمر الذي يحتم عليه أن يبحث عن طرق أخرى يستطيع من خلالها أن يحافظ على حياته، ويدافع عن حقوقه، وكانت اسهل هذه الطرق، طريق الهروب، واللجوء الى المنافي البعيدة الآمنة.

وكانت هذه المنافي في ذلك الوقت، هي الصحراء الواسعة، ومجتمعها الحيواني المتوحش، الذي فضله على غيره، وقد سبقه اليها، الشاعر طرفة بن العبد، وهو ليس من أبناء حركة الصعاليك، لكنه وقع عليه ذات الظلم، بسبب مولده من أم حبشية (أمة سوداء) أي عبدة.

والقضية الثانية: هي قضية (العقل) حسب قوله، (وَهْوَ يَعْقِـلُ) فقضية العقل، هي قضية جدلية ظلت تنمو وتتفاعل منذ القدم وحتى يومنا هذا رغم تدخل الديانات في الغائها، كما أنها أصبحت مثار جدل في أوروبا في عصور التنوير، وحتى هذه اللحظة، وقضية العقل، هي تعبير عن ثقافة الشاعر، وغيره من شعراء عصره، وموقفهم من العقل، وحريته في التفكير، واتخاذ القرارات استجابة لحرية الرأي، واحترام العقل البشري، الذي تعرض للإلغاء من قبل الكثير من السلفيين في الأديان السماوية، ومن قبل السلفيين الإسلاميين المتشددين منذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري على يد (الجبريين) وموقفهم الرافض للعقل البشري، ولأصحاب حرية الرأي والتفكير العقلي، أي للعقلانيين (وهؤلاء هم القدريون) وهذا يعني أن مثقفي ما قبل السلفيين الإسلاميين، هم أكثر وعياً، وأكثر احتراماً للعقل، وأهميته في حياة الانسان. وكان الشنفرى المثال، الذي ينبغي أن يحتذى به عربياً في عصره الجاهلي.

وفي بيتين شكلا مطلع القصيدة، نجد أن الشاعر يفتتح بهما قصيدته الشهيرة:

أَقِيمُـوا بَنِـي أُمِّـي صُـدُورَ مَطِيِّكُمْ فَإِنِّـي
إِلى قَـوْمٍ سِـوَاكُمْ لَأَمْيَـلُ

فَقَدْ حُمَّتِ الحَاجَاتُ وَاللَّيْـلُ مُقْمِـرٌ وَشُـدَّتْ
لِطِيّـاتٍ مَطَايَـا وَأَرْحُـلُ

يتحدث فيهما وما في بعدهما عن مجتمع الحيوانات في الصحراء، واعتبر ذلك المجتمع

بأنه هو (الأصل) أو الأهل أو الرهط، ثلاث قراءات لهذه المفردة، والشاعر لم يصل الى هذا التصور بوسائله ومصادره العلمية، بل من خلال خياله الشعري، ومن خلال تجربة العيش في الصحراء، فهو يقول:

هُمُ الأَهْلُ لا مُسْتَودَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ لَدَيْهِمْ وَلاَ الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ

إذن، هو اختار جنساً آخر بدلاً من أبناء جنسه وجلدته أبناء البشر، الذين ينتمي اليهم، إذ أن الفته للأرض، التي اختارها، وما فيها من اجناس حيوانية، متوحشة، وغير متوحشة أو أليفة، ليست الفة محبة واختيار حقيقي، لكنها الفة بقرار اضطراري، خوفاً ممن حوله، وهي الفة فيها عنت ومشقة، ولكنه يُصبِّر نفسه عليها.

ومطلع البيت الآنف الذكر (هم الأهل، أو الأصل أو الرهط) يحمل دلالات عميقة ما زالت تثير جدلاً حول من (هو الأصل) قضية يدخل العلم طرفاً أساسياً فيها، إذ أن هؤلاء (الأهل) الذين يشكلون مجتمعاً آخر يختلف عن مجتمع الجنس البشري قد كانوا وما زالوا هم الأصل، وهم الأهل الجدد، الذين سيعيش معهم، وهؤلاء لا يذيعون في الناس ما يستودع لديهم من اسرار – كما فعل أبناء جلدة طرفة بن العبد، الذين لجأ اليهم لطلب الحماية عند المناذرة - الذين وشوا به عند مليكهم فأعدمه وقتله أبشع قتلة – وهؤلاء كما يقول الشنفرى لا يخذلون اللائذ، أو العائذ بهم، وإن كان ذا جرائر، وهو يرى بأنه ليس عبئاً عليهم، ولا على صحبته معهم، وهو ليس بالذي يستغل منها شمائلها التي يحبها.

وعلى هذا الأساس يظل الشعر، هو المصدر الأوثق لطبيعة الحياة الاجتماعية، وبناها الفوقية، الأمر الذي جعل المستشرق الروسي (اغناطيوس كراتشكوفسكي) يرفض جميع الافتراضات، التي تشكك بصحة انتساب هذا الشعر الى عصره ومجتمعه الجاهلي، والى بيئته الأولى: "لفقدان البراهين القاطعة على الشك به، كمصدر تاريخي لدراسة عصر ما قبل الإسلام". (وهذا ما أكده الشهيد حسين مروة - في النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية، ص181).

ومن المفيد الإشارة هنا الى أن مصادر دراسة الحياة الاجتماعية والعقلية والثقافية، التي تؤكد أن الشعر الجاهلي، يشكل مصدراً ووعياً ثقافياً متقدماً، وخلفية عقلية لمعرفة ما يعتمل في حياة المجتمع من صراعات لحقوق الانسان في واقعة التاريخي - آنذاك – وهي تشكل ايضاً مستوى من الادراك العقلي والثقافي غير المنظم، وغير المعبَّر عنه اجتماعياً، سوى من نافذة ضيقة، ألا وهي نافذة قصيدة الشعر.

لقد تعرضت قضية (العقل) على يد بعض فقهاء الدين – إن لم نقل جميعهم – في النصف الثاني من القرن الأول الهجري الى هجمة تكفيرية شرسة، عندما اعتمد هؤلاء على المنقول واهملوا المعقول، فقد حرموا الجدل وحرموا الشك وحرموا المنطق وحرموا الفلسفة وحرموا العلوم الطبيعية وعملوا جاهدين على فصل الدين عن العقل.

*** هذه المقالة تعد تطويرا بالشكل والمضمون لمقالة كان الكاتب قد نشرها في جريدة (طريق الشعب) العدد ١٣٢ في شباط ٢٠٢٠.**

**** ناقد أكاديمي عراقي**

دقيقتان.. ودقيقة واحدة
بلقيس خالد: بعيداً عن المحاكمات المتسرعة

حميد حسن جعفر

(1)

هل على قارئ ومتابع (بلقيس خالد) وهو بمواجهة (دقيقتان.. دقيقة واحدة.. هايكو عراقي) أن يتخلى عن ذخيرته في القراءة والاستقبال، عن طريق أحد الأمرين. التواصل مع ما مضى لهذه المرأة الإعلامية والشاعرة والروائية وكاتبة القصة القصيرة كما أفترض أنا. أم إن القطيعة هي التي ستوفر حلاً افتراضيا لاستقبال لا سابق له عبر التخلي عن أكثر من تجربة أدبية استطاعت أن تشير الى (بلقيس خالد) كعنصر نسوي مهتم بالإبداع والاختلاف.

القارئ المطلع صاحب الخزين القراءاتي قد يجد ضالته في أي من الحالتين. في حالة التواصل مع المنجز السابق. أو مع إقامة حالة القطيعة ومحاولة قراءة النصوص خارج التأثيرات السابقة.

ومن أي نوع كانت القراءة الموجهة نحو (دقيقتان.. ودقيقة واحدة) لا بد أن توفر نوعاً من الاستقبال الهادي المستند على شيء من عدم استباق الحدث/ التلقي. أو إصدار القرارات بحق هذا الفعل الشعري الذي جنسته الشاعرة تحت عنوان (هايكو عراقي) المحاكمات المتسرعة في مواجهة (بلقيس خالد) ومنجزها هذا لا يوفر حالات تقبلٍ طويلة المدى.

القراءة الحقة تعلن عن ضرورة توفر فعل قراءاتي سابق. إذ إن تاريخ الكتابة لهكذا بنية شعرية لم تكن حديثة التشكل. بل إن عام (2011) شهد إصدار الشاعرة لكتاب (بقية شمعة.. عمري هايكو عراقي) دار الينابيع. والذي يشكل بداية المغامرة الشعرية التي لم تتخلَ عنها (بلقيس خالد) بل أصرتْ وضمن فعل قصدي على متابعة الكتابة وفق هذا الشكل ذي الأصول اليابانية. والذي ربما قد يجد البعضُ من القراء، الكثير من جذور هذه الكتابة في التراث العربي والعراقي.

وربما تشكل الجذور الأولية التي من الممكن أن يتم العثور عليها عبر الاطلاع على نصوص البلغاء والخطباء والمتكلمين والمتصوفة. وربما يعود بها البعض الى

ما تمَّ الاتفاق على مصطلح (التوقيع) هذا الفعل الكتابي المنتمي الى الإشارة أو الملاحظة أو التقييم، أو التقويم، الذي يطلقه الكاتب - والذي كان ويكون من الأمراء، أو السلاطين، أو الحكام، أو القادة – على مشاريع حياتية. يجيء هذا التوقيع ضمن فعل احتفائي بالمنجز، أو الفعل الذي يراد متابعته أو الاطلاع على ما أُنجز، و – التوقيع – بهذا الشكل منجز فوقي/ نخبوي، لم يقم به الشعبوي من الناس/ العامة، ولم تتم عملية إنتاجه من أجل القراءة – التوقيع – لم يكن منجزاً أدبياً.

(2)

في عام (2011) صدر للشاعرة (بلقيس خالد) كتاب (بقية شمعة.. عمري هايكو عراقي) في هذا الكتاب هناك أكثر من مائتي نص/ هايكو، تمت كتابتها بشيء من تأثيرات القراءة والمتابعة للنص الياباني، في محاولة منها في صناعة نوع من التلاقح النصي ما بين الإرث/ الفعل الكتابي العالمي، والبنية المحلية لبعض الأشكال الشعرية العامية/ الدارمي أنموذجا.

علماً إن أنواعاً/ أشكالاً كتابية تنتمي للعامي من الممكن أن تقترب من الدارمي مثل النايل وجلمة ونص والابوذية والذي ينتمي الى الكثير من الالتزامات المحكمة، والى أكاديمية ومدرسية الكتابة حيث الشكل اللازم والواجب.

لم تكن الكتابة في (بقية عمري.. شمعة/ هايكو عراقي) منتجة تابعة، أو منتجة تتحرك ضمن الفعل الكتابي الجمعي، حيث ينتفي الفعل الفردي تفكيراً وبنيةً. بل إن القصدية في لكتابة وتوفر المبررات تكاد تشكل الوسيلة والهدف للكتابة التي ينتجها الوعي المعرفي لهذا النوع/ الشكل الكتابي. إذ إن أهم المفاصل التي تدير شؤون الكتابة عامة والأدب خاصة هو القصدية المنتمية للتخطيط، والبحث، ومحاولة الابتعاد عن السائد.

هكذا يتشكل الفعل الكتابي للهايكو العراقي، وفق هموم وتطلعات ومحاولات تجاوز المتعارف عليه اعتماداً على الخزين القراءتي. وتوفر الفعل المدرك لما تعنيه الكتابة وفق فعل متحقق عبر الاقتصاد في اللغة، والتخلص من الزوائد، والاستجابة لأحكام بنية النص، علماً إن من أهم شروط كتابة النص المحلي/ الشعبوي هو أن يحشد الكاتب ما يريد قوله في أقل الكلمات وصولاً الى الصمت/ القفل، الذي لا كلام من بعده.

في الصفحة (16) من (بقية عمري: شمعة) كتبت (بلقيس خالد) أنموذجاً يعتمد الفراغ التام/ البياض، أربعة سطور تعتمد التنقيط بنيةً فقط. هل هذا ما يمكن أن يقال عن عجز اللغة في قول المراد؟ أم إنها المغامرة/ محاولة الشاعرة في إقامة التواصل مع القارئ، وجره الى عالم الكتابة. حيث يتحول المتلقي/ القارئ الى المتلقي/ الكاتب.

(3)

قبل ربع قرن بالكمال والتمام، وعن منشورات وزارة الإعلام/ الجمهورية العراقية – سلسلة الكتب المترجمة وتحت عدد (22) صدر كتاب/ ترجمة عدنان بغجاني رؤية شرقية (أشعار يابانية) مترجمة عن الانكليزية، أشعار يابانية منظومة على شكل (هايكو)، وهو ضرب من القصائد تتألف كل وحدة شعرية منها، من سبعة عشر مقطعاً في اللغة

اليابانية، مرتبة وفق خمس مقاطع/ سبعة مقاطع/ خمسة مقاطع، ليلتفت المهتمون بشأن الكتابة الشعرية/ الشعراء خاصة الى فعل مختلفٍ، وجدوا فيه ما يمكن أن يكون البديل الشكلي للفعل الشعري الذي أصابه الخمول.

كما لو كان العالم الشعري بدءاً من أمريكا وليس انتهاءً بالدول العربية شرقها وغربها وصولا الى أوربا وأمريكا اللاتينية، كما لو كان العالم الشعري موعوداً بالتغيير والاختلاف. هل كان كتاب (الهايكو) من الشعراء قد أدركوا شروط الكتابة. أم تمكنوا من ابتكار شكل/ بنية جديدة تنتمي الى الثقافة الخاصة أو العامة. إن الاستفادة من التجارب الأدبية عامة والشعرية خاصة من الأمور الضرورية، عبر عملية التلاقح المعرفي؛ إذ تشترك الكثير من الأقوام والأمم والثقافات بأصول حضارية متشابهة - إن لم تكن متماثلة - عبر انتمائها لأصول واحدة، ومن بعد ذلك تتم عملية الاستقلال.

قد تتوفر أمثلة لكتابة الهايكو، لا دخل للمعرفة في كتابته، مجرد شيء يشبه العدوى، يستجيب لها الكاتب مجاراةً ومتابعةً لكي لا يتهم بالتخلف، فتأتي الكتابة كفعل سطحي مؤقت. ضمن هكذا نتائج يجد المتابع أن (بلقيس خالد) وضمن ما يسمى المقدمة، أو الموجهات أو إلفات النظر. نجد أن هناك ما ينتمي الى نوع من البيانات التي لم يعلن عنها.

في الصفحة (7) من (بقية عمري: شمعة/ هايكو عراقي) هناك ما يشبه البيان، تحاول الشاعرة أن توفر للقارئ أسباب ومبررات كتابة الهايكو. كتابة نوع شعري يستقي شكله وبنيته من الواقع العراقي تحديداً. محاولة تقريب النص الجديد للهايكو من أشكال شعرية شعبية. قد يكون (الدارمي) أقرب الأشكال الى ذهنيتها.

في (قنديل ملون)/ ص8 المقدمة/ البيان تقول الشاعرة (بلقيس خالد) ما نصّهُ: "ولأني أؤمنُ بأن سماء المعرفة تتسع بالتجديد، لا بالاستنساخ أو تقليد ما هو متوفر في مجراتها الشعرية والسردية. فقد اجترحتُ لنفسي طريقةً لا أحاولُ تكرار كتابة الهايكو بالشروط اليابانية. محاولتي هذه مثل أي خطوة أولى لا تخلو من تعثرٍ. ولكنها جادةٌ في كدحها الشعري لكتابة هايكو بنفس عراقي".

(4)

هل هناك مسوغات تقف الى جانب الشاعرة/ الشاعر والقارئ والمثقف والأديب والمهتم بشؤون الكتابة الشعرية لكي يضعف احتفاؤه بالقصيدة الكلاسيكية/ العمودية، وليتصاعد الاهتمام والحديث عن قصيدة التفعيلة، والتي أطلق عليها تجاوزاً – كما اتفق الجميع تقريبا عليها – القصيدة الحرة، أو الشعر الحر، تجاوزاً. ضمن فعل بعيد عن التخصص والقصدية؟ ومن ثم لتتشكل حركة الستينيين، ومجلة (شعر 69) والبيان الشعري، ومحاولات التخلص من التبعية للخمسينيين (السياب والبياتي ونازك والحيدري)، ولتتوالى الحركات الشعرية التي تقودها الأجيال المتعاقبة، مروراً بالقصيدة اليومية، وقصيدة النثر، والنص المفتوح، ذهاباً الى منطقة النثر الخالص. ومحاولات البحث عن شعرية الجملة النثرية

لقد كانت هذه الأفعال كثيرا ما تعتمد على القصدية في الكتابة، بعيداً عن الفوضى والتراكمات، والارتباكات، التي تسود جانباً مهماً من جوانب الكتابة والنشر الالكتروني،

بلقيس خالد

والتي تشكل أفعالا مشوهة، ومن غير قصد تحاول الإساءة الى الكتابة عامة وقصدية النثر خاصة، ليضع القارئ يده على تأثيرات التلاقحات الثقافية، حيث تمكن الشاعر والكاتب من الذهاب الى حقول شعرية، تشترك ولا تشترك بثقافة وقراءات كتاب الشعر في يومنا هذا.

(5)

انه (الهايكو) الشكل الشعري الذي شكل ويشكل الكثير من اهتمامات شعراء العربية إضافة الى اهتمامات العالم الأوربي وأمريكا، ليتحول على يد البعض من الشعراء الى نص كتابي يعتمد الصرامة والالتزام بشروطه اليابانية، أو سواها. أو التي اتخذ منها البعض ضمن فعل تزاوجي بعيداً عن الفوضى التي تسللت الى جسد الكتابة ولتتحول في أحايين الى الومضة أو الشذرة، أو الى الخاطرة والانثيالات.

في (قنديل ملون)/ ص7 من (بقية عمري: شمعة) والصادر عام 2011 تعلن بلقيس خالد عن انحيازها التام الى الاقتصاد في المكتوب، والقصدية في الكتابة، وفي صناعة النص الشعري المعتمد على تجربة تتخذ من المنجز الشعري الياباني (الهايكو) منصة لانطلاق تجربتها، والتي من الممكن أن يقول القارئ أنها تجربة شخصية، بعيداً عن التناص الروحي/ المعنوي، مستفيدة من أفعال كتابية محلية.

المتابع للشاعرة (بلقيس خالد) سيجد القصدية في الكتابة تشكل ركناً هاماً ورئيساً، معنى هذا إن القصدية تتطلب الوضوح، وعدم اللف والدوران حول المعاني، والعمل على أن تكون القراءة جزءا متمماً للكتابة، والقارئ من الممكن أن يشكل مع الكتابة ثنائياً ناجحاً، وما يفوت على الشاعر يتمكن منه القارئ، وما يترك الكاتب من فجوات في جسد النص من الممكن أن يملأها المتابع لتقترب النصوص من حافات الاكتمال، وليكن النص

ضمن مسافة تبعده عن الإسهاب والإسفاف، وما يشبه الثرثرة، فحين تغيب الشعرية يتمثل العجز في الكتابة الممتلئة، وليجد القارئ ما يشكل شيئاً من الارتباك في القول، وضعفاً في البناء، وتشويشاً في المعنى.

في إصدارها السابق (بقية عمري: شمعة) هناك أكثر من (220) نصاً يتخذ من الهايكو بنية للوصول الى القارئ، وفي (دقيقتان.. ودقيقة واحدة) من إصدار 2019، يتصاعد الترتيب والتأثيث لتجد النصوص نفسها وسط احتفاء باذخ، هنا تتصاعد القصدية في الكتابة والتعبير والنشر، لتبدأ العنوانات تأخذ فضاءات جمالية.

1. حكايات: أربعة عشر نصا. 2. منحدرات متصدعة: تسعة عشر نصا. 3. مليئة بالنشيج ترتفع أسئلتي: عشرة نصوص. 4. وحده الذي ينتظر الأسئلة ينتظر مفتاحا: خمسة نصوص. 5. ضيق جلد أيامنا ص31: تسعة نصوص. 6. وقفه ص35: ستة نصوص. 7. ريحٌ تبعثر حلم الناي ص39: تسعة نصوص. 8. إما ق ص43: تسعة نصوص. 9. مطر لا يروي أزهار الدفلى ص47: تسعة نصوص. 10. أقطع بالأنين صرختي ص51: ثمانية نصوص. 11. لا أحد يسأل عنا مثل الصباح ص55: ستة نصوص. 12. ورثة الغد ص59: ستة نصوص. 13. موسم ص63: خمسة عشر نصاً. 14. فواصل زرق ص60: ستة نصوص. 15. دفقة زهر ص73: أربعة عشر نصاً. 16. بعض كرمه.. شجرة ص79: عشرة نصوص. 17. التفاتات ص83: سبعة عشر نصاً. 18. حين يستفيق الصمت ص89: عشرة نصوص. 19. أسئلة: صخب الريح ص93: أربعة عشر نصاً. 20. شهقة في رئة المكان ص99: ستة نصوص. 21. طوعاً حملتُ اليه رسائلي: الرؤيا ص103: ثمانية عشر نصاً. 23. حمالة الرطب ص111: أحد عشر نصاً. واذا ما كانت الأنا تشكل أكثر من مصدر للكتابة في كتابها الأول فإن الآخر/ المرأة العراقية خاصة تمثل الفضاء الأوسع في صناعة المتن الشعري/ الهايكو.

(6)

الهايكو وفق الصيغة القادمة من الخارج/ خارج التجربة الحياتية للشاعر المحلي تمثل الكثير من الغموض حيث يتميز (لزوم ما لم يلزم) قوانين كتابية صارمة ربما لا تقل عن قوانين كتابة النص الشعري الكلاسيكي. الشاعر الياباني ونتيجة امتلاكه لتاريخ طويل وتجربة متراكمة نراه يرصد – حالة شعورية داخلية – ويرسم حركة ما، تصدر من إنسان، أو أي شيء آخر من مظاهر الطبيعة ويبسطها بعبارة موجزة/ عدنان بغجاني – رؤية شرقية –

من المؤكد لم تكن النماذج المكتوبة عراقياً وعربياً تعتمد هذا الوصف أو القانون الذي يؤكد على متابعة حركة – الأنا – أو – الآخر/ الطبيعة.

ضمن الطقس الكتابي المحلي يقتعد الشاعر كرسياً في غرفة، لا طبيعة في الأمر، إلا أن الكثيرين استطاعوا أن يعربوا، أو يعرقوا هذا الشكل الشعري ويمنحوه القدرة على اكتشاف الأنا والآخر والحياة العامة.

(بلقيس خالد) ومن خلال أكثر من (250) نصاً ينتسب للهايكو بصيغته/ بروحه العراقية تحاول أن تمسك بكل ما يمثل الحراك الإنساني عامة والمرأة خاصة. كل ما يكون مصدرا للحزن والأسى والمحبة، محاولة أن تقول وتحكي وتروي وتشير ضمن فعل

اقتصادي، قد لا ينتمي للتقتير أو البخل، أو عدم الإيفاء، إنها تحاول أن تقول الكثير بالقليل من القول، ليس اعتماداً على ما يقول العرب (خير الكلام ما قلّ ودل)، وذلك لأن (بلقيس خالد) لم تقل كلاماً فحسب، بل انه الشعر الصامت/ الصائت.

القارئ المتابع للمنجز الشعري للشاعرة سوف يتذكر نماذج شعرية أولية، في كتابها الأول (امرأة من رمل) الصادر عن دار الينابيع دمشق - 2009، ربما كانت تكتب الشاعرة هكذا نماذج على أنها (الومضة) إلا أنها تمثل البذور الأولى للغابة الشعرية، إنها اليرقات الأولى لدودة القز، التي نتابعها في (دقيقتان.. دقيقة واحدة).

في (قنديل ملون) إعلان صريح للذهاب الى تجربة حياتية وكتابية مختلفة رغم الأوليات المتعددة التي تشير لهذه التجربة. إلا أن توفر القصدية في اتباع منهج ما لابد من توفير حالة من ضرورة القيام بمغامرة ما، ضرورة وجود دافع ينتمي الى النفير، وليست القناعة بالمتوفر، فالإعلان السابق عن وجوب المغامرة والبحث عن المختلف استطاع أن يوفر للشاعرة منطقة فيها الكثير من الغواية، والدعوة الى عدم التخوف من الكتابة المنتقاة. انه الكتابة الطالعة من الافتراض والتي بحاجة الى تطبيق، والتي لابد أن تتم في قابل الأيام.

(7)

من أين ستبدأ القراءة التي ستصاحب مغامرة الشاعرة؟ من تفتيت الوحدة الزمنية ومغادرة اندماجاتها!

هل تحطيم هذه الكتلة/ الوحدة له علاقة بتجاوز الكتلة اللفظية للقصيدة العربية. والذهاب بحثاً عما يمثل تجاوزا للشكل المتوارث؟ يبدو أن التفريق الحاصل ما بين – دقيقتان – و – دقيقة واحدة هي محاولة لتوفير حالة زمنية يختص بها الكائن الحاضر / رحيم جمعة حيدر، حيث وفرت لانتظاره الذي لا ينتهي رسالة له ص5؟ أم انه سيبحث عن نص شعري/ متن يحمل العنونة الأم/ الجذر، وحين يفقد السبيل الى هذا، عليه أن يعتمد على حسه الشعري، وعلى خزينه المعرفي، وربما سيستعين – كما عملت الشاعرة ذاتها – في أول اتصالاتها بالهايكو، فيذهب للبحث عن هذا وهذا، الى حيث الشبكة العنكبوتية، والتي ربما ستروي بعض حقوله القراءاتية، وليستدل عبر المعلومة الى وسيلة للقراءة التي تمكنه من مصاحبة الشاعرة عبر عقدين وعقد ثالث من الكتابة والقراءة والمتابعة والاحتفاء بالحياة.

عبر ثلاثة وعشرين عنونة جانبية/ فرعية تعمل الشاعرة على صناعة مرتكزات كتابية أولية وقرائية رئيسة، متخذة الكثير من عنديات/ توصيفات الهايكو عنوانات تقترب من الهايكو ذاته/ تذكر القارئ/ المتابع بعنوانات الفصول/ الوحدات السردية في روايتها (كائنات البن) حيث يشكل الغياب حضوراً شديداً والمكان يمثل وجوداً لا غنى للشاعرة منه، ومن دونه يفقد النص الكثير من خصوصية الكتابة (حمالة الرطب ص111/ البصرة مكاناً متفرداً، إضافة الى جغرافية البيت (شهقة في رئة المكان ص99.

قد لا يكون القارئ ممتحناً حين يكون مصدر الكتابة امرأة شاعرة، وسط حشد من الشعراء الذكور، وفي مكان/ بلاد تهتم بالاختلاف والبحث عن المتغير، فهذا أمر يحمل الكثير من الاحتفاء بالجمال.

هنالك الكثير من الشعراء الذين يكتبون نصوصاً تدخل في خانة – الهايكو – أو تقترب منه عبر القصيدة القصيرة أو ما يسمى الومضة، ولكن من غير أن يعلنوا عن ذلك. هل هي حالة امتحان للانا؟ أم الفعل الشعري التجريبي الذي يحاول الكثير من الشعراء المرور من خلاله وصولا الى الفعل الشعري المختلف.

(بلقيس خالد) في البصرة امرأة شاعرة تحاول أن تثبت ذاتها من خلال عملية الإشهار عن منجز إبداعي شعري يتخذ من بنية شعرية شائعة نقطة انطلاق. واذا ما كان الكثيرون قد أحجموا عن الإعلان عن مشاريعهم، إلا أن (بلقيس خالد) اتخذت من الإعلان عن تجربة شعرية تتخذها خط شروع للكتابة المختلفة. انه الكدح الشعري ومحاولة التأكيد على أن الفعل المختلف بحاجة الى إصرار وقصدية وتأكيدات.

(8)

في حديث الصديق الشاعر والناقد (مقداد مسعود) عن (بلقيس خالد) ومنجزها (دقيقتان.. ودقيقة واحدة) لم يتطرق الى تجربته الكتابية للهايكو والتي لم يعلن عنها. في (هدوء الفضة) وفي الصفحة (83) ضمن عنونة رقمية (1) هناك أحد عشر نصاً شعرياً ينتمي الى الهايكو انتماءً تاماً، وفي ص9 وضمن عنونة رقمية أخرى – -2 هناك تعريفات للفضة تنتمي الى بنية الهايكو كذلك، يربو عددها على الأربعة عشر نصاً. ولأن التجارب المتقاربة/ المتحايثة مع بعضها من السهولة بمكان أن تتداخل مع بعضها اذا ما علم القارئ الكريم أن العلاقة ما بين الشعراء ذاتهم وانتماءاتهم المدنية تشكل الكثير من التقارب والتداخل والتأثر والتأثير الثقافي، إضافة الى أن – مقداد مسعود – يشكل مصدرا للتجارب المختلفة والتي يسعى لابتكارها بعيداً عن تجارب الآخرين، فكانت كتاباته تنأى عن المشتركات، لينفرد هو بالكثير من المختلف عن الكثيرين.

عبر بنية قصيدة الهايكو تعمل الشاعرة (بلقيس خالد) على صناعة التفرد ما بين بنات جنسها من جهة وما بين حشد الشعراء من جهة أخرى.

إن كاتبة أو كاتب (الهايكو) وبعد أن تحولت الكثير من كتاباته/ الهايكو الى ما يشبه الحكمة أو الموعظة أو الآيات الكريمة المستلة، إن لم يكن لديها أو لديه سعي للاختلاف سوف لن يضيف أي منها حجارة أو ملاطاً الى جدار الكتابة الشعرية، المفترض (الهايكو) كائن شعري محاصر، ما بين العديد من التهديدات، ما بين الغموض والوضوح، ما بين المحلية والعالمية، ما بين الميثولوجيات والتراث الشخصي، ما بين المباشرة والشعارات والخواطر، أو الذهاب الى أصول ولزوم وضروريات الاحتكام الى الجذور.

لذلك ليس من السهل أن يتمكن الشاعر أن يثبت قدميه على أرضية قلقة، غير أمينةٍ، لا تمنح مفاتيحها إلا عبر التزود بالمعرفة والقراءة، والاطلاع على التجارب الشعرية، والتفاعل معها، وعبر وجوب اتخاذ قانون الاختلاف سنةً، وعدم الخضوع الى النسق الشاطب والمتعارف عليه، والذي تتم وفق قوانينه كتابة المئات بل الآلاف من الكتاب والنظامين، وأدعياء الشعر الذي لا أبوة له. الكتابة تفرد، وتمرد، وخروج على قيم الثوابت وعلى المتفق عليه، بل هو الخروج على المنجز الشخصي، وليس على منجز الآخر فحسبُ.

في اعدادنا المقبلة

- عالم الاهوار/ مؤيد داود البصام
- تيار الوعي الثقافي / نجاة تميم
- وجه في المرآة / عبد الرزاق الربيعي
- باب المعظم / قصة – سعيد الروضان
- زمن الشرفة / شميسة غربي
- حرج الانتقاء والاحالة / د. نادية هناوي
- دلالات مفهوم الانتلجنسيا / ثامر عباس
- علاج المحرمات المريضة / ليث الصندوق
- على وشك الحياة / مسرحية – سحر الشامي
- المقامات اللامية / مرتضى محمد
- المستشرق ماسينيون / كامل داود
- بائع الغناء / قصة – جبار الحسيني
- ابجد من نرجس ودمع/ قصيدة – عادل مردان

وفي هذا السياق نود ان نؤكد لكتابنا مرة أخرى، ان (الثقافة الجديدة/باب ادب وفن) تعتز بكل ما يصل اليها من رسائل ومقالات ونصوص، وهي تلقى من محررينا الكثير من الاهتمام والتقدير. وان أي تأخير في الرد او التواصل ليسا الا نتاج لزخم العمل. وان المجلة كانت وما زالت تراعي في مسالة نشر المواد الاسبقية الزمنية لوصول المادة. فحجم باب ادب وفن لا يمنحنا الحرية الكافية لنشر جميع ما يرد اليها من نصوص، هي في غالبيتها تتسم بالجدة والفاعلية والتاثير. وهو الامر الذي يضطرنا الى تأجيل نشرها الى الاعداد المقبلة.

ان هيئة تحرير (الثقافة الجديدة) ترجو من جميع كتابها الافاضل الالتزام بشروط النشر في باب (ادب وفن)، خصوصا مسالة حجم المادة التي يرسلونها الى باب ادب وفن، والتي يجب ان لا تزيد عن 2000 كلمة. وكذلك عدم ارسال أي مادة نشرت سابقا باي وسيلة إعلامية كانت.

عبد الوهاب البياتي
شاعر الاغتراب/ ظاهرة إبداعية

صلاح جبار الحسيني

لم يكن عبد الوهاب البياتي أحد رواد الشعر الحر فحسب، وإنما أطلقت عليه عدة تسميات منها شاعر القصيدة الرومانسية وشاعر الأساطير والشاعر الغنائي، إلا أنه وعلى الرغم من هذه التسميات المتعددة، فهو شاعر النفي والتشرد، فعبد الوهاب البياتي كتب في المنفى القسم الأكبر من قصائده، ولقد بيّن هذا الشاعر معنى المنفى الاجتماعي والسياسي والفلسفي في كتابه القيم "تجربتي الشعرية" واستطاع في معظم دواوينه السابقة أن يعبر عن جميع هذه الحالات من النفي والغربة ممتزجة بعضها مع البعض الآخر، إن قراءة متأنية لتجربه البياتي في قصائد "عيون الكلاب الميتة" هي بمعناها غربة اتحاد الرمز الذاتي بالرمز الجماعي:

سفنُ الفضاء تعود من رحلاتها
عبر الفراغ الموحش الأبديّ
والضوء البعيد
ينهل من نجم يموت
وكواكب أخرى تموت
وضوؤها ما زال في سفر إلينا
عبر آلاف السنين
وكائنات لا تُرى بالعينِ
تولدُ من جديد

إن المواد الشعرية الأولية في عالم البياتي الشعري مستقاة من حياته اليومية كلها بكل تفاصيلها البسيطة وبكل مصادفاتها الغريبة، وهذا ما نعنيه حينما نقول إن البياتي قد استعمل في بناء أشعاره لغة التجربة، فهو يغور في تفاصيل الحياة اليومية، زاجاً الأساطير والرموز في صلبِ قصائده:

أصعد أسوارك. بغداد. وأهوي ميتاً في الليل
أمدّ للبيوت عيني وأشمّ زهرة المابين
أبكي على الحسين
وسوف أبكيه إلى أن يجمعَ الله الشتيتينِ
وأن يسقطَ سور البين
ونلتقي طفلين

عبد الوهاب البياتي

نبدأ حيث تبدأ الأشياء
نسقي الفراشات العطاش الماء
نصنع من أوراق كراساتنا حرائق
نهرب للحدائق
نكتب أشعار المحبين على الجدار
نرسم غزلاناً وحوريات
يرقصنَ عاريات
تحت ضياء قمر العراق

لقد أصبح البياتي بحد ذاته مدرسة شعرية عراقية وعربية، وهذه المدرسة تركت أثرا واضحا في مسيرة هذا الشاعر:

أحمل كل ليلة جبل ''القفقاس'' هذي النار
أصرخ بالبوقات
ومدّعي الثورات
في الوطن الغارق في البؤس من المحيط للخليج
والنوم والصلاة
أسعد حالاً هذه الدواب
وهذه الطبيعة الصامتة الخرساء
من فقراء المدن المرضى ومن حثالة الأموات في الأرياف
لكنني أصلب عند مطلع الفجر على الأسوار

إن اللغة الشعرية المموسقة التي يمتاز بها شعر البياتي جعلته متفردا في أسلوبه الرومانسي هذا، والبياتي يعد من المحدثين القلائل الذين تركوا بصمة واضحة في المشهد الشعري العربي والعراقي:

كلما عدتُ من المنفى
التقت عيناك بالجرح القديم
قبّة الليل البهيم
وقناديل الطفولة
والفراشات وأعراس النجوم
وطواحين الهواء
تملأ الليل بكاء
كلما عدتُ رأيت الجرح في نفس الرسوم
صيحة الديك ونيران القبيلة
ضوأت وانطفأت فهي رماد في الأصيل
ومناديل رحيل
عبر باب المستحيل
كلما عدتُ رأيتُ الجرح في عين الدليل
إنه الجرح القديم

أبدع البياتي في كتابة القصيدة العربية الحديثة، وبلغ بها مدى بعيدا حين كشف عن أساليب أكثر تركيزا في التعبير،

فحلت الاستعارة محل التشبيه وأصبحت الصورة المحسوسة مفضلة على التعميم الشعري، فأصبحت القصيدة صورة واقعية من الواقع المعاش، الواقع داخل الوطن وواقع المنفى الذي يراود الشاعر في الطرقات والأزقة والليل:

وأنا..
وأنت؟
أنا وحيد
كقطرة المطر العقيم أنا وحيد
وهؤلاء
مثلي ومثلك يحفرون قبورهم عبر الجدار
مثلي ومثلك مقبلون على انتظار
من لا يعود
وأنا وأنت وهؤلاء
كالعنزة الحرباء أفردها القطيع
لا نستطيع
وإذا استطعنا، فالجدار
والتافهون
يقفون بالمرصاد، كالسد المنيع
لا نستطيع
وأنا وأنت وهؤلاء
والتافهون
والشمس في الطرقات تحتضن البيوت
فتثير في النفس الحنين إلى البكاء

لقد كان الشاعر يعيش الحلم برؤيا بلاده والموت بين أفيائها، بل ومشاهدة الحدائق والبساتين التي يحلم بها البياتي منذ لجوئه إلى المنفى، لقد كانت بلاده حاضرة في أغلب قصائده، كقوله في قصيدة "إلى شهيد آخر":

سنلتقي على تخوم العالم المسحور
سنعبر الجسور
معا نغني
وإلى بلادنا نطير
في فجر يوم أزرق مطير
معا سنصطاد الفراشات
معا سنقطف الزهور
غدا إذا غرد في بستاننا عصفور
واندكَّ هذا السور

ويقول في قصيدة أخرى متغنيا ببغداد التي يحملها بين أضلاعه، إنها الرئة التي نتنفس منها عبير الحياة:

يزرع في الجليد
بنفسجات حبه الجديد
يزور في أعياده الموتى، يغني الموت في البلاد
يحمل في ضلوعه بغداد
يمد نحو الوطن البعيد قوس قزح السماء
يجهش في البكاء
يضاجع النساء
يكتب فوق حائط السجن، وفوق جبهة المدينة
أشعاره الحزينة

إن الأساطير والرموز التي تغنى بها البياتي وراودته منذ مجموعته الشعرية الأولى "ملائكة وشياطين" ومجموعته الأخرى "أباريق مهشمة" حتى مجموعاته الأخيرة، نرى الرموز حاضرة في قصائد هذا الشاعر الرومانسي "تموز وعشتار وشيراز وعائشة وسمرقند" كلها أمكنه وأسماء تراثية لاصقت البياتي في نصه الشعري:

ولدت في جحيم نيسابور
قتلت نفسي مرتين. ضاع مني الخيط والعصفور
بثمن الخبز اشتريت زنبقا
بثمن الدواء
صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيدة
لأمّنا الأرض التي تولد كل لحظة جديدة
نمت على الأرصفة الغبراء
اصطدت الفراشات. وقعتُ في شِراك النور
وسحب الخريف والغابات والزهور

إن أي رحلة أو قراءة لشعر البياتي، رحلة خصبة ومثيرة، وغنية ذلك إن قصائد البياتي تحمل في تدفقها المستمر جوهر الشعر الحقيقي وتؤكده وتحمل قدرة النفاذ من خلال الموسيقى والصورة والرؤيا إلى الوجدان، وجدان الإنسان المعاصر إذ يقول في قصيدة "إلى لويس أراغون":

كلماتك الخضراء في ليل انتظاري
نفذت بلحمي مثل نار
ثأرت إلى صمت البحار
عبرت صحاري
حلت بداري
ضيفا وباتت في قراري

لقد انتقد الشاعر البياتي الأوضاع السياسية السائدة التي كانت في البلاد خلال الفترة السابقة، وكان يحلم ويتمنى أن يرى أصدقاءه الفلاحين والكسبة والعمال وهم يعيشون أحرارا منعمين، وأحيانا يستنكر الإرهاب في شتى أشكاله وألوانه إذ يقول في قصيدة "الباب المضاء":

الليل والباب المضاء. وأصدقائي الميتون
بلا وجود يحلمون
بالفجر والحمى وصنّاع الظلام
يتاجرون بما تبقى من سموم
"كل الدروب هنا إلى روما تؤدي"
والذئاب
تسطو على من لا كلاب له. وسفاكو الدماء
يقامرون بما تبقى من رصيد
(لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى تراق على جوانبه الدماء)
الليل والباب المضاء
والشارع المهجور والقتلى وأقنية المياه
والريح والدم والمداخن والهوام
من سطوة الإرهاب. تزحف في الوحول
محمومة عمياء تزحف في الوحول
والأصدقاء الميتون من المصانع والحقول
كمياه نهر هائج يتدفقون
ويهتفون:
بموت سفاكي الدماء
وسقوط صناع الظلام
والجوع والحمى وأشباح النساء
وصبية يتوعدون
(الليل ولنحن أحرار لنا حق المصير)

أما المرأة فكانت حاضرة في شعر عبد الوهاب البياتي، فهو ينظر للمرأة من منظار متعدد الجوانب، فالمرأة هنا الأم والحبيبة، وأحيانا بغداد هي المرأة التي يحلم برؤيتها كقوله في "قصيدة منتحر":

ليلى أحس على فمي شفة
صفراء تصبغ بالدماء فمي
وجناح خفاش يطير على

قبري فيملأ بالرؤى حلمي
وأرى يداً سوداء تصفعني
وتشد شعري شدّ منتقم
وأرى غطاءَ القبرِ منتفخاً
وجحافلَ الديدانِ كالظُّلَمِ

ويقول في قصيدة أخرى واصفا نفسه كالطير الجريح بقصيدته ''وراء السراب'':

رجعت إليك كطير جريح
يعود من الغاب عند المساء
يلوك بمنقاره زهرة
ملطخة ببقايا دماء
فألقى إليك بأشلائها
وعاد جريحا كما هو جاء
يرفّ بعيدا وراء السراب
ويطوي الصحارى .. صحارى الظماء

إن المفردة الشعرية تمثل وحدة بناء العمل الإبداعي، فإن الشاعر يبذل قصارى الجهد كي يجعلها تنتظم في سباق شعري ثر، ولكن من البديهي القول إن اختيار المفردة الشعرية له علاقة بالتوتر الحسّي والنفسي للشاعر، كما له علاقة بالبيئة والوسط، والمنفى هو بيئة البياتي وإن المفردات التي استعملها هذا الشاعر كالأساطير والأمكنة والرموز التراثية جعلته يشكل ظاهرة إبداعية في المشهد الشعري العراقي خصوصا والعربي عموما في قصيدته:

للوطنِ المدهوش في زوبعة الأوراق
للوطنِ المسكون بالعشاق
للوطن الضارب بالجذور في الأعماق
لشاعر تحوم حول وجهه المضاء
فراشة بيضاء
لكتب الأسفار
والليل والنهار
تطلّعَ الحلاج
مفترشاً ''دجلة'' في الخريف والقباب والأبراج
وخبَّأَ الرأس الذي أُحرق بعد الصلب في الأمواج

ثمة ملاحظة يجب ذكرها في هذه الدراسة هو إن ظاهرة البياتي الإبداعية كانت مشروعا أدبيا أو شعريا في المنفى، وكان هذا الكائن ''الشاعر'' حاضنة للمشاريع الأدبية العراقية، فأسس جائزة شعرية خاصة به للشعراء العراقيين الشباب موسومة بـ(جائزة عبد الوهاب البياتي الشعرية) وكانت لجنة مخصصة من الشعراء العراقيين مشرفة على هذه الجائزة، منهم الشاعر محمد مظلوم. وقد استمرت هذه الجائزة عدة أعوام، وكانت سنوية وقيمة الجائزة معنوية قبل أن تكون مادية. ويطبع النتاج الشعري الفائز أو المجموعة الشعرية الفائزة على نفقة الشاعر عبد الوهاب البياتي، فكانت مشروعا ثقافيا عراقيا بيانيا، نال الرضا من جميع المؤسسات الثقافية العراقية في المنفى. وكانت هذه المسابقة تمثل الخيمة التي لمت شتات الأدب المهجري، واستمرت عدة سنوات حتى وفاته في دمشق، ومنه قوله:

أسقط من فوق جواد الموت
ومن سريري، ميتاً في البيت
وفي يدي جريدة
قديمة جديدة

يضحك جاري ضاحكاً، ويسكت المذياع
ويدرك الصباح شهرزاد

لقد التقيتُ بالشاعر البياتي في منفاي قبل ثلاث سنوات من رحيله، فأحسستُ بحديثه هماً وطنياً وإنسانياً، وقرأت في عينيه هموم المنفيين وعذاباتهم، كان في حينها في سنواته الأخيرة، يمشي الهوينى، لا يحب التفاخر والثناء، بل كان متواضعا، وعندما تحدث عن تجربته الشعرية أمام حشد من الزملاء الشعراء في المكتبة المختصة في المنفى، رأيته وكأنه يتحدث عن الواقع العراقي المعاش، كنا ننصت إليه بتلهف وشوق، ونسأل هل هذا هو البياتي الذي ملأ عالمنا العربي ضجيجا، أم هو هذا الكائن (العراقي) الذي لا يحمل سوى الكلمة واليراع، وقد عبّر عنه في قصيدته "الشعر يتحدى":

الشعر لا تطاله أوامر النقاد، الشاعر في رؤياه
يقودكم، سأمانَ، من أنوفكم
عبر التعاسات
ولا يقادُ كالحصان في سُراه
فلتخفضوا يا سادتي الجباه
لأنكم لم تعرفوا الوحشة والفقدان في حياتكم
يا سادتي أوّاه
الشاعر الشاعر يقضي نحبه الليلةَ في نجواه
مزقا _ عيناه
تستجديان الحبّ والحياة

هكذا هي قصائد شاعر الاغتراب عبد الوهاب البياتي قصائد رومانسية مليئة بالصور والمشاهد والمضادات والرموز الأسطورية:

يبقرُ بطنَ الأيّلِ الخنزير
يموت "أنكيدو" على السرير
مبتئساً حزين
كما تموت دودة في الطين
أدركه مصير "لقمان" مصير نسره
السابع في النهاية
تمّت فصول هذه الرواية
لن تجد الضوء ولا الحياة
فهذه الطبيعة الحسناء
قدّرت الموت على البشر
واستأثرت بالشعلةِ الحيّةِ في تعاقب الفصول
ماذا لموتي آه يا مليكتي أقول

وأحيانا يستعمل البياتي فلسفة البناء الفني للموال الشعبي بأسلوب إبداعي، يستذكر في هذا مدينته بغداد التي فارقها منذ زمن طويل، كما في قصيدة "موال بغدادي":

بغداد يا مدينة النجوم
والشمس والأطفال والكروم
والخوف والهموم
متى أرى سماءك الزرقاء
تنبض باللهفة والحنين
متى أرى دجلة في الخريف
ملتهبا حزين
تهجره الطيور
وأنت يا مدينة النخيل والبكاء
ساقية خضراء
تدور في حديقة الأصيل
متى أرى شعرك الطويل؟
تغسلهُ الأمطار

في عتمةِ النهار
وأعين الصغار
تشرق بالطيبة والصفاء

إن الغربة هي قدر الشاعر لدى البياتي، لأن الشاعر وهو يبدع في نصوصه الشعرية إنما يسلخ من الواقع، وينتقل من البرهة اللازمنية، ومن ''الأنا'' إلى ''الأنات'' وهذه الحالة تسبب قلقا وشعورا بالغربة؛ لأن الواقع حالة متغيرة وغير مستقرة، وهو يموت بقدر ما يرحل، ويولد بقدر ما يرحل أيضا.

هكذا بالنسبة للشاعر البياتي وقد عانى هذا الشاعر كبقية الشعراء من ''غربات'' أخرى سماها الرومانسيون ''غربة الروح'' ويسميها البعض من النقاد ''التفرد'' وليس ''العزلة'' إلى جانب إضافات أخرى، هي غربة الإنسان في هذا العالم بشكل عام والتي تنتج عن التفاوت الطبقي والمادي، فالغربة إذن شعور ميتافيزيقي أصيل يولد مع الإنسان وينمو بقدر ما يحاول هذا الإنسان الحفر في قاع الروح، ويموت هذا الشعور بقدر ما يستسلم هذا الإنسان للواقع والمصير والقدر، أما بالنسبة للشاعر فإن أدواته الشعرية هي أدوات استبصار واستشعار، فهي تجرفه معها في تيارها ليواجه محنته محاولا الحفر في قاع الروح، والبياتي أبدع في هذا المجال:

بضحكته الحلوة
ينير الطريق إلى ضيعتي
وتركني ههنا
أغني لوحدي احتضار السنا
أغني أنا
غنائي ابتهال
غنائي قُبل
وميلادُ حبّ وفجر أمل
غنائي صلاة إلى السنديان
إلى قاطفات الكروم الحسان
إلى قبّرة
إلى ليلة مقمرة
تعالَ حبيبي، فإن الرياح
وثلج الصباح
يغطي الحقول، وأنت هناك
بجبهتك العالية
على الرابية
أمير صغير

إن الشاعر عبد الوهاب البياتي، شاعر الاغتراب والحنين وقصائده نماذج إبداعية من شعر المنفى العراقي. وله الفضل في المشاريع الأدبية في المنفى، وعبد الوهاب البياتي يعد الآن من المجددين في القصيدة الشعرية وروادها الكبار، فالتحديث الذي أبدعه البياتي مع نخبة من شعراء الحداثة جعلته رائدا من رواد الشعر العربي، لقد حفر اسمه في مشهدَي الشعر العراقي والعربي بجدارة، إنه شاعر المنفى العراقي.

• كاتب وصحفي من الناصرية، لديه العديد من المؤلفات الصادرة.

مسرحية من فصل واحد
المحقق

طلال حسن*

مكتب المحقق، يدق التلفون،
يدخل الحارس، ويرفع السماعة

الحارس : ألو.
أم عامر ”تضاء حاملة السماعة“: أريد أبا عامر.
الحارس : أم عامر؟
أم عامر ”مغالبة انزعاجها“: نعم .
الحارس : عفواً، أبو عامر لم يصل بعد.
أم عامر : أخبره بأني اتصلت، حالما يصل.
الحارس : هل تريدين أن ..؟
أم عامر ”تضع السماعة منزعجة“ ....
الحارس : آه .. ” يضع سماعة التلفون ” وتريد أمي أن أتزوج.

يُفتح الباب، ويدخل
أبو عامر، حاملاً حقيبته

الحارس : صباح الخير، سيدي
أبو عامر ”يضع الحقيبة فوق المكتب“: جئني بفنجان قهوة.
الحارس ”يتجه نحو الخارج “: حاضر سيدي.
”يتوقف عند الباب“: سيدي ..
أبو عامر ”يحدق فيه“ ...
الحارس : اتصلت أم عامر قبل قليل..
أبو عامر ”يقاطعه“: اذهب، وجئني بفنجان

القهوة.
الحارس : حاضر سيدي "يخرج".
أبو عامر : هذا الأمر لا بدّ من حسمه، نعم، لا بدّ "يشعل سكارة". الآخرون ليسوا أفضل، ومع ذلك حصلوا على ما يبغون، وهم ينعمون الآن بدخل عالٍ، يفيض عن حاجتهم، أما أنا .. "يهزّ رأسه" لأكن مثلهم، وأدوس .. "يدق التلفون" ومثلهم سأصل، وأحقق كلّ ما أريده "ينظر إلى التلفون" لا بدّ أنها هي، آه .. "يرفع السماعة": ألو ..
أم عامر "تضاء حاملة السماعة": أبو عامر؟
أبو عامر "مغالباً ضيقه": نعم.
أم عامر : ما زلت غاضباً..
أبو عامر : تكلمي، لستُ غاضباً.
أم عامر : بل غاضب، إنني أعرفك..
أبو عامر "يتمتم متأففاً": أعوذ بالله .
أم عامر : صارحني، فأنا زوجتك ..
أبو عامر : هناك أمر يقلقني، سأحدثك عنه فيما بعد.
أم عامر : أبو عامر..
أبو عامر : لا بدّ لي أن أحسمه، في أقرب وقت ممكن ، وسأحسمه.
أم عامر : ليتني أعرف هذا الأمر..
أبو عامر : ستعرفينه قريباً، هيا أغلقي التلفون.
أم عامر : أبو عامر، اسمعني ..
أبو عامر "يضع السماعة متضايقاً"...
أم عامر : ألو .. ألو .. "وهي تضع السماعة": لن أرتاح حتى أعرف ما يقلقه، ويثير غضبه "تطفأ الإضاءة عنها" ..
الحارس "يدخل مسرعاً": سيدي ..
أبو عامر : قلت لكَ، أن تجيئني بفنجان قهوة.
الحارس : لم أشأ أن أقاطعك، كنت تتحدث مع ..
أبو عامر : اذهب، وجئني بالقهوة .
الحارس : حاضر سيدي "عند الباب": سيدي ..
أبو عامر "يحدق فيه" ....
الحارس : المتهم بالباب.

أبو عامر : جئني بفنجان القهوة أولاً.
الحارس : حاضر سيدي ”يخرج“
أبو عامر : هذا المتهم، إنه نموذجي ”يسحق السكارة في المنفضة“ لأكن مثلهم تماماً، أولئك الذين وصلوا، ومثلهم سأدوس كلّ شيء، وليكن ما يكون، آه ..
الحارس ”يدخل بفنجان القهوة“: القهوة، سيدي.
أبو عامر ”يشعل سكارة“...
الحارس ”يضع فنجان القهوة أمامه“: سيدي ..
أبو عامر : المتهم..
الحارس : بالباب، سيدي.
أبو عامر : ليدخل.
الحارس : لم تشرب قهوتك بعد، يا سيدي.
أبو عامر ”يرتشف القهوة“: اذهب، وجئني به.
الحارس ”يتجه إلى الخارج“: حاضر سيدي ”عند الباب“: سيدي ..
أبو عامر : اذهب.
الحارس : حاضر سيدي ”يخرج“.
أبو عامر ”من خلال دخان سكارته“: سأثبت للجميع، أنني مثل الآخرين ، بل أفضل منهم، وسأحقق ما حققوه، وأفضل.

يُفتح باب الغرفة،
ويدخل الحارس والمتهم

الحارس : سيدي ..
أبو عامر : اذهب أنت .
الحارس : حاضر سيدي ”يتجه نحو الخارج“ ..
أبو عامر : أيها الحارس..
الحارس ”عند الباب“: نعم سيدي.
أبو عامر : ابقَ بالباب، ولا تدخل ، أو تسمح لأحد بالدخول، حتى أناديك.
الحارس : حاضر سيدي ”يخرج، ويغلق الباب“
أبو عامر ”يحدق فيه“: أنت ..
المتهم : خالد ..
أبو عامر ”يشير إلى ملف ضخم أمامه“: خالد

عبد الرحمن .
المتهم : نعم، هذا هو أنا.
أبو عامر :من يدري ..''يدق الهاتف'' لكن لا بدّ
أن أدري ''يمد يده إلى سماعة الهاتف''
وسأدري ، منك أنت بالذات ''في التلفون'': ألو..
أم عامر ''تضاء حاملة السماعة'': أبو عامر ..
أبو عامر ''مغالباً غضبه'': هذا ليس وقته ..
أم عامر : فاتني أن أذكركَ ..
أبو عامر ''يرمق المتهم بنظرة خاطفة'' لدي ما
يشغلني الآن ..
أم عامر : لا تتأخر، لا بدّ أن نأخذ سناء عصراً
إلى الطبيب.
أبو عامر : حسناً، لن أتأخر .
أم عامر : ثم نذهب إلى السوق، ونشتري لها
حقيبة جديدة وملابس وحذاء ولوازم
مدرسية و ..
أبو عامر : أنتِ تعرفين أن الراتب أوشك أن ينتهي
، وما زلنا في أول الشهر ..
أم عامر : لكن سناء طفلة، ولا بدّ أن نشتري لها ..
أبو عامر : حسناً، كفى، سأستدين، اذهبي الآن،
ولا تتصلي ثانية.
أم عامر : لا تتأخر.
أبو عامر ''يضع السماعة متضايقاً''...
أم عامر ''تضع السماعة في مكانها، تطفأ
الأضواء عنها''...
المتهم ''ينظر إلى أبي عامر'': يا للحياة من
مهنة شاقة...
أبو عامر ''يحدق فيه مغالباً غضبه''...
المتهم : وخاصة في ظروفنا هذه.
أبو عامر ''بمرارة'': هذا ما تجيدون العزف عليه
دائما.
المتهم : إنها الحقيقة، يا سيدي.
أبو عامر : ما دمت قد ذكرت الحقيقة، أريد أن
تكلمني عن حقيقتكَ.
المتهم : حقيقتي هنا، أمامك يا سيدي ''يشير
إلى الملف الضخم الذي أمامه'' في هذه

الأوراق.
أبو عامر : ليس في هذه الأوراق سوى اسمك وعمرك وعنوانك وعملك ''يصمت محدقاً فيه'': محامي، أنتَ محامي.
المتهم : نعم، يا سيدي ، أنا محامي .
أبو عامر : المحامي يدافع عن القوانين.
المتهم : بل يدافع عن الناس والحقيقة.
أبو عامر : ضمن القوانين.
المتهم : ''يلوذ بالصمت''...
أبو عامر : القوانين فوق الجميع.
المتهم : إلا إذا تعارضت هذه القوانين مع الإنسان والحقيقة.
أبو عامر ''يحدق فيه''...
المتهم ''يبادله النظر صامتاً''...
أبو عامر : حقاً أنت إنسان خطر.
المتهم ''يلوذ بالصمت''...
أبو عامر : اسمع ''بانفعال متدرج'' قل لي صدقاً، من أنتَ؟ ومن هم جماعتك الذين تنتمي إليهم؟ ''يصيح'' تكلم.
المتهم : قلتُ مراراً، أنا خالد، محامي، أعمل مع مجموعة من المحامين، ونحن لا نهدف إلا إلى الحق والحقيقة.
أبو عامر ''يحدق فيه'' ....
المتهم : وأعترف، أنا ومجموعتي من المحامين ، أننا لم نحقق نجاحاً يذكر فيما نريده، فالظروف كما تعرف صعبة للغاية .
أبو عامر : هراء ..
المتهم : نعم!
أبو عامر : كلّ ما قلته، حول الحق والحقيقة والإنسان، مجرد هراء.
المتهم : هذا أمر مؤسف، لم أكن أتوقعه، ومهما يكن، فليس من المستبعد أن ترى ، ربما فيما بعد، أن بعض ما قلته.. ليس هراء.
أبو عامر ''بشيء من الحدة'': اسمعني ..
المتهم ''يلوذ بالصمت '' ....

أبو عامر : إذا لم تترك أسلوبك المراوغ هذا، وتعترف اعترافاً كاملاً وصريحاً، فسأرسلك إلى العالم السفلي، وما أدراك ما العالم السفلي ، ولن تخرج من هناك، حتى تعترف بالحقيقة كاملة. هذا إن بقي منك شيء يمكن أن يخرج، ويعترف بأيّ شيء .

المتهم : حكى لي أحدهم، أن شخصاً أرسل إلى ما أسميته العالم السفلي، وتم التعامل معه بمنطق العالم السفلي، ولم يخرج حتى الآن.

أبو عامر : كان عليه أن يقول الحقيقة كاملة، ويخرج من العالم السفلي، ويعود إلى عائلته.

المتهم : لقد عرفوا بعد فوات الأوان، أن ذلك الشخص، الذي لم يخرج ولن يخرج، لم يكن لديه ما يعترف به.

أبو عامر : على العكس منك، سأرسلك إلى العالم السفلي، وسنرى .

المتهم : تمهل، يا سيدي، فأنا أخشى أن تكتشف ، بعد فوات الأوان، أنه ليس لدي ما أقوله لك.

أبو عامر : هذا لا يهم "عند النافذة": تعال.

المتهم "يقترب من النافذة" ....

أبو عامر "يزيح الستارة": انظر.

المتهم "ينظر عبر النافذة" ....

\أبو عامر : ماذا ترى؟

المتهم : مجموعة من القبور.

أبو عامر : بعض من فيها أبرياء.

المتهم : والبعض الآخر، وربما القلة منهم، مذنبون .

أبو عامر : لا بأس، فالمهم أن لا تفلت منّا، وأنت من هذه القلة "يسدل الستارة" نحن نفضل أن نقبر مئة بريء، على أن يفلت منّا مذنب واحد.

المتهم : للأسف، يا سيدي، إنها معادلة قاتلة، غارقة بالدم .

أبو عامر : أردت أن تعرف هذه المعادلة، لتختار
على بينة، لعلك تعقل .
المتهم "ينظر إليه"...
أبو عامر : أنتَ حر، اختر.
المتهم : لا شكّ، يا سيدي، إن بين هؤلاء المائة
، من هم مثلي، وربما مثلك، أصحاب عائلات.
أبو عامر : دعكَ مني، نحن نتحدث عنك أنت
بالذات.
المتهم "يتابع حديثه": وأنهم عانوا مثلما أعاني
، وربما .. "يصمت" عانوا من أوضاع
معيشية صعبة، فأنا مثلاً، رغم أنني
محامي، إلا أن دخلي محدود، لا يكاد
يفي بمتطلباتي، ومتطلبات العائلة، بيت
إيجار وزوجة وأولاد ، بنتان وولد واحد "
يصمت " أنت أيضاً متزوج.
أو عامر "يهز رأسه" ....
المتهم : وزوجة وأولاد ..
أبو عامر : ولد وثلاث بنات ..
المتهم : يحفظهم الله لك.
أبو عامر : وأمي وأختاي في القرية.
المتهم : والراتب، رغم أنك ضابط ..
أبو عامر "يلوذ بالصمت متضايقاً" ....
المتهم : ولابدّ أنك مثلي، ومثل أغلب الموظفين
الشباب، تسكن في بيت إيجار، و ..
أبو عامر "يهز رأسه حزيناً " ....
المتهم : والإيجارات مرتفعة بالنسبة للراتب،
وترتفع باستمرار ، ..
أبو عامر "يهز رأسه وحزنه يزداد" ....
المتهم : والزوجة والأولاد والمدارس و.. "يصمت لحظة" الزوجة إنسان، إنني لا ألومها، فهي ترى الأخريات أو بعضهن على الأقل، يعشن في رخاء .. "يصمت" ونحن، أنا وأنت، والآخرون أمثالنا ، هل نلام إذا .. حلمنا ..؟
أبو عامر "يحدق فيه" ....
المتهم : أتعرف ماذا قال أبو ذر الغفاري، في زمن أحد الخلفاء الراشدين، وليس في مثل هذا الزمان؟
أبو عامر "مازال يحدق فيه" ....
المتهم : عجبت لمريء جائع، لا يخرج إلى الناس شاهراً سيفه.

أبو عامر : مادمت تتحدث عن أبي ذر، فلابدّ أنك تعرف ما قاله له نبينا محمد ..
المتهم : ستعيش وحيداً، وتموت وحيداً، وتبعث وحيداً.
أبو عامر : وفعلاً مات أبو ذر في الربذة، حيث نفاه الخليفة عثمان بن عفان.
المتهم : لكنه ظلّ على مر العصور.. أبا ذر .
أبو عامر : لن يستطيع احد، في هذه الظروف الصعبة، أن يكون أبا ذر.
المتهم ''يهز رأسه'' من يدري ..
أبو عامر : فهذه المرة لن يُنفى إلى الربذة، بل سيلقى من .. ''يشير إلى النافذة'' ..
المتهم : لا بدّ أن هذا ما يستحقه.
أبو عامر ''يحدق فيه متشككاً'' ....
المتهم ''يجلس وراء المكتب'' ....
أبو عامر : ما هذا!
المتهم ''يحدق فيه'' ....
أو عامر ''بحزم مترددا'': اسمع، لابدّ أن تعترف، وتقول الحقيقة ، وإلا ..
المتهم : كفى.
أبو عامر ''بتردد أكثر'' سأرسلك إلى العالم السفلي، ولن تخرج منه حتى ..
المتهم ''يشير له أن يصمت'' ....
أبو عامر ''يصمت محدقاً فيه مذهولاً'' ....
المتهم : أنتَ لا تصلح لهذا الدور.
أبو عامر ''يكاد ينهار'': اسمع ..
المتهم : قل .. سيدي .
أبو عامر : ماذا!
المتهم : مرة أخرى، وأخيرة، فشلت في الاختبار.
أبو عامر : سيدي، أرجوك، أعطني فرصة ..
المتهم ''يتجه إلى الخارج'': كانت هذه فرصتك الأخيرة ''وهو يخرج'' ستحال إلى عمل آخر، يمكن أن يناسبك .

المتهم يخرج ، أبو عامر
يقف حزيناً محبطاً
إظلام
ستار

*** كاتب قصصي ومسرحي عراقي حائز على جائزة الإبداع في وزارة الثقافة للعام 2021.**

جنان محمد: بين القيمة الجمالية والفكرية

د. ازهر داخل محسن *

ذكرت في دوار معرضي الشخصي أن العمل الفني يفترض عدة اشتراطات ليؤدي غرضه الجمالي والفكري على صعيد الإنجاز أو على صعيد التلقي، أجدها مدخلاً مهماً لما أود ذكره حول معرض (هن) للفنانة د. جنان محمد، بمعنى أن العمل الفني نتاج فكري يستحوذ على ذهنية الفنان يبدأ بفكرة سريعة، مسبباتها كثيرة لا يعرفها سوى الفنان ومن ثم ينتهي بمنجز قد لا يمت للفكرة الأولى بأدنى صلة، وهذا ما أتفق معه بالمطلق، لأن مساحة العمل الفني ما بين الفكرة والإنجاز متغيرة بشكل كبير، وهذا هو أحد مظاهر الإبداع الفني الجمالي مفاده التفريق ما بين العمل الفني الإبداعي والعمل الحرفي الميكانيكي الصرف الذي يمكن تحديد ملامحه النهائية مسبقاً جزئياً أو بالكامل.

ولتوصيف بعض التوجهات الفلسفية التي تفترض سيرورة البعد الاجتماعي في العمل الفني وعملية الإبداع الفني التي تبناها ونظر لها الفيلسوف الفرنسي (هيبولت تين) كأبرز فيلسوف في القرن التاسع عشر، مبعداً ذاتية المبدع بوصفه خالق عمله أولاً وأخيراً، مؤكداً على العوامل الاجتماعية كمصدر للتعبير، والمبدع ليس سوى انعكاس لسيرورة تتجاوزه وتستخدمه في آن معاً.

وبشكل عام فإن ما قدمته الفنانة الدكتورة جنان محمد في معرضها (هن) ضمن زوايا قاعة جمعية الفنون التشكيلية فرع البصرة مؤخراً ابتداءً بفكرة أجدها استثمرت بوعي متقدم في عرضها منحوتات خزفية، لأن آلية العرض عدت مساحة جمالية نفذتها الفنانة بحذر شديد، فهي بلا شك اطلعت ومسحت قاعة العرض بكل تفاصيلها (بيت تراثي قديم) لتقدم معروضاتها بهذا الشكل التوافقي ما بين القاعة وجدرانها ونوافذها ومداخلها والمعروضات، وتضايفاً مع المكان بكل تمفصلاته أسست الفنانة على ذلك أحجام (هن) لأن الحجم في هكذا عرض يعد فاعلاً ومسؤولية مضافة، فكانت بعض (هن) صغيرة الحجم تتناسب مع المكان الذي وضعت فيه في حين أخذ البعض الآخر حجماً أكبر وأخذت ذات الفاعلية في تناسبها مع المكان، ولعلني أجد الوعي المتقدم جليا في عرض (هن) بهكذا أحجام متباينة، يتوافق مع طروحات (تين) أن الطبيعة ليست هي ما تخلق المبدع والإبداع، بل هي ما ينتج الظروف الملائمة لوجودهما، بمعنى أن المبدع بقدرته يؤسس لتحديد ملامح الطبيعة لكي يوظفها في منجزه الإبداعي، وهذا ما استطاعت الفنانة تقديمه في معروضاتها بتوافق مع المحيط (الفضاء) فهناك أعمال تفرض على المتلقي من اليقين بوعي الفنانة عندما جسدت الأعمال كلها في وضعيات متوافقة بشكل كامل، ولم تسع لوضع كل منحوتة بجلسة منقطعة عن الأخريات، فكل واحدة منهن تكمل الاخرى، وبالنتيجة أظهرت المنحوتات في بنية متكاملة، فعلى سبيل المثال (ثلاث نساء متحاورات) ورابعة تنظر لهن بريبة وتنصت، أو (امرأتين تتحاوران في

نظرة إلى بقية النساء الأخريات، وامرأة تنزوي لوحدها، وغيرها من النساء مما يمكن تشخيصهن بدقة وعناية بشكل منفرد أو مزدوج أو ثلاثي أو بمجموعها كلها، كما تجسد (احداهن) حركة ساحرة ولدتها الفنانة وصورتها لسلوك يومي للمرأة العراقية الجنوبية الريفية ببساطتها ورقتها وحتى أنوثتها، فالخطاب الحواري يفترض سردية الإرسال والتلقي لديمومته وتعزيز فاعليته، لذا وضعتنا جنان أمام معادل موضوعي للحوار الموازي للحوار الشفاهي الذي وصلنا بطرق شتى، فـ(هن) كلها معروضات لمنقولات شفاهية تداولية وعلامات تستجيب لدلالات النص المدون والشفاهي المحكي.

وهناك جانب آخر يمكن تحديد ملامحه، فالفنانة كعادتها عند عرض أعمالها في الرسم أشركت منحوتات من مادة الخشب أو من مادة أخرى تكون ضمن بنية العمل وكينونته (الرسم) بمعنى أن المنحوتة المضافة تكون ضيفاً للوحة الرسم، لكن الفنانة في هذا المعرض قلبت المعادلة ليصبح الرسم ضيفاً للمنحوتة الخزفية. تعد هذه التقنية أو الآلية الأدائية إضافة جمالية معرفية وتقنية لا سيما أن الفنانة لها مكنة في السيطرة على أدواتها أكاديمياً وتقنياً وفلسفياً وهي أستاذ الفلسفة وعلم الجمال في كلية الفنون الجميلة لسنوات طوال، وبحسب قول الفنانة في كلمتها حول معرضها أنها (لم تكن مجرد رغبة لتشكيل تكوينات خزفية معتادة، إنما أنقل تجربتي في الرسم واللون إلى الخزف والنحت) وهذا ما يجعلني أضع تحفظي على قولها وتواضعها نسبياً، فما أراه في المعرض لم يكن لنقل تجربة رسامة إلى منطقة النحت والرسم بهذا الشكل المبسط، إنما لتحقيق هدف متأكدة من قيمته الجمالية والفكرية.

أما الجانب الذي يؤكد ما تقدم أن المعروض

(هن) يمتاز بجوانب عدة، ربما لا يسعني الإحاطة بها جميعا لكثرتها أو لغيابها عن ذهنيتي في الوقت الحالي، وقد يحظى بها متلقون آخرون متخصصون بعلم الجمال والتقنية أو متذوقون لهم المساحة في تشخيص بعض الجوانب التي أغفلتها وكالآتي:

1 - يؤكد البناء الجمالي (التكوين أو الإنشاء) بأن جميع المعروضات جاءت بتشريح واقعي مع بعض الإزاحة المقصودة لغاية وظيفية أو جمالية، ومؤدى ذلك امتلاك الفنانة ناصية الدرس الأكاديمي والواقعي بحرفنة متمكنة، فضلاً عن المنظور الذي يتسم بواقعية تتماشى مع حركات النماذج المعروضة، والذي لا يخلو من إزاحة نسبية.

2 - الموضوعة التي اتخذتها الفنانة واقعية تلامس المتلقي البسيط والمتلقي النخبوي، بوصفها موضوعة محلية ريفية جنوبية (بصرية) بألوانها المحلية الشعبية الجميلة وبزخارفها التي اعتدناها في بيوتاتنا البسيطة،

والذي يؤكد ما رميت له أن (هن) لم يكن معرضاً لمناهضة معضلة صراع الأنوثة والذكورة المجتمعية الذي قد يبث رسالة ساذجة يقرأها متلقون محددون، فوجود (هن) لم يكن يسعى لهدف معاداة العنف والقسرية الذكورية في المجتمع الشرقي والمحلي الجنوبي على وجه التحديد، إنما كان طرحاً تعبيرياً جمالياً لتشخيص منظومة محلية متداولة ومعاشة في المجتمع الريفي، المجتمع الذي يعطي القيمة المعنوية والوجودية للمرأة أكثر من المدينة وفي أزمان سحيقة وليس الآن، فهي العامل والفلاح وربة البيت والزوجة والأخت والأم وصاحبة المواقف الكبيرة في مناصرتها الرجل.

3 - تباينت منحوتات (هن) ما بين المزجج الملون واللون المطفي (المات) بـألوان حيادية رمادية و/ او كرات محمرة أو مسودة وظفتها الفنانة لتكون جمالاً مضافاً إلى وحدة الألوان الموضوعة، فضلاً عن الحالة الشعورية واللاشعورية التي تولدها هذه الألوان لدى المتلقي لتجعله متلقياً ومتسائلاً فاعلاً وليس متلقياً أو متسائلاً سلبياً، أي أن الفنانة جعلت من آلية التلقي موضوعة مضافة، وهذا ما توافق مع طروحات فلاسفة نظرية التلقي والاستقبال ومنهم (فولفغانغ إيزر) بوصفه المتلقي الضمني أو القارئ الضمني أو المتلقي الفاعل الذي ينتج خطاباً إبداعياً مضافاً إلى الخطاب الإبداعي الجمالي.

4 - ومن المؤكد أن هذه تجربة الأولى للفنانة مع الطين (طينة مفخورة أو مزججة) فهي تجربة لا تهدف لتوصيف وجود نحاتة أو خزافة، بل أنها طروحات غايتها الانفتاح والتجريب على عوالم أخرى وأرضيات غير منقبة بدراسة وبحث تقني مسبقاً من قبل الفنانة، فلم تكن غايتها اللعب والخوض في خامات مغايرة لتخصصها بوصفها (رسامة) إنما هي ممارسة تجريبية تأملية، تذكر الفنان أنها (مارستها بشغف الاكتشاف ومتعة ترقب النتائج).

5 - ولعدم حصر التقاطات الفنانة التقنية، هناك التقاطات ذكية ذات وعي مسبق، يتمثل بتوظيف مادة الخشب من دون أن يكون مهذباً أو معمولا بعناية وتهذيب، فقد وظفته بوصفه

مهملاً أضفت إليه القيمة الجمالية والموضوعية بتوافق ذهني وتصور مسبق لم يعتده الخزافون النحاتون بشكل كبير، فالخزاف يندر أن يضيف مادة أخرى لخزفياته، في حين يهذب النحات مادة الخشب ليضعها كقاعدة لمنحوتته، وهنا جاءت مشاكسة الفنانة جنان محمد لتصورات المتلقي المختص، فلم تلجأ لتوظيف مادة الخشب بوصفه قاعدة لخزفياتها بالمطلق، إنما كان جنساً تقنياً مكملاً جمالياً وموضوعياً لـ (هن) فقد أسست في أحد منحوتاتها الخزفية قطعة خشبية اسطوانية اتكأت يد إحدى لوحات (هن) عليها، وهذا الوعي المسبق الذي تحدثت عنه، ووضعت (إحداهن) جالسة على مكعب خشبي (صندوق) غير معتنى به وكأنها في جلسة تأمل على شاطئ النهر، في حين تركت (بعضهن) على أرضية نوافذ القاعة من دون إضافة خامة أخرى، أي أن جنان لم تكن عفوية في اشتغال جلسات (هن) فتوافقت حركات (هن) بمجملها مع الخامة الأخرى المضافة.

6 - بمجمل معرض (هن) أرسلت الفنانة خطاباً موحداً وموضوعة موحدة، فهناك التفاتة حالمة، وهناك التفاتة مترقبة ولعل ما يثير دهشة المتلقي انسيابية الوجوه ورشاقتها المتوافقة مع رشاقة أجسامهن برؤوس تنظر إلى الأعلى، وهذا ما أجده أحد منطلقات النقد بقراءة النصوص بانفتاح تأويلي وقراءة مغايرة يفترضها وعي المتلقي، فقد وظفت علاماتها لتؤدي وظيفة التواصل مع الآخر.

7 - تمثلت الأزياء المستخدمة في معظم المعروضات بزخارفها لا سيما المزججة، فكانت قيمتها اللونية وما يشير إليه الملمس المدرك من قبل المتلقي إلى المحلية الشعبية، فصورت في بعضها البسط الشعبية بألوان متداولة.

8 - التواصل ما بين المحلية والتوجهات الجمالية الغربية الحداثية كان في قمته عطاءً، عندما تناغمت الفنانة مع الموروث الشعبي المحلي الضيق في مساحته، المتسع في أفقه، الجمالي بالمزاوجة الواعية مع البناء الغربي، ولعل تعبيريات موديلياني أو مونخ أو كوكان ومنحوتات ماتيس وبيكاسو في بعض أعماله التعبيرية، فضلاً عن الأعمال السريالية لمنحوتات جياكوميتي ذات الإستطالات في الشخوص كسريالية حداثية، جاءت لتعضده الفنانة جنان بعرضها أعمالاً سريالية ليست على مستوى العرض والشكل والتكوين، إنما على مستوى الفكرة، إذ نجد الفنانة اشتغلت على اللاشعور بوصفه شعوراً كما هو تصور فرويد الذي يوصف الإنسان كجبل الجليد الظاهر منه لا يعادل عشر المغمور، لتعرض سريالية غرائبية مختصة بـ (جنان) وليست كسريالية الحداثيين. وأراني لا أغالي إذا افترضت أن الفنانة وضعت نفسها (وجهها) بوعي أو دونه كأيقونة حالمة مررتها على المعروضات كأنها تعلن وجودها الحالم وكينونتها العقلية ضمن المسار الجمالي.

المعرض بأيقوناته (هن) طفرة نوعية معرفية جمالية في تجربة جنان محمد على وجه الخصوص، طفرة نوعية في النحت الخزفي العراقي والعربي على حد سواء، إن لم تكن قد تجاوزت التاريخ والجغرافية، فما حملته المنحوتات في الجانب الآخر كان محلية مؤكدة، امتلكت صفة الأصالة بما تحمله من صفات المحلة الجنوبية البصرية بتعبيرية وجدانية بشكل مطلق، دون أن يكون لـ (هن) تنصل من (بصراويتهن) وجنوبيتهن، فخطابها عزز قيم التجديد في المغاير لمعروضاتها السابقة.

* كلية الفنون الجميلة/ جامعة البصرة

فن الرواية: تقنية لحياة عناصرها

اسماعيل ابراهيم عبد

الفن المحاذي لحياة الناس سواء كانوا من عُلية القوم أم كانوا من هوامش الطبقات الاجتماعية، هو الفن المعاصر لهم، ولا فائدة من القول: ان لكل شعب روايته طالما هناك لكل روائي تاريخ لتقنيات رؤيته، بمعنى أن العالم امتزج مع الفن وصارا إطاراً ضخما للرؤى الإنسانية، وقد أُلِفت تلك الرؤى ذاتها من جهد أفراد، مبرمجة على وفق ترتيب الشخوص ضمن الزمان والمكان والحدث والروي، وتلك ضمن وصف الهيئات والاشكال والموجودات والمعاني المجردة والأسماء وعناصر البيئة، ثم الوصف الحر للحركة، أيّ ما يكون مصدرها.

بوسعنا القول، أن الوصف هو العنصر الوحيد في الرواية الذي لن يتعرض للموت، خاصة وأن المؤلف يموت والشخوص والراوي والمروية والعُلّية، كلهم قد يموتون. تُرى لماذا لا يموت الوصف؟

من المُبَكِّر الجزم بهذه القضية، لكن عندما نترك العِنان للأموات أن يعودوا، فلن يكون من المُسْتَبْعَد عودة الديمومة لجميع العناصر الروائية بأشكال جديدة. وكل عنصر سيحتاج موضعاً وزمناً يتحرك ضمنه ثم، قولاً يحمل مكامنه وظواهره، ولن يجد غير الوصف ثابتة توضِّعُهُ بمكانه من الروي.

ومع التكثيف والانفتاح العددي للبحوث في مجال الرؤية الروائية لكن لم يتم التوصل الى فهم جيد للرواية الجديدة، وبالعودة الى المشهد العام الذي تشيده الرواية العراقية سنجد نماذج خاصة يمكن ان نبني عَبْرَها رؤية عامة مع الاحتفاظ بخصوصية الفعل الفردي لكل راو، إذ ان الرواية العراقية أثبتت مكانتها القرائية وانتشارها المناسب، ومن الجدوى ان نتابعها، وإذا ما فعلنا سنكشف ما يستوطن دواخلها من ثقافة وتجريب وتأسيس وتواشج متبادل بين الرؤية الذاتية والرؤى العامة لمستقبل الرواية في العراق.. وسنخرج منها بقيم فنية ومعرفية مهمة عبر المجسات الفاحصة التي قد يتممها التقصي القرائي الذي يتبنى مشاريع قادرة على التطور والاسهام الجديد في رسم خارطة فنيّة جديّة لها ذات الانفتاحات على التطور

الروائي العربي والعالمي، مستثمرة عالمية التراث الرافديني وخصوصية موجوداته حتى لو أُخذ كمصادر أثيرة أساسية للفعل الروائي فقط. ومما يستدعي جدية المتابعة للرواية العراقية، انها تتمتع بتنوع حيوي يمكّنها من القيام بخطوات حثيثة على مستوى اللغة والبث الاشاري والتجريب الفني محتوى واسلوبا. إن من المقدر للرواية العراقية ألا تظل حبيسة مكتومة الأنفاس، وأنها ستتمتع بحرية التجربة المخالفة على مستوى غير محدود سيعتدُّ به كمحفز او كحالة إيقاظ فني كبير يستهدف بناء علاقة جديدة بين القارئ والروائي.

وقد يكون الفضاء التقني والتكنولوجي منظومة لموجودات الرواية له ما يضاهيه ويضافره من مكونات الروي (تسميات، حركات، أفعال، تحيين زماني ومكانية)، فضلاً عن توافقات النسج واتساق عناصر السرد الأساسية (الشخصيات، الأفعال، الراوي، الزمان، المكان، الحركة)، والعناصر المكملة (الرؤية، الاسلوب، نموذج ادوات اللغة، تخطيطات السرد الصوري، العناوين، التسطير.. الخ) بتضافرها، ستمثل منظومة روائية عربية تسم العمل الابداعي الذي يستجيب للتأمل والحجاج للمؤولات الدلالية للروايات التي تكتسي بنوع من المشتركات الفنية والفكرية التي تؤهلها لتصيير قوانين لا اشتراطية يتبناها القارئ العربي عموماً.

اننا نرى بأن الأقرب من القوانين الروائية الى القوانين تكنولوجيا حيوية الروي هي الميزات التي تتمتع بها العناصر الآتية بموجب توصيفها الآتي:

أولاً : الاستعارة والاشارة

تتجلى قوى الاستعارة ـ وبشكل بديهي ـ في عناصر الحدث السردي على وفق نظام يقع بين التأشير والتشفير يتخذ من تناصات المجتمع واللغة مادته الأساسية كون اللغة منتجا اجتماعيا له خاصية الافهام والتواصل والاستعمال والنقل والتبادل المعرفي والسلعي، المادي والمعنوي.

إذن، قولنا في أعلاه يُعظّم دور اللغة السردية كونها مادة التبادل المعرفي، وهي بذات الوقت صياغة تُصنع بروية ورؤية خاصة، تحيل ـ على الأغلب ـ الى الاشارة الملغزة كونها مؤشرا غير مباشر لقضية ما، فضلاً عن ان هذه الاشارة توحي بتمثل اجتماعي مقابل، ثم تندمج بوظيفة التوصيل والتواصل. بمعنى ان الأركان الثلاثة (القضية، والمجتمع، والتواصيل) ستحتويهم لغة سردية قائمة على فعل ذي ثلاث وظائف هي:

1. استعارات الحدث/ إذ ان تناول قضية الاستعارة في النص الأدبي هو: "بيان دور الاستعارة في صياغة رؤية مميزة للعالم المحيط بالذات، وفي الكشف عن خصوصية التجربة المتصلة بصاحب النص، وبيان الأثر الفاعل لسياق الخارج المحيط بعالم الفن في شحنة الخيال، التي يظهر أمام القراء محملاً بها، فضلاً عن تحويل الموقف إلى بنية جمالية للاستعارة في إطار ثنائية أثيرة هي (داخل النص وخارجه)، وما للثنائية هذه من أهمية في تماسك أجزاء الخطاب الأدبي" (1).

* ان خصوصية الاستعارة بالنسبة لنا ـ وبالاستعانة ما ذُكر أعلاه ـ ان

الاستعارة السردية رؤية عميقة للمختلف من الإشارات النصية، ضمن مرحلة تكوين داخل النص وانبعاثه الى خارجه (الفضاء التأثيري للنص)، والمعكوس من فضاء التأثير نحو عناصر السرد الداخلة في صناعة الخطاب القصصي، يجري ذلك على وفق تخالف اتجاهات الحدث كأفعال للفاعل أو أفعال وقعت على الفاعل لتضعه في درجة المفعول به. أما شرط عمل الاستعارة الحدثية فهو في ايجاد فضاء من المخفي والمُظْهر للتظافر اللغوي المستمر.

2. تأويلية المروي/ فلعل أقرب فهم له هو تأويل اشارات الروي للفهم الصوري اللغوي المجازي للحكاية الاليغورية التي هي "صورة مجازية تنسج من مادة سردية وتنطوي على معنى ظاهر وآخر خفي، كونها من المجاز السردي"(2). ومن ناحية اخرى يمكننا ان نشير الى الاتجاه الآخر لفهم اشارات الروي على وفق غرض التأويل بالمعنى الاشتراطي الآتي: " في كتابه: الأدب العام والمقارن يمنح دانيال هنري الحرية لجمالية التلقي التي اقترحها ياوس بالأهداف التالية: تجديد التَّاريخ الأدبي، تحويل الاهتمام بالمؤَّلف (المرسل) إلى القارئ والجمهور (المتلقي)، المرور من بعض أفكار الإبداع إلى التَّأويل وإلى هرمينوطيقا النُّصوص الأدبيَّة "(3). ان ما يهمنا من أراء ياوس هو الهدف الثالث الذي يتضامن مع الشكل الرباعي لإشارية تأويل المروية، أي أن على فهمنا ان يتضمن توصيف (المجاز السردي الظاهر، والمجاز المخفي، والواقعة المجردة، وتناصات منطق المؤلف).

3. فعل الشخصيات مزدوجة الأدوار/ للفعل الذي يؤديه الفاعل البطل والشخوص الآخرون وظيفة أساسية مهمة وأُخرى ثانوية، وكثيراً ما يحدث في السرد أن تتغير بيئة الشخوص ورتبهم في السرد على وفق ثلاثة قوانين هي:

- المساحة الكتابية التي تخص الشخصية في امتدادها او تقلصها.
- التضخيم او التقليل من الأهمية المعنوية للشخصية.
- التحول من الدور الرئيس الى الدور الثانوي وبالعكس.

ثانياً : الثيمة والمؤشرات

ان المؤشرات السردية عموماً تُعنى بموضوعات تقع بين العرض الثيمي والفتنة اللغوية. وتُعنى كذلك بموضوعات تحث المتابع على تصنيفها بحسب مستويات خاصة. منها:

أ. المؤشرات: هناك ضرورات اشتراطية للقراءات التي تتجه نحو انتاجية الجديد للسرد لا الانتفاع الجزئي به فقط. ان قراءات المتعة المباشرة دون التعدي الى التأويل بظرفه المنتج تعني ضياع الجهد الكبير لجودة وفتنة وجمال الفعل الروائي، ثم انه سيترك العمل مشوهاً وعرضة للأغراض سيئة القصد او سيئة الوعي، وهو ما تنهانا عنه القراءة الانتاجية.

بمعنى اننا بإزاء الفعل القرائي نكون ملزمين بنوع قرائي يشترك في صناعة الوعي الفني والقيمي للمروي. وعلى

وفق التجارب القرائية في النقد التطبيقي نرى القراءة الناجحة المنتجة تتجه نحو المؤشرات الآتية:

1) امتلاك الخبرة القرائية لمختلف المعارف بالحد الأدنى لأكثرها شيوعاً أو لأهمها في الحياة الاجتماعية، كما يقتضي الحال امتلاك معلومات مهمة أساسية في معارف علم السرد.

2) امتلاك القارئ ثقافة مجتمعية عامة تؤهله لفهم أنواع السلوك للشخوص الفواعل والانماط الطبقية التي ترد في المتن المروي.

3) ومن المهم ان يتزود القارئ المنتج بخبرة نقدية يعالج بها ـ ذاتياً ـ فعل الكشف عن المضمر الدلالي للثيمات وموضوعاتها الفرعية.

4) على المتلقي الفعّال ان يمتلك خبرة في أهم المعلومات المتعلقة بالبلاغة اللغوية وقواعدها وصرفها، لأجل ألّا تنغلق عليه بعض الجمل والألفاظ الواردة في المتن المروي ويضيع عليه التأويل الأفضل.

5) يمكن للمتابع القرائي ان يتفوق على المؤلف والقارئ الكسول بذكائه في كشف الغموض في المعنى العام للأثر، والوصول الى شفرات النص السرية، وتربية وخبايا الكاتب وحيله الفنية وألاعيبه المخاتلة في تسويغ المنتج النصي.

6) يمكن للقارئ ان يمتلك ناصية التداول المعرفي للمرويات السردية باطلاعه على الأفضل والأعمق من الكتب المتوفرة في أسواق ومتاجر الكتب، والمُحَمَّلة على النت.

7) من الضرورات الأساسية ان يتعلم القارئ الفاعل الشيء الكثير عن تكنلوجيا العصر (الانترنيت) كونه وسيلة وثقافة أسبغتها المعلوماتية على جميع المنتجات الحضارية، لجميع الفنون والمعارف والعلوم التقنية.

ب. مستويات الثيم: ترتبط ثيم بعض الروايات بقيم أساسية تخص البناء الدرامي للرواية صانعة لذاتها زماناً ومكاناً تقيم عند حدوده تعبيرها الفني منها:

(1) المستوى الفردي: يتمثل ذلك بما انجزته الرواية للفرد لكي يقاوم بكل حياته كل اضطهاد لفرديته وفرادته وتمرده.

(2) المستوى الجماعي: يتمثل ذلك بعلاقة العنف بين الحكام والمحكومين لكل من يعارض سياسة الدولة عبر وعي تُشَرّعُهُ الروايةُ للناس.

(3) المستوى الاجتماعي: يتمثل بالطبقات الاجتماعية الفقيرة التي ينالها حيف الجوع والتخلف والمرض وانتهاك الأعراض.

(4) مستوى التقنيات: انها تقنيات من تنميط أساسي يضبط ويرتب ويُنَغِّم كلاً من الجمل والفقرات والدلالات الايقاعية. و لقد دأبت الرواية على تأكيد فعل هذا الاتجاه عبر))اللازمات التي هي تكرار متنوع الدلالة)) +))المتواليات التي هي تشبه بالغنائية)) +))الخلائط التي هي تجميع لأكثر من نوع ايقاعي)) + ((الإيقاعات الفكرية التي هي ايقاعات التصريح بالأفكار العميقة المتكررة لأغراض دلالية مختلفة عن استخدامها الاول)).

ثالثاً : التناثر المنتظم

يشمل هذا التناثر العناصر الروائية بمعظمها، وعلى الأخص (الأزمان، الأحداث، الفواعل، الرواة) بإعطائها مميزاتها الآتية:

1 - هشائم الأزمان المتداخلة: وفيها يمارس الروائي لعبة تهشيم ونشر الأزمان بطريقة ضبط الفوضى الزمنية ببرمجة فكرية (لمنظور) يسمح بحرية الروي مع عدم التضحية بالمنطق الجمالي للغة ودلالات التعبير. "المنظور.. هو منظور الشخصية التي تمتلك الحقيقة - بقصد التعبير عن الحقيقة - الممثلة للمؤلف"(4)، والمؤلف والشخصية القائمة توجه التعبير والتناثر والضليل.

2 - اتساق الأحداث بلا انتظامها: ان الأحداث التي هي وقائع وأفعال يقوم بها الشخوص، أو ينقلها الراوي هي عبارة عن محيّن للروي ينقل الفعل من واقعه الحقيقي الى واقعه الفني من ثم ينتقل به الى الفعل المتخيل له. هذه الأحداث يكثر فيها التغير والتشكك والمحو مما يحيل الى نوع من الاضطراب السلوكي والنفسي يهشم ويبطل صدقها الاجتماعي لكنها أفعال تحتفظ بجديتها وتخادمها مع بقية مضفورات الروي.

3 - التوزع العمدي للفواعل: الفواعل او الفاعلون هم من يقومون بالأفعال ويتصدرون واجهات الأحداث كونهم صانعيها هؤلاء نموذجان، فواعل مؤثرون وآخرون ثانويّون. لكن الصنفين يتعرضان للتهشيم والتضييع.

4 - التناوب الظلّي للرواة: في الروي يكون حضور الراوي وسيطا لا حياديا، وان كان يتظاهر بالحيادية. وفي اغلب الروايات تصل وظيفته الى حد التدخل في توجيه الأفعال وتقزيم الشخوص او تضخيمهم. لكن ما يلفت النظر في هذا، هو التناوب المتسارع في الروي كأنما هناك رقيب يوزع المهمات، وأن التسابق على تنفيذ الروي جزء من كفاءة الراوي المتنافس مع آخرين على انجاز المهمة.

المصادر المساعدة

1- احمد يحيى علي محمد، خطاب الاستعارة في السرد القصصي، التواصل الادبي ASJP - موقع الكتروني، المغرب ، تأريخ النشر 26 /2 /2019.

2- الاليغوريا، ادارة دار التنوير العمانية، تأريخ النشر، 26 /2 /2019.

3- مجلة نزوى العمانية، هيئة التحرير، التلقي حوار بين النص الادبي وقرائه، عدد 96 كانون الثاني، 2018.

4- د. شجاع العاني، البناء الفني في الرواية العربية في العراق - بناء المنظور، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2012 ،35.

نعوش السلام

بيداء حكمت

أعرفُ أَنّ الكتابةَ تُهيأ الآنَ
كما فى كلِّ مرّةٍ
عدَّتها بحميميّةٍ :
رائحةُ المطرِ
وإيقاعِ أناشيدِ العصافيرِ
وصلواتِ الطّبيعةِ بفَرضِها ونوافِلها....
وأعرفُ أُنَّ النارَ تسعَي
لِتُطفيءَ عُزلةَ الحَطبِ
وتُعيدَ إلي ذاكرتهِ
أنّهُ من أنسابِ الشّجرِ...
وأعرفُ أَنَّ الظّلَ
لايأوى إلاّ إلي حُضنِ العُتمةِ
ليخفىَ سرَّهُ...
وأعرفُ أيضاً
أَنَّ المطر يأتى
بلا ثرثرةٍ عن السّخاءِ
إلي مسرحِ السّماءِ
لكنْ ،

بعدَ هزائمَ طاحنةٍ....
وكما أعرفُ أَنَّ الغيومَ
ما إن مُلِئتْ ..ومرّتْ..
من فوق المدينةِ القديمةِ
أسرابَ قِرَبٍ
أخذَ الغولُ يبتلعُها
سِرباً إثرَ آخرَ...
مثلما أعرف أَنّ العَدالةَ
لا تتجولُ فى أزقةِ التّعساءِ
ولا تُجيدُ لغاتِهم

فهى أُرستقراطيّةُ النّزعةِ!..
اعرفُ أعرفُ
أَنّنا داخلَ اللعبةِ
لعبةٍ
لايجيدُ العرّافونَ أنفسُهم
فكَّ شفراتِها
كما أعرفُ أَنّى لا أُجيدُ
سوي اللّعبِ
بعلاماتِ التّرقيمِ وسْطَ اللعبةِ
لاأكثرَ !
ولاأزالُ مثلَ أوكتافيوباث أُردّدُ:
" إنّنى فى مُنتصف الجملة هذهِ"
وأعرف أَنّى ماكنتُ أعرفُ
أَنّ الطبيعةَ
بالغةُ الدّهاءِ هكذا ،
تُتقنُ لغاتِ الفصولِ

ولا تُسلِّمُ مفاتيحَها السريّةَ
إلاّ للغيومِ...
واعرفُ.. أعرفُ أيضاً
أَنَّ الشّمسَ
لاتزال تتبخترُ كلَّ صباحٍ
تسرّحُ شَعرَها
فى مرايا الماء ..
وعرفتُ أَنَّ للحُلمِ عينينِ،
عينٌ نصفُ غافيةٌ
تحلُمُ بالنّومِ ،وأُخري
تقرأُ كتاباً فى
تفسير الأحلام ،
واعرفُ.. أَنَّ للحربِ
وصاياها الشّعواءَ
حمراءَ العينينِ
لا تدسُّها إلاّ فى نعوشِ السّلامِ..

الوالي المحسّن

د . ظاهر شوكت

إنه الطاووس تماماً حين تومض في داخله العظمة، يبسط ذراعيه الى الخارج كما يفعل المراهقون ليشعروا بالقوة وبالعافية، مد يده الى أزرار معطفه الانيق ليتأكد من وجودها، سعل سعلة جافة لم تكن به حاجة اليها، إنما ليوحي بشيء من القوة. نظر بطرف خفي الى حذائه فوجده يلمع فسره ذلك، وحين إقترب من باب مقره، إنطلق (مطيع) بكل قوته وفتح الباب، ولاهثا مد يده وانحنى: تفضل مولاي.. تفضل ما إنْ جلس الوالي على كرسيه الفخم جداً حتى جيىء بفنجان القهوة العثمانية اللذيذة جداً عنده. ارتشف منها، ثم ضغط على زر الجرس.

حضر (مطيع) على الفور ذليلاً كعادته:

- نعم مولاي

- هل أحضرت الذين طلبتهم؟

بفرح الذليل حين يحقق ما يريده سيده:

- نعم مولاي، ثمانية موظفين، وثمانية من افراد الحرس، وهم الان في القاعة ينتظرون أن تطل عليهم.

- طيب، نهض الوالي قائلاً بصوت عال: يا الله أسرع (مطيع) الى الحاضرين، وبصوت فيه حشرجة واضحة قال:

قفوا حين يدخل الوالي، أدوا التحية – كما علمتكم – لا تنظروا اليه كثيراً، لا تقتربوا منه، لا تحاولوا مصافحته، فهو – حفظه الله ورعاه – عسكري المزاج والطبع والتصرف، لا تنسوا الا يتكلم أحدكم الا اذا طلب الوالي منه ذلك، هذه هي الامانة من أجل الحفاظ عليكم، فأنا أحبكم ومن حاول أن يخالف (فذنبه على جنبه) كما يقول المثل الشعبي.

أومأ الجميع برؤوسهم إشارة الموافقة واستيعاب التعليمات، لكن بعضهم ابتسم، و(مطيع) لم يدر أكانت الابتسامة فرحاً أم تهكماً!! لا يهم مادام الوالي لما يحضر بعد.

وقف الحاضرون، رفع كل واحد يده اليمنى الى الجهة اليمنى من رأسه مؤدياً التحية العسكرية، وهو لا يقوى على كتم الاضطراب، والشوق الى معرفة سبب الاستدعاء جلس الوالي، وأشار - متفضلاً - اليهم بالجلوس، فتسلل بعض الامان الى صدورهم قال الوالي - حفظه الله ورعاه - العبارة التي كان يكررها ويحبها جداً: الحمدلله الذي هدانا لعمل الخير، وبخاصة في شهر الفضيلة والطاعة والمغفرة، شهر رمضان الكريم. نسأل الله أن يعيننا على صيامه وقيامه.

مقطباً وكأنه يشعر بالحزن، هذا ما حرصت عليه لقد تعب العراقيون حقاً، فمنذ ستين عاماً أو اكثر، ظهر قاموس جديد للعراقيين مفرداته قتل، سحل، حروب داخلية، خارجية، غزو وهجرة، تهجير، داعش، و و..... كما ظهرت مصطلحات: خائن، متخاذل، شهيد، مختطف، اغتصاب مغيّب ثم الوباء كورونا.. اعانهم الله، صبرهم عظيم وأسطوري.. كان الله في عونهم.

لقد أن لنا أن نخفف عنهم، ولن نسألهم

عليه أجرا. إنني - وقد تململ في مجلسه وشعر بشيء من - أن يقول: ياسادة: إنني خادم لهم وليست سيداً عليهم.

سرت همهمات مكحلة بابتسامات خفيفة، خافتة، مهزومة، غير مصدقة، قال أحدهم وبصوت خافت تماماً:

والله، يبدو إنك الوحيد قد رضعت من ثدي أمك ما دمت تفكر هكذا، ثم قال متحسراً لو جئت قبل عشرين عاماً؟!

وبصوت يغلب عليه إصطناع الرزانة والحكمة والخبرة والعطف قال الوالي:

لقد قررت أن أوزع قطعاً من الاراضي على من لا يملكون أرضا ولا بيتاً، وهم كثيرون جداً جداً في البلاد.

وكل عمل يجب أن نخطط له لنضمن نجاحه ونبتعد عن تكرار الاخطاء، فلذا قررت أن يكون الدوام – فيما يتعلق بهذا الشأن – لمدة 12 ساعة بدءاً من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الثامنة مساءً، فلذا يجب توزيع الواجبات بينكم.

المهم أن تستقبلوا الناس بلطف وكرم،

بلغة مؤدبة فيها الحب الكثير الواضح.

ولكي لا نتأثر بالوساطات والمؤثرات الاخرى لا تسمحوا لأي شخص مهما كانت هويته أن يدخل عليّ. اكتبوا يافطة كبيرة: ممنوع الزيارات ويافطة أخرى: يحق للمتظلمين فقط في قضية توزيع الاراضي، تقديم طلباتهم لمقابلة الوالي فورا.

إنني اتوقع أن الشكاوى ستكون كثيرة، وخاصة الشكاوى الكيدية، كل واحد لا يحصل على ما يشتهيه سوف يتذرع بشتى الوسائل ولا يهمه في أن تكون شكواه (كيدية.(

لذا لا تسمحوا لأي متظلم الدخول علي في هذه الفترة، اختلقوا الاعذار: عنده اجتماع.. طلب منه الحضور لدى البيت العالي في العاصمة، مريض، انه في جولة تفقدية للتأكد من سلامة وعدالة عملية التوزيع، أو.. أو.. أو

ولكن استقبلوهم بلطف، اطلبوا منهم أن يجلسوا قولوا: اننا مستعدون أن نوصل طلبك الى الوالي، كن مطمئنا.. وإذا وجدتم من يرفع صوته فافراد الحرس يتكفلون الامر. وإياكم إياكم ان تقولوا إن الوالي طلب كل ذلك. إنني والله حريص على سلامة العملية وعدالتها ولا أريد أن أتأثر بوساطة أو بنفوذ..

لقد خصصنا خمسة مراكز لاستقبال الطلبات لان الاعداد كبيرة جداً جداً جدا، وأنا حريص على تحقيق أمنياتهم.. ومن الله تعالى العون والتوفيق، وشكراً.

تناسل الفرح في مدينتي، تجمع الناس يبشر أحدهم الاخر ويردد أغنية (صبرنا وعوض الله، وداعاً يا حزن ولا ترجع بعد). ابتهل الناس الى الله ليحفظ واليهم الاصيل. قرر فريق منهم أن يخرجوا في مظاهرة للتعبير عن التأييد وللاحتفال بهذه المناسبة التي لم يمر مثلها اكثر من ستين عاماً، كل شيء كان يبتسم، صار الكثير يكرر: والله لقد ولدنا من جديد، إنها الخطوة الاولى على طريق السعادة والاستفادة من النفط.. هذه الثروة الهائلة التي ظلت في جيوب قلة من الحاكمين، وأغرت الاجانب بالغزو والتدمير، الحمدلله الذي وهب لنا على الكبر هذا الوالي أخيراً. أمتنا منجبة وليست عقيماً.. هكذا يقول تاريخنا قد يتأخر المنقذ، لكنه آت لا محالة !

قبالة كل مركز لقبول الطلبات ثلاثة دكاكين الاول يوزع الاستمارة، الثاني يملأ الاستمارة، الثالث يختم الاستمارة.

وضع في واجهة كل مركز وبخط كبير وواضح "يأمر الوالي بالاخبار الفوري عن كل من يحاول الضغط على الناس وابتزازهم.. تعاونوا معنا لنقطع دابر الفساد في هذا البلد الامين."

يافطة أخرى جوار أمر الوالي، تحمل حديثا نبويا شريفا

)لعن الله الراشي والمرتشي والرائش بينهما) قال أبو علاء، والفرح يأكله تماماً، قال لزوجته: الله ياأم علاء.. هل تتحقق أمنيتي وأعيش تحت سقف هو ملكي؟!

إن شاء الله، يبدو أن الوالي الجديد رجل شريف، كريم، أصيل، مؤمن، سخره الله ليساعد الفقراء أمثالنا.

- غداً يا أم علاء، سأذهب مبكراً لأقدم الطلب، ها.. تذكرت.. لابد ان أكلم جارنا أباالحمد لنذهب معاً.

ثم أسرع ابوعلاء الى باب الجيران، طرقها بفرح عارم، خرج أبواحمد مبتسماً، وقبل أن يتكلم أبوعلاء إنطلق ابواحمد يردد: صبرنا وعوض الله. وداعاً يا حزن ولا ترجع بعد. رفع ابوعلاء يديه نحو السماء متضرعاً: إن شاء الله.. بعون الله.. نحن الفقراء عيالك يا الله !

اكمل أبو احمد.

وحاشا لله أن يهمل عياله !

أبو علاء: أمنت بالله، غداً، صباحاً، نذهب

قال ابواحمد على الفور: طبعاً طبعاً، والله كنت أفكر بهذا قبل أن تأتي ياأباعلاء، نتمنى الا يكون هناك معوقات مثل الازدحام، الانتظار، تعامل الموظفين...

ظهرت أم احمد متلفعة بعباءتها: بالخير على جميع الناس، الحمدلله الذي رفع عنا هذه الغمة، قطعة الارض جعلتنا لا نفكر حتى بمخاطر (كورونا).. الحمدلله..

قال أبو علاء: هو الحافظ والرحيم بنا يا أم احمد،

في اليوم التالي، حضر أبو علاء وأبو احمد مبكرين واستطاعا أن يقفا في مقدمة الطابور قبالة الدكان الاول لاستلام الاستمارة.. تقدم ابوعلاء واستلم واحدة، وبود واضح من العامل في الدكان الذي أتبع تسليمه الاستمارة برقة قائلا: خمسة الاف فقط.

انتفض أبو علاء: خمسة الاف للاستمارة !!

قاطعه العامل: انها تعليمات الوالي.

أسرع ابواحمد وقرص اباعلاء بحنان: هذه بسيطة.. المهم قطعة الارض.. انا مستعد أن ادفع عنك يا جاري العزيز. اهدأ واترك عصبيتك. في الدكان الثاني: طلب العامل بطاقة أبي علاء ليملأ الاستمارة بموجبها، صرخ ابوعلاء: ولكني أقرأ واكتب وأستطيع إملاءها..

قال العامل بصرامة وجفاء: إنها تعليمات الوالي، لنتجنب الاخطاء والشطب والحك. دفع ابوعلاء خمسة الاف – صاغراً – أجر ملء الاستمارة ثم قال في نفسه: هِي هِي وهو يحرك يده اليمنى إشارة الى التهكم بالحالة.

في الدكان الثالث ختم العامل الاستمارة وأمسك بها، نظر الى أبي علاء، وقال واثقاً سيدي خمسة الاف دينار لتأخذها.

- عجيب.. أمعقول ما يجري؟

- مستنكراً قال العامل: انها تعليمات الوالي يا سيدي، فان كان هذا يزعجك فلا تقدم الاستمارة، وستخسر الارض.

حين دخل أبوعلاء وأبواحمد الى مبنى المركز المخصص، وجدا طابوراً طويلاً

قبالة باب الموظف المسؤول - حفظه الله - والحارس على الباب يتفنن في استفزاز الواقفين.

- أنت قف معتدلاً.. أنت لا تتكلم.. أنت هل هذه ملابس تراجع بها دائرة حكومية؟

أخذ أبو احمد جاره أبا علاء جانباً بعد أن لاحظ غليانه.. إنه على وشك أن ينفجر صارخاً، باكيا، أو أن يلقي عبارات قد تؤدي به الى الحبس. وبدأ يهون عليه، هذه أمور بسيطة مقابل قطعة الارض إن حصلنا عليها.. أبو علاء، سأقوم بمحاولة، إن نجحت افعل مثلي.

جاء أبو احمد الى الحارس، سلم عليه بحرارة قائلاً: ابن عمي، فانا مثلك

ذكر انتسابه لعشيرة، ثم دس في يده وهو يصافحه خمسة الاف دينار.

تهلل وجه الحارس وصرخ، سأخبره، يا أهلاً وسهلاً، إنه سيفرح حتماً

ثم دخل الحارس الى الغرفة وخرج بسرعة البرق ونادى أبا احمد: إبن عمي انه يريدك وأدخله قبل الاخرين

ظل أبو علاء مندهشاً، متعجباً.. ترى ماذا فعل أبو احمد؟ هل سأفعل مثله؟

حين خرج أبوأحمد من غرفة الموظف وفي يده ورقة، كان فرحاً، ردد.. الحمد لله.. صدق من قال: في كل خرابة - من حسن حظك - أن يكون لك فيها قرابة.

ثم سحب أبا علاء بقوة.. هيا، نخرج الى الساحة لاشرح لك.

وإنقاد أبو علاء متخاذلاً، مأخوذاً، يجرجر في مشيته

قال أبو احمد: أرجو الا تنفعل، والا تصرخ كل هذه الامور سهلة.. حين استقبلني الموظف –للأمانة–استقبلني بلطف لم أر مثله، أجلسني، سأل عن صحتي.. عن العائلة، كانت كلماته لذيذة، مغرية تطفح بالخير، ثم قدم لي قائمة مضمونها: يجب أن تدفع على وفق الجدول الاتي وعلى وفق رغباتك وإمكاناتك، الامر ليس إلزاماً، تستطيع أن تتراجع عن طلبك قطعة الارض 20 ورقة إذا كنت تريد قطعة مجاورة للمدينة.

15 ورقة.. القطعة على بعد خمسة كيلومترات.

10 ورقة.. عشرة كيلومترات.

5 ورقة.. 15كيلومترا.

قلت لنفسي، إنها فرصة، وافقت على الصنف الاول، وسأبذل المستحيل لاقتراض المبلغ وأنت يا أبا علاء، ماذا تقول؟

إنهار أبو علاء، تلجلج في إجابته، صار يسمع دقات قلبه تماماً ومن أين يا أبا احمد؟

ومن أين أحصل حتى على خمس أوراق؟

أنت أعرف بحالنا، (تعرف البير وغطاه)

.

وأين الوالي من كل هذا؟ والله لأقلب الدنيا عليهم،

سوف أصرخ باعلى صوتي

إبتسم أبوأحمد ومد يده ليسد فم أبي علاء.

قلت للموظف.. كيف يحدث هذا يا أخي؟

رد بثقة: إنها تعليمات الوالي

صرخ أبو علاء بعنف كيف يحدث هذا يا الهي؟ ألسنا عيالك؟

بدأت لهجته تتصاعد، صار بعض الواقفين يلتفتون صوبهم، أسرع أبوأحمد يجر أباعلاء بقوة، وحاول أن يسد فمه أكثر من مرة، وهو يكرر: هس.. هس..

سأقف معك، سأبذل المستحيل لا جعلك

جاري هناك.. لا عليك.. المهم أحصل على قطعة الارض ثم إفعل ماتريد

قال ابوعلاء بعصبية ومن دون تردد: والله لاشتكي أمرهم الى أعلى المراتب، ليؤدبوهم.. انا سوف

قاطعه أبو أحمد.. قبل أن تفعل أي شيء، احصل على الارض.. هذا حلمنا منذ طفولتنا.

أبو علاء متخاذلاً: لاحول ولا قوة الا بالله، حسبنا الله ونعم الوكيل.. والله

اذن افعل ما فعلت مع الحارس.. هاك خمسة الاف لتدسها في يد الحارس، ولكن بطريقة جديدة قف انت هنا، وأنا سأتصرف. ذهب قرب الحارس وهمس في أذنه وكأنه قال له أن ابنته قد جاءت تريده في أمر، وقد قالت له ياعم: أدع لي والدي..

خرج الحارس مصعوقاً، في الباحة قال له أبو أحمد: لم تأت بنتك وإنما أردت ان تتعرف على إبن عمك الثاني وأشار قائلاً هذا هو أبو علاء. جاء ابوعلاء وصافحه وقد دس خمسة الاف في يده، قال الحارس: انتظرا هنا، فانا سوف أنادي عليك ياباعلاء.

"طيب" قالها أبوعلاء مكسور الخاطر، مهزوماً وبدأ يلعن حظه و.. أشار أبو احمد اليه بيده، مرر يده على فمه بمعنى أسكت.

لحظات، دخل الحارس على الموظف، خرج ونادى: من هو أبو علاء؟ رفع يده أبو علاء وبصوت منفعل جداً.. نعم..

- تفضل السيد المدير يطلبك.

اقترب أبو أحمد من أبي علاء، قال له سجل على الصنف الاول

نظر أبوعلاء مندهشاً.. ومن أين؟

قلت لك أفعل ذلك

دخل أبو علاء على السيد المدير، خرج ولم تظهر فرحة الظفر على وجه، انما نظرة حزينة بائسة وقال: حسبي الله ونعم الوكيل..

أخذه أبواحمد برفق وهو يبتسم، فرحاً قال: يا أبا علاء سأدبر لك نصف المبلغ وعليك الباقي.

من أين يا أبا احمد؟ من أين؟

- دع زوجتك تبيع ماعندها من ذهب

قاطعه أبو علاء متعجباً: ذهب؟!. وهل عندها ذهب؟ ماذا تقول؟

- حاول أن تقترض من أصدقائك.. إنهم يحبونك، ويتنافسون في خدمتك

- إنهم حائرون بالعيشة كما يقولون، مساكين لانهم صاروا عيال الله

- لا تقلقل يا سيدي، فانا سأفعل ذلك

- وكيف أسدد؟

- على مهلك.. الى يوم الدين.. المهم أن تحصل على الارض وأن تكون جاري.. والله سوف أجعل أم احمد تبيع ذهبها وذهب بناتها، بكى أبوعلاء بحرارة وعانق أبا أحمد بقوة وهو يكرر يا الهي إن ابا أحمد نعمة من نعمك علي

ثم التفت الى أبي احمد: وهل نسكت عن كل هذا؟

– إفعل ماتشاء ولكن بعد تسجيل الارض! سجل أبوعلاء طلبه على الصنف الاول دفع عشرين ورقة، محاذية للمدينة، بشرط أن يكون جاراً لابي أحمد.

مرت ايام وليال، وأبو علاء شارد الذهن، بل صار يكرر: وهل نسكت على هذا الظلم، هل يعلم الوالي؟ ام علاء شكت أمره الى أم أحمد جارتها وقالت: والله إني اخاف عليه، اخشى أن يصاب بجلطة.

ردت أم احمد بود: اسم الله الرحمن، قل أعوذ برب الفلق، محفوظ بعون الله.

قال أبو علاء: والله لا اعتقد أن الوالي يعرف تفاصيل هذه الامور.. توكل على الله وقدم له شكوى أشرح له فيها كل شيء.. أنا متأكد من انه سيقلب الدنيا عليهم..

قرر أبوعلاء ألا يخبر صديقه بذلك والا يخبر زوجته..

ذهب وهو يحمل شكواه.. كان موزعاً بين أمواج من القلق والخوف.. قال إذا نجحت القضية فسأكون بطلاً يفتح الطريق للمظلومين، وبخلاف ذلك فسوف يهملون الطلب وينتهي الامر:

جاء ابو علاء الى مكتب الوالي استقبله الموظف بمنتهى اللطف والحنان، قال له تفضل إجلس، اصبر حتى تشرب شايك،

تعجب أبوعلاء قال في داخله: أمعقول أن يحدث هذا في دوائر الدولة في بلدنا؟ ثم أجاب قائلاً:

ولم لا؟ حين يكون الوالي إنساناً نظيفاً حريصاً على مصالح الناس يصبح هذا الامر مقبولاً، والرجل هو الذي بادر ولم يطلب أحد منه ذلك.. على كل حال

الموظف: تفضل سيدي، ماعندك؟

انتفض أبو علاء: عفواً سيدي.. لدي تظلم للوالي.

- وهذا حق أكد عليه حين اجتمع بنا، ولكن اليوم، الوالي سافر الى العاصمة لأنهم طلبوه، ولكي لا نتعبك إترك طلبك، وتعال بعد يومين ستجده جاهزاً بعون الله.

- حفظك الله يا ولدي، والله أنت أصيل، وكريم.

ثم غادر أبوعلاء

جاء أبوعلاء بعد يومين وتبين أن الوالي في جولة تفقدية وحين عرض الموظف طلب أبي علاء قال الوالي: يجب أن اقابل صاحب الشكوى بنفسه لأتأكد منه

وظل أبوعلاء – من غير أن يقول لصديقه ولا لزوجته – يراجع الموظف ولا يحظى بالوالي حفظه الله ولأسباب مختلفة، متنوعة، مقنعة، وخاصة ان الموظف لم يغير من اسلوبه في استقبال أبي علاء وطلب الشاي له: منتصف الليل، وقد عصى النوم على جفون ابي علاء، وقد نهشت الافكار رأسه حتى توصل الى فكرة مفادها:

سوف اخذ الطلب، وأقف قبالة الباب الذي يخرج منه الوالي، لاسلمه الطلب بنفسي

وقف أبوعلاء بعيداً عن البوابة الرئيسة وقلبه يدق بلا رحمة، يشعر بضيق في صدره، رأسه يكاد ينفجر، وهو يحسب الزمن باللحظات منتظراً خروج الوالي

جاءه أحد افراد الحرس، وبخشونة بالغة قال، هِي هي أنت.. لماذا تقف هنا؟

أبو علاء بصرامة: أنتظر خروج الوالي لأسلمه هذا التظلم.

ـ الا تخاف على نفسك؟

ـ ماذا فعلت لكي أخاف؟ هو الذي قال لنا في إعلانه، اخبروني فوراً عن كل من يسيء اليكم، أو يحاول ابتزازكم.

ـــ ابتسم الحارس وقال: المهم إني أديت الامانة وقلت لك.. وذنبك على جنبك كما يقول المثل الشعبي.. ثم أقفل راجعاً. قفز أبو علاء.. تنحنح وقال:

الحمد لله.. الان ظهر الامل المرتجى، وقفز أمام سيارة الوالي وهو يرفع الطلب، لكن أحد حراس الوالي أطلق النار من غير تردد، وأردى أبا علاء قتيلاً، وربما شهيداً!

خرّ أبوعلاء مضرجاً بدمه وهو يقول: لا ضير سأحصل عليها هناك.. هناك.. والصوت يفتر.. هناك هناك، ورحل أبو علاء من غير أن يتوقف الوالي لحظة، لأنه حريص على تمشية شؤون الرعية.

بينما اكتبه

الشاعرة إلا بول لارا
ترجمها عن الايطالية: عبدالوهاب الدايني

احبته هكذا
مع كثير من العذاب
مع العواطف
التى اكتشفتها
.....
العذاب الذى
لم يمنحها سلاماً
الذى اخجلها
وسرق منها نَفَسها
.....
عذاب كالذى
شدّ الارادة
والحماقة
للموت حباً
سويةً معه
.....

تحترق مثل النار
وتعثر علي طريقها
بقبلهما
الآن بينما اكتب
احس بوجودك
تداعبنى علي مهل
وتلحق بى
فى الصمت
الذى يلفنا
ويجعلنا نطير
دون أجنحة

مطبوعات وصلتنا :

• هاشم نعمة فياض، قراءات فكرية- سياسية، دار أهوار للنشر والتوزيع، بغداد 2022.
• د. صبحي الجميلي (محمد عبد الرحمن) الجزء الاول،الجزء الثاني، الجزء الثالث - اضاءات - دار الرواد المزدهرة - بغداد 2022.
• سهيل ناصر فاضل (ئاشتي)، نساء عراقيات - منشورات موقع الناس الالكتروني - دار الرواد المزدهرة - بغداد 2022.
• سهيل ناصر فاضل (ئاشتي)، الحركة الانصارية..حياة وشهداء -دار الرواد المزدهرة – بغداد 2022.
• الاستشراق السويدي،منتخبات، ترجمة سعيد الجعفر، دار المأمون للترجمة والنشر، الطبعة الاولى: 2021.
• كرامة حسام الساموك، القانون مرآة السياسة. منشورات اتحاد الادباء -بغداد 2022.
• نزارعبد الغفار السامرائي ..قراءات سردية – منشورات اتحاد الادباء – بغداد 2022.
• وعدالله ايليا .. قطار العمر (شعر) منشورات اتحاد الادباء - بغداد2022.